مذاهب وشخصيات

أصول التربية المثالية في إميل لجان جاك رُوسُو

دراسة وتحليل ونقد وتعليق

محمد عطيّة الابراشي

مذاهب وشخصيات

أصول التربية المثالية في إميل

لجان جاك روسو

دراسة وتحليل ونقد وتعليق

محمد عطية الابراشي

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وبعد فأقدم الى القراء فى الجمهورية العربية المتحدة والوطن العربى كله آراء علم عظيم من أعلام التربية ، وامام كبير من أئمة الاصلاح فى القرن الثامن عشر ، ذلكم هو المربى العظيم « جان جاك روسو » الذى كان له الفضل الكبير على أساتذة التربية والتعليم فى العالم أجمع حتى اليوم ٠

ولقد شغل روسو مكانة سامية فى عصره بين زعماء الاصلاح ، اذ كان لآرائه التى أذاعها أثر كبير فى حرية الأمم والشعوب ، وقد استهوتنى ناحية روسو المربى فى كتابه الثمين (اميل) ، لما لها من صلة بما اخرجته من كتب فى التربية ، لذلك آثرتها بوضع هذا الكتاب ، وكان حقا علينا أن نمحص آراء هذا الفيلسوف فى التربية ، وأن نخرجها الى العرب فى وقت تشتد فيه حاجة الامم الفتية الناهضة من البلاد العربية الى الاخذ بآراء المصلحين من كبار رجال التربية ، لتنهض بالتربية والتعليم فى مدارسها ، وتسير قدما مع قافلة الامم الحية العظيمة ٠

ولسنا نجد مربيا كافح فى الحياة كما كافح روسو ، لذلك نراه يكشف عن كثير من أسرار المجتمع فى عصره ، ويجهر بآرائه فى التربية والاجتماع ، غير آبه بما يناله من عذاب وتشريد !

ولما كان روسو قد درس الحياة فى مختلف ألوانها دراسة مملوءة بالتجربة والاختبار الدقيق استطاع أن يعرف أكثر من غيره كيف يعامل الطفل فى البيت والمدرسة ، وكيف يعامل فى المجتمع رآه مظلوما ظلما بينا ، محرروما التمتع بلذة الحرية ، وما تتيحه له من الحركة والانطلاق ، ورآه مقيدا بقيود ثقيلة لا تسمح له بالتفكير المستقل ، والاعتماد على النفس ، فأخذ يدافع عنه دفاعا حارا ، وينادى بقوة بمنحه حقه فى الحرية ، حتى تظهر ميوله ورغباته ، فيستطيع المربى أن يشجع من هذه الميول

ما يراه صالحا ، وأن يهذب منها ما يحتاج الى تهذيب • لا شك أن روسو في موقفه هذا كان خير مرب لخير طفل •

وكانت آراء روسو منهلا عذبا ، وعينا غنية نهل منها كثير من المربين القدامى والمحدثين ، فمن القدامى : « بستالوتزى ، وفرويل ، وبزداو ، وسولزمان ، وكامب ، وكانت ، وهربارت وسبنسر » • ومن المحدثين « جون ديوى ، وكلباتريك ، وباركهرست ، ومنتسورى ، ودكرولى ، وكولدول كوك ، وبرتراند رسل ، ونن ، وفندلى ، وبادلى ، ومونرو ، وبالارد ، وجون آدامز » وغير هؤلاء من المربين المحدثين في القرن العشرين •

لذلك كان روسو ـ حقا ـ زعيم المربين ، وامام المصلحين في التربية والاجتماع ، وبطل الانسانية المدافع عن الحرية •

وكان لكتابيه : « العقد الاجتماعى » و « اميل » شهرة عالمية ، فقد عد الاول في نظر المؤرخين السياسيين « انجيل الحرية » ، كما عد الآخر في نظر أساطين التربية « انجيل التربية والتعليم » ومن كتابيه هذين اغترف رجال السياسة وفلاسفة التربية •

وقد ظل كتابه « اميل » الى الآن مرجعا لكل باحث في شئون التربية، وعمدة لهذه الدراسة في كل جامعات الامم الشرقية والغربية والامريكية • وقد كتبت عنه شروح ومختصرات ومطولات ومقتبسات لا حصر لها ، وذلك بالرغم من أنه أحرق مرتين في باريس !

ومن العجب أن يسبق روسو عصره بقرن ونصف القرن تقريبا ، فقد تكهن بكثير من الآراء التى لم نشعر بصوابها الا اليوم ! وان نظرة فاحصة الى أحداث روسو ضد التقاليد القديمة ، والاساليب العتيقة التى كانت متبعة في التربية والتعليم ، وجهر بآرائه النفسية التى صارت ببراسا يهتدى به المربون ، ومنهجا سديدا في تهذيب النشء ، وتقويم اخلاق المتعلمين ، فكان أول من أدخل النور والهواء في مدارس كانت مغلقة مظلمة ، وأزال كثيرا من العادات السيئة التى كانت متأصلة في طرائق التعليم ، فلا نبالغ اذا ادعينا أنه أبو التربية الحديثة ، وقائد الافكار الجديدة •

طالب روسو المدرسين بوجوب دراسة أطفالهم دراسة تتناول تفكيرهم وعقولهم وملاحظاتهم ، وطرقهم في النظر الى الاشياء ، وعاداتهم

وميولهم ، وما يحبون وما يكرهون ، وكيف نشوقهم ونستميلهم ونجذب قلوبهم ، فروسو يريد من المدرسين أن يكونوا طلبة ـ يدرسون تلاميذهم ويعلمونهم فى وقت واحد ٠

ولعل من الانصاف لهذا المربى أن نقول : انه أودع بذور تجاربه الصالحة حقل التربية الجديب ، ثم تعهدها بالارواء والاخصاب ، وخلصها مما يعوق نموها ، ويعترض سيرها الطبعى ، تاركا لمن يخلفه ملاحظة هذا الحقل الممرع الجناب ، وتعهده كى ينتج يانع الزهر ، وناضج الثمر ، فرجال التربية الحديثة ـ وان كان يرجع اليهم الفضل فى تهذيب آرائه وتنسيقها ، والعمل بها وتنفيذها ـ يفضلهم جميعا بأسلوبه العذب البليغ ، وعباراته القوية المؤثرة ، وآرائه الحرة السديدة ، ولا غرو ، فقد كان يكتب بقلبه لا ببنانه ، وينادى بروحه لا بلسانه ، فوصل كلامه الى القلوب ، وهو من أجل عباراته الرائعة ، وآرائه القيمة فى الاصلاح والتربية جدير بأن نغفر له خطاياه ، وننسى له ما جنته يداه ٠

هذه العظمة التى تستشعرها النفس فى روسو أوحت الى أن أدرسه، وأن أنفق كثيرا من وقتى فى بسط آرائه فى التربية ، وعرضها عرضا واضحا فى أسلوب سهل لا لبس فيه ولا خفاء متوخيا طريق الاعتدال ، متجنبا المبالغات الممقوتة ، حتى أصل الى الحقيقة من بابها ، باذلا الجهد فى أن أمثل روسو فى روحه وأسلوبه ، موضحا المعنى الذى يقصده ٠ وكان هذا مما حملنى على أن أقتبس آراء روسو نفسها ، وأشرح ما خفى منها ، وأنقد ما يستحق النقد ، مسترشدا بروح التربية فى القرن العشرين ، ملتمسا العذر لروسو فى بعض الاحيان ٠

وقد جعلت المبادىء الآتية أساسا لخطتى فى وضع هذا الكتاب :

أولا : اننى أكتب عن رجل ذاع صيته فى عالم التربية ، ونقش اسمه فى سجل العظماء من رجال الفكر والاصلاح مبينا آراءه الخالدة ، وطرقه الصائبة التى رسمها للوصول الى الرجل الكامل وهو « اميل » والمرأة الكاملة وهى « صوفى » ٠

ثانيا : اننى أضع لبنى وطنى الاساس الذى بنى عليه روسو نظرياته وآرائه ، وأشرح الميول السائدة فى العصر الذى كان يعيش فيه ، ونظام المعاهد الدراسية التى كانت منتشرة فى أيامه ، والمقدرة العلمية لشعبه ، كى نستطيع أن نتصور مدى الصعوبات والعقبات التى اعترضت سبيل التقدم ، ومبلغ النجاح الذى وصلت اليه الامم المتمدينة ٠

ثالثا اننى أحاول بعرض آراء هذا المربى العظيم أن أمهد الطريق لحل كثير من مشكلات التربية والتعليم ، تلك المشكلات التى نواجهها ونحن بصدد الاخذ بكثير من المبادىء الحديثة فى نشر التعليم ورفع مستواه ٠

وما كنت لأحمل نفسى مشقة دراسة آراء هذا المربى العظيم الا لأنه فى مقدمة كبار المصلحين ، من علماء التربية وفلاسفتها ، ولأنه كان مرشدا حازما ، وقائدا مفكرا ، ومبتكرا للحركة الحديثة فى التربية ، وواضعا للأسس والقواعد النفسية فى التربية الاجتماعية ، ولأنه كان قدوة صالحة لمن جاء بعده من زعماء التربية أمثال بستالوتزى وفروبل وسبنسر الذين كانوا بحق من تلاميذه المغترفين من بحره ، الناهلين من منهله العذب ٠

وقد مات روسو فى سنة ١٧٧٨ م ، ولكنه لا يزال حيا خالدا فى عالم التربية والسياسة والاجتماع ٠ وسيبقى اسمه خالدا الى الابد ٠ وانى أرى لزاما على كل مرب ـ سواء أكان أبا أم مدرسا ـ أن يكون على اتصال وثيق ، وعلم تام بمبادىء هذا الفيلسوف الخالدة ، ليتخذها اماما مرشدا يهتدى به فى تربية الابناء ، وسراجا منيرا يسير على ضوئه فى تربية عقول النشء ، وتهذيب نفوسهم ٠

وقد كتب كثير من العلماء حول روسو كتبا قيمة ، كما ألف روسو كتبا عن نفسه ، ولكننا رأينا مع هذا أنه كان من الصعب أن نصل الى كلمة الحق فيه ، فقد اختلف الكتاب المعاصرون له فى آرائهم عنه ، اذ كان منهم الصديق ، ومنهم العدو ، ومنهم المناصر ، ومنهم المعارض ، ومنهم المعجب الذى يدافع عنه بقلبه ولسانه ، والمبغض الذى يقسو عليه كل القسوة ، ويهاجمه فى غير هوادة بحق وبغير حق ، فكان من الواجب على أن أتتبع كل ما كتب له أو عليه ، وأقرأ مناقشاته ومجادلاته ، واعترافاته ، ومناظراته جاعلا غرضى الوصول الى اليقين الذى تطمئن اليه نفسى ٠

وقد وصلت ـ ولله الحمد ـ الى رأى واضح مستنير فى روسو سجلته فى كتابى هذا ٠

وانى أهدى هذا الكتاب الى كل من له علاقة بالتربية والتعليم ، وكل من يرى رأيى فى أن التعليم أمر حيوى للانسان ، عليه يتوقف مستقبل الامم والشعوب ٠ وبغيره يستحيل الاصلاح الاجتماعى !

أهديه الى كل من يعتقد معى أن النهـــوض بالتعليم حياة الفـرد والمجتمع ، فالتعليم هو الحياة ، والجهل هو الموت ! وقد ورد فى الميثـاق الوطنى : « العلم للمجتمـــع يجب أن يكون شعار الثورة الثقافيـة » و « العلم طريقنا الى الحرية الحقيقية » و « العلم سلاح للارادة الثورية » و « العلم طريقنا الى تعويض التخلف » و « نضالنا الوطنى يعتمـد على العلم » .

وانى أستمد العناية من الله ، وأسأله السـداد والتوفيق ، انه سميع مجيب .

محمد عطيه الابراشى

الفصل الأول

جان جاك روسو المربى (١)

مؤسس التربية الحديثة

(١٧١٢ ـ ١٧٧٨ م)

---

(١) Jean Jacques Rousseau

« إن » عظماء الرجال من المربين الذين يشـــيد بذكرهم تاريخ التربية ، ويردد أسماءهم مقترنة بمبادئهم القديمة ـ يمكن تقسيمهم الى طائفتين :

١ ـ طائفة المفكرين أو النظريين ٠

٢ ـ طائفة العمليين ٠

وليس هناك ما يمنع أن يكون المفكر عمليا ، والعملي مفكرا ٠ ولم لا يكون قائد الفكر قائدا فى العمل ، وقائد العمل قائدا فى التفكير ؟

ولكن من الصعب أن نجد فى سجل التاريخ من كان ناجحا فى كلا الأمرين : الفحص عن النظريات ، وقيادة الاعمال ٠ وان التاريخ ليحدثنا عن مربين عمليين من أقدر المدرسين كرجال (الجسويتز(١) أو اليسوعيين) مع أنهم لم يكونوا أصحاب النظريات التى نهجوها فى حياتهم التعليميـة والعملية ، بل قبلوا آراء غيرهم السائدة فى عصرهم ، وعملوا جهدهم على تنفيذها وتطبيقها فى دراستهم الفنية ، فهم منفذون لنظريات غيرهم ٠

وعلى العكس من هؤلاء رجال أمثال (مونتين (٢) و (جون لوك) (٣) قد رفضوا الانظمة والمبادىء النظرية القديمة التى سبقهم بها غـيرهم ، وطرحوها وراءهم ظهريا ، وانكبوا من جديد على ضوء الحقيقة ، يبحثون

---

(١) The Jesuits

(٢) Montaign : من أكبر الكتاب الفرنسيين (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢ م)

(٣) John Locke : من أكبر فلاسفة الانجليز (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤ م)

ويمحصون ، واضعين مبادىء جديدة تتفق مع العقل الانسانى ، وتقوم على البرهان والدليل النظرى دون أن يمارسوا مهنة التدريس العملى • وكثيرا ما يحدث أن المفكر يحاول أن ينفذ نظريته ، ويسلك بها منهجا عمليا ، ولكن سرعان ما يبوء بالخسران ، ويرجع بالخيبة !

وليس توجيه الافكار الى ناحية عملية فى عالم التربية مما يحتاج الى مدى قصير ، حتى تصير أمورا نافعة فى حياة المرء ، ملائمة لطبائعه ، منسجمة مع ميوله وغرائزه ، بل تتطلب زمنا طويلا ، وجهدا عظيما ، حتى تصبح أداة صالحة تقوده الى خير الطرق ، وأنجح السبل • ومثل مجرى الافكار العظيمة فى تلك الاحوال كمثل الانهار الكبيرة ، ففى القرب من منبعها تجدها جميلة جذابة لا تفيد فائدة تامة ، ولكنها اذا تركت الجبال التى انبعثت منها ، وقطعت مرحلة طويلة من واديها — ابتدأت تتحول الى منفعة حيوية فى شئون الانسان •

هذا هو النظام الطبيعى الذى جرى عليه قادة التربية ، اذ لم يتيسر لهم الجمع بين الفكر والعمل ، وبين النظريات وتطبيقها ، ولم يكن يخطر بالعقل الانسانى أن تتغير هذه الحال ، وتتبدل تلك الانظمة الاجتماعية ، ولكن شاء القدر أن يظهر لنا بين رجالات القرن الثامن عشر رجل « من أكبر المربين وأثقبهم فكرا ، هو (جان جاك روسو) ، اذ قام بوضع النظريات ، ورسم المبادىء ، ثم عكف على تجربتها بنفسه ، ففاز باعجاب معاصريه وغيرهم من المربين ، واكتسب شهرة فائقة فى عالم التربية والاجتماع •

امتاز القرن الثامن عشر بنشاط لا حد له فى الافكار والنظريات ، لان العقول كانت ثائرة ضد آراء العصور الوسطى التى لم تصادف قبولا لدى المربين ، اذ عدوها عقبة فى سبيل التقدم والرقى ، فأخذوا يتلمسون الاسباب لازالة تلك الافكار العتيقة ، والعمل لابادتها ، وظهر أثر ذلك الروح فى الكتابات التى ظهرت فى فرنسا حول منتصف هذا القرن ، ولكن تأثيرها لم يكن أشد وقعا من تأثير روسو الذى انفجر كالبركان يقذف حممه ، لا يخشى بأسا ولا سلطانا ، ولا يهاب قوة ولا ارهابا ، يكتب ما يوحيه اليه ضميره غير هياب ولا وجل • ولا عجب ، فقد كان طليقا غير مقيد بروابط الاسرة ، ليس له مركز اجتماعى يخاف عليه ، ولا شهرة علمية يحافظ عليها ، حتى تم له النصر ، وصار علما يشار اليه ، وأضحت آراؤه فى التربية والاجتماع منارا يهتدى به •

حقا ان ما وصل اليه روسو من نتائج فى عالم التربية والاجتماع يعد انقلابا عظيما ، وبخاصة صدوره من رجل لم ينل حظه من التعليم الادبى ، ولم يثقف عقله ثقافة علمية منظمة • وليس بغـريب أن يكون مثارا للعجب ، فقد كان له من التأثير والنفوذ ما لم يكن لغيره من أئمة التربية : أمثال (مونتين) الحكيم العالم ، و (كومنيوس) (١) المحسن الكبير ، و (لوك) الفيلسوف الانجليزى العظيم ، وعبد الحقيقة والعقل •

قال روسو : (اننا نعلق أهمية كبيرة جدا على الألفاظ) ، ومع هذا فبالألفاظ ، وبالألفاظ وحدها نقش اسمه فى عالم الخلود ، وبالألفاظ لم يمت روسو ، ومازال حيا ، وسيحيا الى الأبد ، وبالألفاظ ساد روسو طائفة المصلحين من رجال التربية ، وان كلماته التى نطق بها لا تزال مصابيح يستضاء بها فى القرن العشرين ، ويهتدى بهديها ، وهى دعامة الطرق الحديثة التى ظهرت فى التربية ، فما طريقة منتسورى ، وطريقة دالتون ، وطريقة دكرولى ، وطريقة اللعب الا وليدة أفكار روسو (٢) ، وحسنة من حسناته ، وأثر من آثاره على الرغم من تعاقب العصور •

ذيوع صيت روسو :

ان أول عمل رفع شأن روسو ونشر اسمه فى الآفاق ، وسما بذكره فى مختلف البيئات ، كان موضوع جائزة نالهـا (٣) ، وأثبت فيه أن المدنية وأساليبها ، ومظاهر الحضارة والفنون ، والمدارس التى قام بهـا الانسان ـ هى منبع الشقاء ، وأس كل بلاء يصيب الانسان فى حياته ، كما أثبت أنه لا سعادة ممكنة للجنس البشرى المتعلق بأهداب المدنية الا اذا ترك هذه المظاهر الخداعة ، وتلك الألوان الخلابة من الترف والمدنية ، ورجع الى حالته الطبيعية الأولى التى نشأ فيها ، اذ فى هذه الحياة يعيش الانسان سعيدا هانئا ، بعيدا عن بذور الفساد ، نائيا عن الانغماس فى الشـهوات النفسـية التى تجر الويل ، وتسبب التعس ، وتقضى على الانسان بالفناء •

---

(١) من أكبر المربين الألمانيين فى القرن السابع عشر (١٥٩٢ ـ ١٦٧١ م) •

(٢) ارجع الى ما كتبناه عن هذه الطرق فى كتابنا (الاتجاهات الحديثة فى التربية) بمكتبة عيسى البابلى الحلبى بمصر •

(٣) ارجع الى ما كتبناه عن رسالته فى أثر العلوم والفنون فى تهذيب الأخلاق وافسادها ص ٨٧ ـ ٨٨ من كتابنا : « جان جاك روسو وآراؤه فى الاصلاح الاجتماعى » من مطبوعات الدار القومية (مذاهب وشخصيات) •

عظم روسو شأن الرجل « المتوحش النبيل » الذى يقطن الغابات ، ويتسلق الجبال ، ويقضى نهاره ويقطع ليله بين المروج والوهاد متمتعا بجمال الطبيعة ، هادئا ناعم البال ، مطمئن النفس ، لا تزعجه ضوضاء المدنية ، ولا تقض مضجعه جلبة الحياة الصاخبة ، فاذا أوقع انسان نفسه فى حالة من الشقاء ، وأحاط به اليأس بسبب اتباعه اختراعاته الكثيرة ـ فان روسو ينصح له بابعاد هذه المخترعات عنه ، حتى نضع الرجل فى حالته الطبيعية المناسبة ، وكانت مناقشته لهذا الموضوع على النحو الآتى :

(كان الانسان سعيدا فيما مضى ، وهو الآن شقى ، فأزل عنه كل شىء قد صنعه الانسان ، كى يعود الى سعادته) ٠

روسو مبدع ولكنه ثورى :

ان روسو حقا رجل مبدع ، ولكنه محب للثورة ، فلقد تكهن بالثورة الفرنسية (١٧٨٩ ـ ١٧٩٣ م) وقال نابليون : (لو لم يكن روسو ماحدثت الثورة الفرنسية) ، فهو قد توفى قبل الثورة الفرنسية ، ولكنه بذر بذورها فى كتابه (العقد الاجتماعى) وغيره ٠ وقد ورد فى خطابه (باريز) (١) لوصفائه : « لقد استدعيتم لتبتدئوا التاريخ من جديد » ٠

فى مثل هذه الأوقات العصيبة ، أوقات الشدة والأزمات ـ تتجه عناية المفكرين الى النهوض بالأطفال والتعليم ، اذ بالتعليم وحده يستطيع المصلح أن يكون نشئا جديدا وشعبا جديدا ، ويقود تلك الأرواح الى الكمال بأساليب الحياة الناهضة ، والطرق الحديثة فى التربية ٠

كان هذا منتهى أمل روسو ورغبته ، فلقد كان مصلحا كثير الخيالات والأحلام ، بعيد الآمال والمآرب ، ثار ضد الأمور المستقبحة ، والحقائق المرة التى شاهدها ، وتمنى تجديد دور التعليم الانسانية تجديدا حقيقيا ، لتتخلص من تلك العيوب والمفاسد ، اذ كان ينظر الى المثل الأعلى فى الانسانية ، ويرمى الى أسمى الوسائل فى تهذيب النشء ٠ وقد تجلت تلك الآراء بوضوح تام فى كتبه الهامة الثلاثة التى انكب على تدوينها ، وعد كل منها مأساة أو رواية محزنة ، شغلت بال المفكرين زمنا طويلا ٠

نشرت هذه الكتب فى مدى ثلاثة أعوام بين (١٧٥٩ ـ ١٧٦٢ م) وهى أحسن ماكتبه روسو ، على الرغم من تشعبها واختلافها فى الشكل

---

(١) Barere

والمادة ، وهى منبعثة عن روح تحب الانسانية ، وتنادى كلها باصلاح المجتمع ٠

وقد كان الأول منها رواية (هلويز الجديدة) (١) ، وهى رواية فى الأخلاق والصفات الأدبية ٠

والثانى يتضمن(٢) الاصلاحات السياسية ، والأنظمة الاجتماعية ، وهو كتاب « العقد الاجتماعى » ويعد « انجيل الحرية » ٠

والثالث (٣) ــ وقد سماه « اميل » ــ يبحث فى قواعد التربية ، تربية الأبناء والبنات ، ويدعى « انجيل التربية » ٠

روسو ليس المبدع الأول :

مع أن روسو قوى فى ابداعه ، عظيم فى آرائه ، سام فى روحه ــ يبعد أن ندعى أن طريقة روسو فى التربية التى شغلت ذهنه ثمانية أعوام، ثم نهجها من جاء بعده من المربين ــ معجزة من المعجزات ، أو وحى أزيد به الاعجاز ، أو نبوغ نادر المثال ، بل من المحال أن ندعى أن هذه الطريقة لم يمهد لها السبل فى الماضى ، اذ أن روسو قد سبقه كثير من المفكرين ، وفلاسفة التربية الذين جعلوا حياتهم لفهم الطبائع البشرية ، ودراسة الغرائز الانسانية ، لتقويمها وتهذيبها وفق القوانين التى ابتدعوها للنهوض بالانسان ٠ ولقد كان يجدر بالراهب « دوم كاجوت » (٤) أحد رهبان « سانت بنيدكت » (٥) وقد شغل نفسه بكتابة مجلد كبير عن السرقات الأدبية لروسو (٦) ــ كان يجدر به أن يقضى وقته فيما هو أنفع وأجدى ، فاننا ننكر أن روسو قد سرق آراء غيره وأفكاره ، ونسبها لنفسه ، ولكننا نسلم بأنه كان يحاكى غيره من المربين ، ويختط خطتهم ، ويؤمن بصحة عقيدتهم ، كما نسلم بأنه مدين لغيره ممن سبقه ، وليس

---

(١) La Nouvelle Héloïse وقد أظهرها سنة ١٧٥٩ ٠

(٢) The Social Contract وقد أظهره سنة ١٧٦٢ ٠

(٣) Emile وقد أظهره سنة ١٧٦٢ بعد كتاب العقد الاجتماعى بشهرين ٠

(٤) Dom Cajot

(٥) St. Benedict

(٦) Rousseau's Plagiarisms

التفكير فى آراء السابقين وابراز مذاهبهم فى شكل واضح جلى ، بعد ما اعتورها من غموض وخفاء أعواما طويلة ، ظلت فيها طى الكتمان ـ مما يقدح فى كرامة المربى ، ويحط من شأن أكبر النابهين ، فان لهؤلاء النابهين أعظم الأثر وأكبر الفضل فى توضيح تلك الأفكار الخفية الغامضة، وفى التفكير والتأمل لتسهيل الصعب ، وشرح المبهم ، وانارة المظلم ٠

تلك قضية طبيعية ؛ ففى كثير من الأحيان نجد التاريخ يعيد نفسه، فما تقوله اليوم ربما سبقك به غيرك بشكل آخر ، أو بعبارة أخرى ٠ فهل تلام على ذلك ؟ وهل من العدل أن يقال : انك لم تأت بشىء جديد ؟ وهل من الانصاف أن تتهم بالسرقة الأدبية ؟ هل تتهم الدكتورة (منتسورى) بأنها أخذت من روسو فى تربية الحواس وفائدتها ، وطبقتها بطريقة خاصة ؟ لا ؛ اننا نعجب بها كل الاعجاب ، ونقدرها حق قدرها ؛ فقد اختارت لطريقتها أساسا متينا ـ ولو أنه من عند غيرها ـ وبنت عليه ما بنته من الأفكار والطرق والوسائل فى التربية ، فقد تبتدىء مشروعا ، أو تذكر نظرية من النظريات ، فلا يصغى الى مشروعك أو نظريتك أحد ، ولا تجد من يعنى برأيك ، ثم تترك هذا المشروع أو تلك النظرية أثرا من بعدك ، حتى يأتى من يهب له الله قوة يرى بها ما رأيت ، ويستحسن ما استحسنت ، ايجد لديه الفرصة سانحة لاخراج هذه الفكرة الى حيز الوجود ، كى تأخذ مكانها بين الأفكار السليمة ، وينفذها فى الحياة ٠ لقد قمت أنت بواجبك ، وقام خلفك بواجبه ، وكلاكما يستحق كل مدح وتقدير ، ولكن هناك أفرادا لا يرون لغيرهم فضلا ، ولا يقرون بمعروف ، ولا يعترفون لأحد بحسنة من الحسنات ، ولا هم لهم الا الحقد والحسد والطعن ، أو النقد بحق وبغير حق ؛ فلا عجب اذا اتهم روسو بالسرقة باطلا ، فالمصلحون قد اتهموا ، والأنبياء أنفسهم قد اتهموا وكذبوا ، ولم يوثق بكلامهم الا بعد لأى مضن ، واتهام شنيع ، وخوض فى الأعراض والأموال ؛ فلا غرابة اذا اتهم روسو بالسرقة ، مع أنه لم يسرق ، وأنه كان متشبعا بروح (مونتين)(١) ، فاقتبس كثيرا من آرائه ، وقرأ كثيرا من المؤلفات الضخمة فى علوم التربية وتاريخ الاجتماع ، لكبار المربين ،

---

(١) Montaigu : من أكبر المربين الفرنسيين ، ولد سنة ١٥٣٣ ، وتوفى سنة ١٥٩٢ م ، وله آثار خالدة فى التربية والأدب والفلسفة ٠

وقادة الفكر ، أمثال (فنلون) (١) ، المصلح الفرنسى ، و (فلورى) (٢) ، العالم الفرنسى الكبير ، و(لوك) (٣) الفيلسوف الانجليزى ، و (رولين) (٤) المؤرخ الفـرنسى ، الى غير هؤلاء الذين كان لما خلفـوه من كتب نافعة ، وتركوه من مجلدات حافلة بثمار القرائح الوقادة ، والأذهان النابهة أكبر الأثر فى تربية روسو وتهذيبه ودراسته ، تلك المبادىء السامية، والقواعد الغالية التى كانت سببا قويا ، وعمادا متينا فى رفع شأنه ، ونباهـة ذكره • واننا نلمس نتيجة القراءة المنقطعة النظير لهذه المخلفات القيمة فيما أوحاه (جون لوك) الى روسو من المعارضة فى تعليم النساء والدراسة من الكتب العلمية ، مع ما بين لوك وروسو من البون الشاسع ، والفرق العظيم ، فالأول رجل علمى ، والآخر رجل خيالى ، وتغلب فيه ناحيـة الوجدان والعواطف على غيرها من النواحى الانسانية •

ولقد درس روسو كتبا كثيرة أخرى فى التربية الخلقية ، فأفاد بهذا الاطلاع الواسع فى تدوين مذهبه ، وتسطير مبادئه وآرائه • وكان أحيانا يرى رأى غيره فلا يجد مندوحة من اثباته ، ولكن بعد أن يتناوله بالتغيير والتبديل ، فيبرزه مصقولا خاليا من النقد ، مستخدما فى ذلك خياله

---

(١) Fénelon : ولد (فنلون) فى ٦ من أغسطس سنة ١٦٥١ م لأسرة فرنسية كبيرة وكان مربيا دينيا عهد اليه لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٩ م بتربية حفيده دوق (برجاندى) . ففكر فى التبعة الملقاة على عاتقه وجعل نصب عينيه غرس المبادىء السامية كالعدل والصـدق فى عقل تلميذه ، وأول كتاب ظهـر له فى التربيـة De L'Education des Filles ، وكتب كتبا أخرى كثيرة فى علم اللاهوت ، والتاريخ ، والأدب القديم • والخطابة • وتوفى فى ٧ من يناير سنة ١٧١٥ م •

(٢) Fleury : هو (كلورى فلورى ١٦٤٠ ـ ١٧٢٣ م) كان عالما فرنسيا كبيرا ، طيب القلب ، عادلا فى نقده ، سهلا فى خلقه ، قانونيا ماهرا ، ترك القـانون ثم اشتغل بالدين والتعليم ، وكتب كتبا كثيرة فى التاريخ والدين ، والتربية والتعليم ، ترجم منها كتبه الدينية الى كثير من اللغات ، لجودة مادتها ، وحسن أسلوبها •

(٣) هو (جون لوك) من أكبر المؤرخين من الانجليز عن أوربا الحديثة ، ولد فى ٢٩ من اغسطس سنة ١٦٣٢ ، وكان يفضل الحقائق على الألفاظ ، والأمور العملية على النظرية ، والأشـخاص على الكتب • وهـو صاحب الكتاب المشهور (تربية الانسـان) : (The Educatio nof Man) الذى ترجم الى اللاتينية والفرنسية والألمانية ، كتب عن الدين والحكومة وتربية الاطفال • وترى أخلاقه من روح كتابته التى يتمثل فيها حب الحقيقة ، والبدء بالمحس قبل المعقول ، وله كتاب آخر يسمى (أفكار التربية) ، وهو رسائل بينه وبين صديق له حول تربية ابن صديقه •

(٤) Rollin : ولد (شارلز رولين) بباريس فى ٣٠ من يناير سنة ١٦٦١ ، وله عدة كتب فى التاريخ وغيره •

القوى الحاد الذى يخلق من تلك الآراء والأفكار التى يستعيرها من غيره شكلا جديا ، ولونا مستحدثا : فالافكار الميتة يحييها ، والضعيفة يقويها، والخائفة من الظهور يصيرها قوية آمرة ناهية ، والمبهمة تصبح جليـــة واضحة : كالأغصان الذابلة الضعيفة تنقل الى تربة خصبة صالحة فتنمو، وتصير أشجارا ضخمة ٠

ان روسو قد يأخذ الفكرة عارية مجردة مهملة ، فيكسوها ويلبسها أحسن لباس من البحث العلمى ، ويظهرها بأحسن مظهر غير مبال بنقد لاذع ، أو ثورة جامحة ٠ فقوة الخيال التى كانت لديه ساعدته كثيرا فى تصوير الأفكار بأجلى صورة ، والجرأة التى عرف بها كانت عاملا فعالا فى نجاحه ، فكان يظهر برأيه ولو خالف آراء الناس جميعا متى اعتقد صحته ، وآمن بثبوت نظريته ، شجاعا يقول ما يعتقد ، لا يبالى نقـــد الناقدين ، وثورة الثائرين ضده فى الآراء والأفكار ٠ يستوى لديه اتفاق الناس معه فى الرأى ، أو اختلافهم عنـــه ، فهو مصـــلح جرىء فى حب الاصلاح بخلاف غيره من الناس الذين تعوزهم الشجاعة الكافية فى ابراز ما لديهم من الأفكار ، فتبقى كامنة فى صدورهم ، حتى يلقوا نحبهم ، خفية بين جوانحهم حتى تزهق روحهم ، دون أن تنتفع بها أمتهم ، وتفيد من خبرتهم ، لا يستطيعون اظهارها أو التصريح بها أمام الملأ ، لأنهم جبناء يهابون النقد واللوم ، وتهديد السلطات ٠ وقد تكون تلك الآراء كالجواهر الثمينة ، ولكن كيف نصل اليها اذا مات هذا المفكر ، وماتت أفكاره معه ؟ فلو كان روسو جبانا ما وصلت الينا آراؤه ، وما جنينا ثماره المختلفة ، ولكنه كان غير هياب ، لا يعبأ بالسلطات ، ولا يخشى انذار الحكومات ؛ فاليه يرجع الفضل فى وضع كثير من النظريات وفى اظهار آراء للمربين لم يستطيعوا اظهارها ، وفى تجديد أبنية مهدمة ، وايضاح آراء غامضة ، وتغيير أشياء قديمة ، والباسها حللا جديدة ، بفكره الوقاد ، وخياله الحاد، وقوته الخطابية ، فليس له الفضل فى الطلاء والزينة فحسب ، بل له الفضل فى الابداع والاختراع ٠

فولتير وروسو :

يختلف أثر فولتير (١) كثيرا عن أثر روسو ؛ ففولتير كان بطبيعته رجلا محسنا ، مستعدا على الدوام للتضحية بنفسه فى سبيل الدفاع

---

(١) فولتير Voltaire سنة ١٦٩٤ وتوفى سنة ١٧٧٨ ، وهو كاتب فرنسى قدير ، وشاعر كبير ، عرف بقوة الخيال ، وحدة الذكاء ، ووضوح الاسلوب .

عن البرىء أو الضعيف ، فاستمر طوال حياته ينتفع بقواه ونشاطه فى النقد المر حتى اشتهر بالقسوة الهو بعيد عنها كل البعد ، برىء منهـــا كل البراءة ، أما روسو فكان ضعيفا سريع التأثر والانفعال · أظهر كثيرا فى كتاباته حبه العام للانسانية ، ومشاركته لها فى آلامها ·

ولئن كان فولتير يمثل الناحية العقلية للشعب ، يفكر فيما يفكر فيه الشعب ، ويكتب فيما يفكر فيه الشعب ـ لقـد كان روســو يمثل الناحية الوجدانية والعاطفية للشعب ، ينادى بما يشعر به الشعب ، ويكتب ما يحس به الشعب ، فالأول كان يتأثر بالعقل والمنطق ، والآخر كان يتأثر بالعاطفة ، وكلاهمـــا يختلف عن الآخـــر فى ميوله ونزعـــاته وتربيته :

ففولتير تربى تربية منظمة (أرستقراطيـــة) فى بيت مثقف بين طبقة الأشراف ، أما روسو فلم يرب التربية المنظمة الصالحة ، ولم يجد البيت المثقف الذى يفكر فى تربيته ، فقد توفيت والدته بعد ثمانية أيام من ولادته · وكان أبوه يقرأ له كتبا قصصية فى أوقات فراغه ، ولـــكنه لم يحسن اختيار الكتب التى كان يقرؤها له ، ثم أخذ ينتقل من عمل الى آخر ، ومن صناعة الى أخرى ، ولكن أخفق لنزقه وسوء تصرفه ، وقسوة رؤسائه ، أخفق فى كل عمل أراد أن يقوم به ، وفى كل حرفة أراد أن يتعلمها ، واختلط باخوان السوء فتأثر بأخلاقهم ورذائلهم ، ولـــكنه كان يقرأ كل ماتصل اليه يده ؛ ليكمل ما كان يشعر به من نقص فى التربية ، فلا نبالغ اذا قلنا : انه ثقف نفسه ، وعرف الكثير عن المجتمع وعن البيئة، عن العمال والصناع ، والاغنياء والفقراء ، عرف الكثير بالتجربة ، وكان لهذا كله أثر كبير فى كتابته فى التربية والسياســـة ، والاجتمـــاع والاقتصاد ·

أثر روسو فى انجلترة :

ان مشابهة روسو للفيلسوف الانجليزى (جون لوك) فى كثير من المبادىء والآراء قلل من تأثيره فى انجلترة ، فلم يشعر به الانجليز كثيرا ، لأنه لم يأت بشىء جديد يسترعى ملاحظتهم ، ويتطلب دراستهم، ومع ذلك لا ينكرون أثره فى عالم التربية ؛ فقد كان المحور الذى يدور حوله من جاء بعده من علماء التربية وفلاسفتها الذين تشبعت نفوسهم بنظرياته ، وتأثروا بآرائه ، فقد حذا حذوه من خلفه من المربين ، أمثال

(كانت) (١) ، و (بزداو) (٢) ، و (بستالوزى) (٣) و (فروبل) (٤) ٠

روسو وآثاره فى عالم الذكر :

ان روسو كان أول من ثار على الطريقة المتبعة فى التعليم فى القرن الثامن عشر ، معبرا عن السخط العام ضد تلك الطريقة ، حتى أصبح قوة عظيمة فى أوروبة وكثيرا ماسمى حقيقة بأنه أبو الثورة الفرنسية الأولى التى لم يعش ، ولكن تلك الكتابةوحدها لاتكفى ايجاد تلك الثورة ، ولا يمكننا أن ننسب الثورة الفرنسية لكتابة روسو ، ولكنها قد تكون عاملا من عوامل الثورة ٠

ولقد أثر روسو فى عالم التربية والفكر ما أثرته الثورة الفرنسية بعد ذلك فى عالم السياسة ؛ فقد اكتسحت الطرق القديمة فى التربية، وأصلح حجرة الدراسة مما فيها من عيوب، وعمل على أن يبتدىء التربية من جديد ، ولم يقتنع بما كان فى أيامه من أسس وآراء فى التعليم ، بل هدمها كلها وبنى ما أراد بناءه من جديد ٠ وبهدم تلك الطرق التى رأى أنه يجب هدمها أراد أن يتخلص من الخطأ الشائع فى التعليم ، وماذا نقول فى المجهودات التى بذلها ليبنى ما هدمه ؟ لقد قال العلامة (كويك) المربى الانجليزى : « ان من السهل أن نظهر أن معظم آراء روسو غير عملية » ٠ ولكننا نقول : ان النظريات التى نادى بها روسو وقيل : ان من المحال تطبيقها ــ أصبح من الممكن تطبيقها ، كالاعتماد على النفس فى التعليم ، والحرية ، واستعمال الحواس ، فان كل هذه

---

(١) Immanuell Kant : فيلسوف ألمانى (١٧٢٤ ــ ١٨٠٤ م) له رسائل قيمة عن الفكر والعقل والأطفال وطبائعهم ، وقد كانت حياته منظمة ، وأعماله منظمة ٠

(٢) Basedow (١٧٢٣ ــ ١٧٩٠ م) من أكبر المربين الألمانيين الذين تأثروا بآراء روسو فى التربية والاجتماع وله كتب فى التربية وقصص الأطفال ، واشترك مع بعض الكتاب فى وضع كتاب (روبنسون كروزو) ٠

(٣) Pestalozzi : وهو يوحنا هنرى بستالوزى ، من أكبر المربين السويسريين ٠ ولد سنة ١٧٤٦ ، وتوفى سنة ١٨٢٧ ٠ وقد عنى بتربية الأطفال المشردين من أبناء الفقراء ، وقام بالمعجزات فى سبيل تربيتهم بمدينة (ستانز) بسويسرة ، وله آراء ثمينة فى التربية وطرق التعليم ٠

(٤) Erôbel : هو (فردريك ولهلم فروبل) من أكبر المربين الألمانيين ، وله فضل كبير فى انشاء رياض الأطفال ٠ ولد سنة ١٧٨٢ وتوفى سنة ١٨٥٢ ، وله لعب خاصة به تدعى لعب فروبل ٠

المبادىء قد نفذت فى طرق منتسورى ، ودالتون ، والمشروع ، واللعب وغيرها من الطرق الحديثة فى التربية ٠

ان الطريقة التى تبتدىء دائما بمخالفة المألوف كثيرا ما تنتهى بالخيبة والاخفاق ٠ وقد سمى روسو بالغريب الذى نزل على شواطىء انجلترة ، ولم تترك كتابته مع فصاحتها أثرا كبيرافى انجلترة ، ولم تولد احتراقا أو انفجارا فيها ، فاستخفافه بالظواهر ، ومعارضته للأمور العادية عمدا ، ومناداته بضد ما ينتظر أن يقال من الأشياء التى لم تؤلم بعض المفكرين ــ آلمت كثيرا من الانجليز ، لكن لا أحد يستطيع أن ينكر نبوغ روسو ، ولا أحد يقول بعدم عبقريته ؛ فقد كان نبوغه نادرا ، وصوته قويا مؤثرا ، أيقظ النائمين ، واستمر صداه فى جميع أنحاء العالم ٠

فعلى كل من له صلة بالتربية والتعليم أن يدرس روسو ، سواء أرضى أم لم يرض ؛ فروسو ــ وان كان له سيئات فى التربية والأخلاق ــ له كثير من الحسنات التى يجب ألا تنسى ، له كل الفضل على علماء التربية الذين أتوا من بعده ، وفلاسفة التربية فى القرن الحاضر مدينون له ، والطرق الحديثة فى التربية أثر من آثاره ٠

نعم ان له غلطات ومن السهل تجنبها ، واذا نظرنا الى أحوال روسو والعوامل التى كانت تحيط به ، والعصر الذى كان يعيش فيه ، والبيئة التى كان يتصل بها ــ التمسنا له المعذرة ، وغفرنا له خطيئته ؛ فروسو يجب أن يقرأ ، وأن يكون مرجعا أساسيا لمن يريد أن يكون مربيا ، وكتابه (اميل) يجب أن يترجم الى اللغة العربية ؛ فمن العار أن يترجم الى معظم اللغات الحية الا اللغة العربية ٠

والآن نذكر بعض القطع الهامة من (اميل) نموذجا من آرائه :

(كل شىء حسن حينما يترك يد الخالق ، وكل شىء يفسد فى يد الانسان) أى أن كل شىء يخلق خلقا حسنا ، ولا يفسده الا الانسان ، فالشىء بطبيعته حسن ، ولا يفسده الا الانسان ، « فالانسان هو المفسد »(١)٠ هذه هى النقطة الجوهرية والفكرة الرئيسية لفلسفة روسو ، فالانسان فى نظره يولد طاهرا ، خالصا من الرذائل ، ولا يغيره الا الانسان الذى يتصل به ، والبيئة التى يتأثربها ٠

---

(١) Man is the corruptor.

الغرض من التربية فى نظر روسو :

ليس الغرض من التربية عند روسو الا (تكوين انسان كامل) متصل بمسائل الحياة ومعضلاتها ، ويعمل للتغلب على مشكلاتها ؛ فليست الحياة لديه مجرد التنفس ، بل الحياة هى العمل ، والانتفاع بأعضائنا وحواسنا وقوانا التى تجعلنا نشعر بأننا أحياء ، فليس الرجل المعمر فى نظرنا بالرجل الذى عاش طويلا ، بل هو الرجل الذى شعر بالحياة الكاملة حق الشعور ، فالحياة لا تعد الا بالعمل الجليل الذى يقوم به الانسان ، والأثر الخالد الذى يتركه • وقد قلت كثيرا : ان العمل هو الحياة ، والحياة هى العمل ، والحى هو من يعمل ، أما عدد السنوات التى يعيشها الانسان فلا تعد مقياسا للحكم عليه • وان الرجل الذى لا يشعر بالحياة هو الحى الميت ، يتنفس ولكنه لا ينتفع بحياته ، ولا ينفع بها غيره • فروسو ينادى بالعمل ، واستخدام الميول والمواهب الانسانية والانتفاع بحواسنا وأعضائنا ؛ حتى نشعر بالحياة الكاملة• اننا لانريد أن نكون من الأحياء الذين لهم أعين لا يبصرون بها جمال الطبيعة التى حولهم ، ولهم آذان لا يميزون الموسيقا من الضوضاء ، ولهم قلوب لا يشعرون بها ، وعقول لا يفهمون بها ، فهؤلاء فى نظرنا أموات وليسوا بأحياء • فالغرض من التربية الحياة الكاملة ، الحياة التى نشعربها حقا •

ووظيفة التربية لدى روسو أن تزيل كل شىء يقف فى سبيل النهوض بالطبيعة الانسانية ورقيها ؛ بمعنى أن التربية يجب أن تكون وسيلة سلبية تمنع الأشياء التى تعوق نمو الطفل ، والأمور التى تؤثر فيه تأثيرا سيئا ، والبيئة التى تفسده من النواحى : العقلية والجسمية والاجتماعية والخلقية •

ولقد أطال روسو التفكير فى غرضه ، ونظر الى الطوائف الجديدة بالتربية والتعليم ، فرأى أن الفقير ليس فى حاجة تدعو الى التهذيب ، لأنه خبير بالطبيعة ، مجرب لحوادثها ، فكفاه منها تعليما وتكوينا انسانيا، أما الغنى فى نظره فهو أحق الناس بالعناية والاهتمام ، فيجب أن يعلم تعليما يلائم الحياة ؛ لأنه يعيش بعيدا عن الطوارىء ، منعما هادىء البال ، لا يزعجه تعاقب الكوارث ، وارتطام الحوادث •

آراء روسو فى التربية وحداثتها :

لقد قرئت مؤلفات روسو منذ قرنين ، ثم قرئت ثانية ، ولا تزال تقرأ وتشرح وتطبع حتى اليوم ، وستقرأ الى الأبد · وكل شيء يتعلق بروسو قد قيل وأعيد وكرر مرارا خلال تلك المدة الطويلة ؛ لأنه قوى فى أسلوبه، مخلص فى قوله ، شجاع فى رأيه ، لايقول الا ما يعتقد ، ولا يعتقد الا ما يقول ، ولا يفكر الا فى الاصلاح · استكشف بدقة كبيرة ، ومقدرة نادرة ــ مادة ليس من السهل استكشافها · فلا غرابة اذا رجعنا دائما الى روسو وأفكاره ؛ لأنه مفكر يسيطر على قرائه ويؤثر فى عقولهم تأثيرا لا نظير له · يحدثنا (ملكويردى فوج) (١) عن روسو قائلا « انه قد احتكر مستقبلنا السياسى والاجتماعى كله » · ولا عجب ؛ فانه الاتجاه الحديث لفلاسفة التربية فى القرن العشرين وأئمة العصر الحاضر نتيجة للدراسة الطويلة لكتب روسو التى أودعها خير آرائه ، وثمار مجهوده ، فكان بحق أول من بذر البذور الصالحة فى حقل التربية ، وتركها لمن يخلفه من رجال العقل والحكمة يتعهدها وينميها ·

وان من يقرأ كتاب (اميل) الذى نشر سنة ١٧٦٢م يجد بين دفتيه كثيرا من النظريات الحديثة التى كتب عنها رجال التربية سنة ١٩٠٠ رسالات وكتبا انتشرت فى جميع الآفاق ، فاكتسب شهرة ذائعة ، ولاقت قبولا حسنا من مختلفى الأجناس البشرية ، واتصف مؤلفوها بالاختراع والتجديد ، والجرأة والشجاعة ·

لم يكن هؤلاء المؤلفون سوى شراح لبعض نظريات روسو ، ومقرين لمبادئه ونظرياته العزيزة النفيسة فى نظره ، أو مكررين لآرائه معيدين لها ، ولكن بأسلوب آخر ، ولون مبتكر ، فروسو له تأثير كبير فى فلاسفة التربية الذين درسوا مؤلفاته ، وقرءوا كتبه التى لا تزال تطبع حتى اليوم ؛ لينتفع بها أبناء الأجيال المتعاقبة ، ويرتشف من نهرها العذب رجال التربية والتعليم ؛ لأنه راعى فى تدوين ما جادت به قريحته الدقة التامة ، والتزم شجاعة الرأى والقول مادام الاصلاح الاجتماعى رائده ، والتهذيب الخلقى قرينه · فلا غرابة اذا رجعنا اليه دائما فى أفكاره ، واتخذناه مرشدا أمينا ، فهو صاحب الفضل فى نجاح كثير من علماء التربية ، والطرق الحديثة فيها ·

---

(١) M. Melchior de Vogue

أثر روسو فى العناية بتربية الاطفال :

يقول روسو : « اذا كنت قد أظهرت أى نجاح فى معرفة القلب الانسانى فهذا ناشىء عن السرور الذى كنت أجده عند رؤية الأطفال وملاحظتهم » ٠

وذات مرة قالت له (مدام دى ابيناى) : (١) « ان من الصعب تربية الطفل » فقال لها روسو : « هذا حق يا سيدتى ، ولا سبب لذلك الا أن الآباء والأمهات لم يخلقوا لتربية الأطفال ، ولم يخلق الأطفال ليربوا » ٠ فعجبت تلك السيدة لهذا التناقض ، وكيف أن الآباء والأمهات لم يخلقوا لتربية الاطفال ، ولم يخلق الأطفال ليناالوا قسطهم من التربية ٠ فقال لها : « لكى تنجحى فى تربية الأطفال يجب أن تبتدئى بتغيير المجتمع من جديد » ٠ ولا عجب ؛ فقد كان الأغنياء من الأطفال فى عصر روسو يرسلون الى الريف ، ليقوم بتربيتهم مربيات ريفيات ؛ كى تكون الأم حرة فى أن تذهب كما تشاء ، وتسر نفسها كما تريد ، كما كانوا يرسلون الى الكهنة فى الكليات والراهبات فى الأديرة ، ليتعلموا فى هذه أو تلك ٠ وكان الأطفال يلبسون ملابس تضغط على أجسامهم ، وتقف دون نموهم ٠ لهذا لم يجد الأطفال العناية الواجبة من آبائهم وأمهاتهم بالفعل ٠ وقد أظهر روسو أن من الحمق والظلم ترك الأطفال فى بدء حياتهم الى نساء جاهلات ، لتربيتهم مع جهلهن بشئون التربية ٠ وفى هذا يخاطب الأمهات قائلا : « أيتها الأمهات اللطيفات ، لقد تركتن أطفالكم لتتمتعن بمسرات المدن ٠ أتعرفن كيف تعامل المربيات الجاهلات الأطفال فى القرى ؟ ما أكثر ماتحدث الوفاة لهؤلاء الأطفال مما يجدونه من الضغط والقسوة وسوء التربية ، فماذا يجب أن نفعل ؟ يجب أن تقوم الأمهات بتربية أطفالهن والعناية بهم » (٢) ٠

نعم يجب أن تقوم الأمهات بتربية أبنائهن ، كى يشعروا بعطف الأم وحنانها ، ويجدوا العناية الحقة بتربيتهم ٠

وقد نادى بهذه الارشادات كثير غيره من المربين مثل (مورلى (٣) ، وبوفون (٤) نادوا بواجب الأمهات نحو تربية الأبناء ، ولكن لم يتأثر

---

(١) Madame D. Epinay

(٢) Mothers must nurse their own children

(٣) Morley

(٤) Buffon (١٧٠٧ ـ ١٧٧٨ م) عالم فرنسى من علماء التاريخ الطبيعى ٠

أحد بكلامهم ، ولم يسمع أحد لقولهم • ولكن حينما نادى روسو بوجوب عناية الأمهات بتغذية الأبناء بأنفسهن أجبن نداءه • ولا عجب؛ فقدنادى به جان جاك روسو ، وقوله الحق • وفى ذلك قال بوفون : « اننا نقول ما يقول روسو » وننصح بما ينصح به ، ولا أحد يكترث أحد بكلامهم ، ولم يسمع أحد لقولهم • ولكن حينما نادى روسو لأقوالنا ، ولكن حينما يتكلم روسو يصغى كل انسان ويطيع » •

وبهذا بدأت الأمهات المتمدنات يعتمدن على أنفسهن فى تربية أطفالهن • واذا قامت الأم بتربية أطفالها استطعنا أن ننهض بالتربية الخلقية ، والجسمية ، والاجتماعية ؛ لأن شعور الأم نحو أطفالها غير شعور المربيات الأجنبيات نحو الأطفال • قد يتضايق الآباء والأمهات من حركات الأطفال ، وما يحدثونه من بكاء وضوضاء • وبقدر هذه المضايقة سيجدون لذة من حديثهم ، وسرورا من حركاتهم ، فيشتد تعلق الآباء بالأمهات ، وتعلق الأمهات بالآباء ، وتزداد الصلة بين الأزواج • وفى ذلك يقول روسو : « دع الزوجات يصرن أمهات ، وسرعان ما يصير الرجال آباء وأزواجا » •

والحق أن الصلة الزوجية لا تستقر الا بالأطفال ، والسعادة الزوجية لاتتم الا بأن يشعر الأب بأنه أب والأم بأنها أم • وقد نعى روسو على الآباء والأمهات اهمال الواجب عليهم نحو تربية أطفالهم ، وعدم العمل لكسب محبتهم ، فقد تركوهم فى أيدى الخدم أو المربيات ، فأفسدوا أخلاقهم وتربيتهم • وهو يعتقد أن الطفل يولد طاهرا ، ولا تفسده الا التربية الفاسدة •

الفصل الثانى

آراء روسو فى التربية

١ ـ الحالة الطبيعية (١) :

استعمل روسو هـذه القاعدة ـ وهى الحـالة الطبيعية التى كانت سائدة قبل الاختراعات الكثيرة للانسان ـ بشجاعة كبيرة فى التربية والتعليم ، ثم استنبط قاعدة عامة أخرى ، هى : « افعل ضد الأمور العادية » (٢) وبذلك تسير فى الطريق المستقيم ٠

ولم تكن تلك النصيحة اصلاحا ، بل هى ثورة ضد الأمور المألوفة، والعادات المعروفة ٠ ولا عجب ، فقـد سخر بالتعليم المـدرسى العادى ، وجعله مضحكة للجميع مبرهنا على أن هذا التعليم العادى مخالف للعقل، وبهذا النقد خدم المدرسين أكبر خدمة فى التربيـة والتعليم ، فقد جعل المربين ينظرون الى ما حولهم ، ويلحظون الطبيعـة التى تحيط بهم ، فاذا عهد الى المربى بأطفال وجب عليه أن يرجع معهم الى الحالة الطبيعية ، وأن يخالف الأمور المألوفة معهم ٠ واننا نحتاج الى كثير من التروى والتفكير قبل أن نؤيد روسو أو نخالفه فيما ذهب اليه ٠

ان روسو يرجع بكل شىء الى حالته الطبيعية ، ولكنه لسوء الحظ لم يقف قط ليوضح لنا : هل يقصـد بذلك حالة الكمال التـام أو التوحش المجرد ؟ انه يقـول : « ان الرجل المتوحش يتعلم من غـير أن يتعب أحدا بشأن تعليمه » ويستنبط من ذلك أن التعب الذى يحتمله المتمدينون فى سبيل التعلم تعب ضائع ، وهو لا يقصد بذلك اهمال الطفل ، لأنه يطالب الآباء بما عليهم من واجب فى تربية أطفالهم حيث يقول : «لا أم ، لا طفل» وحينما تنتهى الأم من القيـام بدورها فى ارضـاع طفلها وجب على الأب حينئذ ـ فى نظر روسو ـ أن يقوم بتربيته ٠

---

(١) Do the opposite to the usual.

(٢) Natural state

٢ ـ حياة الأسرة :

ان تصوير روسو للحياة الأسرية يوضح لنا كيف أن « جولى » (١) تأخذ أطفالها معها دائما • وفى الوقت الذى تظهر فيه أنها تتركهم يفعلون ما يشاءون تخفى وهى متظاهرة بالاهمال ملاحظتها التامة ، وانتباهها الشديد لأطفالها • ولما كانت واثقة من تلك الفكرة وهى أنه : « لا تعليم قبل الفهم » أى لا ينبغى البدء بالتربية العقلية قبل أن يبلغ الطفل العمر الذى يفهم فيه ، ويفكر فيه ، ويفهم ما يقال له •

ولقد صرحت قائلة : « ليست وظيفتى أن أعلم أبنائى ، بل أن أعدهم ليتعلموا » •

وفى آراء روسو عن حياة الأسرة قد أهمل الأمور الجوهرية للحياة الأسرية الكاملة ، وتمسك بالأشياء العرضية السهلة محاولا السهولة فى التعبير الى درجة أدت به أحيانا الى الخروج عن الحد ، فروسو فى تربية الطفل الذىأراد أن يجعله المثل الأعلى أهمل الوالدين، والاخوة والأخوات، وحرم الطفل البيئة الأسرية ، وأبعده عن رفاقه وأصدقائه من الأطفال ـ ومع أنه يقول ـ ان الصفات الضرورية للمدرس لا يمكن أن تنتظر الا فى المنزل الجميل ـ قد سلم أحد المربين اميل ، ليحيا حياة عزلة فى الريف قريبا من الطبيعة كل القرب، وقد أمر هذا المربىأن يخصص نفسه بهذا الطفل بضع سنوات لا ليعلمه ، بل ليضيع وقته ويبعده عن الكتب ودراستها • فاميل لم يعلم تعليما خاصا حتى بلغ اثنتى عشرة سنة من العمر ، وفى هذه السن لن يعرف ما الكتاب كما قال روسو ؟ ولو أنه أخبرنا فى مكان آخر أن اميل سيتعلم القراءة برغبته حينما يكون عمره عشر سنوات اذا لم يحاول أحد تعليمه ، فهو لن يوضع تحت ضغط ، ولن يكلف شيئا ، لكنه سيفعل ما يراه مفيدا له ، أو محبوبا لديه ، وينفذ ما يريد •

وان التخلص من الضغط انما هو فى الواقع أمر ظاهرى لا حقيقى، فكما أن الطفل فى التربية المعتادة يستخدم كل قواه ليخدع المدرس ، كذلك فى التعليم الطبيعى على حسب رأى روسو ، يخصص المدرس نفسه ليخدع الطفل • قال روسو : « دع الطفل دائما ليكون فى الظاهر سيد نفسه ، أما أنت فاجتهد أن تكون الرئيس الفعلى • فليس هناك اخضاع

---

(١) Julie فى روايته : Nouvelle Héloise: هلويز الجديدة •

تام كالخضوع الذى يحفظ مظهر الحرية ، فبهذه الوسيلة يمكن الاستيلاء حتى على الارادة » ٠

وليس من الطبيعى أن تعامل طفلا قد تربى فى وحدة وعزلة عن الأسرة كمقياس تقيس عليه ، أو نموذج تحذو حذوه ، كما أنه ليس من الطبيعى أن تكتب مقالا عن تربية نحلة بعيدة عن الخلية ، منقطعة عن النحل : فيقول (كويك) : « ان روسو فى هذا يطالب بالمستحيل » : فهو يدعى من غير دليل أن الطفل فى تربيتة يجب ألا يسمح له بالاختلاط بأحد ؛ لئلا يضع له مثلا قبيحا فيحاكيه ٠ وقد بين لنا العلم الحديث أن الصغار معرضون لأخذ أمراض من الهواء الفاسد الذى يتنفسونه ٠ ان الأطفال جميعا يجب أن يعيشوا على الدوام ، ويبقوا على مرتفع خمسة آلاف قدم فوق مستوى البحر ٠ فهذه النصيحة من الوجهة العملية لا يمكن تنفيذها ، كنصيحة روسو فى مطالبته يجعل الطفل فى عزلة عن المجتمع ، لئلا يصاب بأمراض خلقية اجتماعية ٠

٣ ـ التربية الأولى سلبية :

يقول روسو : « ان أصعب مدة للطبيعة الانسانية انما هى الفترة التى تمتد من ساعة ولادتنا الى اثنتى عشرة سنة من العمر ، فهذا هو الوقت الذى يتأثر فيه الطفل بالرذيلة والخطيئة ، وليس لدينا اذ ذاك أى عدة لابادتهما » ٠ وفى تلك المدة لايقوم المربى بالتدريس له، بل يعلمه اضاعة الوقت ٠ ان التربية الأولى يجب أن تكون سلبية محضة ؛ فهى لا تحتوى بث فضيلة ، بل صيانة من الرذيلة ، وحفظ العقل من الخطأ ، فاذا استطعت ألا تفعل شيئا للطفل ولا تسمح لأحد أن يقوم له بعمل فافعل ٠ اذا استطعت أن تربى طفلك صحيح الجسم قويا حتى يبلغ الثانية عشرة من العمر وهو عاجز عن معرفة يده اليمنى فافعل ٠ فمن دروسك الأولى معه تتفتح عيناه للبرهنة ، وان تركه من غير تأثر بأحكام وعادات سابقة يجرده من أى شىء يعترض نتيجة عنايتك ٠ اذا استطعت ألا تفعل معه شيئا فى الابتداء فانك تكون قد قمت بعمل معجزة فى التربية ، مرن جسمه وأعضاءه وحواسه وقواه ، لكن احفظ عقله هادئا بقدر ما تستطيع٠ ولا تثق بكل عواطفه التى تكونت قبل الحكم الذى يحدد قيمتها ، وتجنب كل التأثيرات الخارجية الأجنبية ٠ ولكى تمنع تولد الشر والرذيلة لا تتسرع فى ايجاد الخير والفضيلة لأن الحسن لا يكون حسنا الا اذا عرف السبب فى حسنه ، انظر الى العوائق والتأخيرات كأنها ذات فوائد كثيرة،

أى « كل تأخر فيه خير » • حسن جدا أن تتقدم نحو الغرض الذى ترمى اليه بدون أن تفقد شيئا • دع الطفولة تنضج فى الأطفال • فاذا احتاج الأطفال الى أى درس فاعمل على ألا تعطيهم اياه اليوم اذا استطعت تأجيله الى الغد من غير ضرر • »

« لا تزعج نفسك كثيرا اذا تكاسل الأطفال ، ماذا تقول فى الرجل الذى يصمم على ألا يذهب أبدا لينام ؛ كى يفيد أكبر فائدة من الحياة ؟ قد تقول : ان الرجل مجنون ، لأنه لا يمتع نفسه بالوقت • انه حارم نفسه السرور ، فبتجنبه للنوم يسرع نحو الموت • فمرحلة الطفولة مرحلة نوم للعقل والتفكير • »

وبهذا المبدأ الذى نادى به روسو ــ بألا يعلم الطفل شيئا فى الاثنتى عشرة سنة الأولى من حياته تخلص روسو من الآراء التى كانت منتشرة فى عهد النهضة ، وأثبت بكل شجاعة طريقته التى تخالف الطرق المألوفة فى ذلك الوقت كل المخالفة ؛ وهى طريقة التعليم السلبى ؛ وهو بذلك المبدأ خالف (كومنيوس) (١) « ولوك » :

فقد بالغ (كومنيوس) فى أهمية العلم والمعرفة كل المبالغة حتى كان المثل الأعلى فى نظره أنه يجب أن يكون الانسان على علم بكل شىء ، فكان فى التربية العملية لا يفكر الا فى تزويد التلاميذ بالمعلومات •

ونادى (لوك) من بعد (كومنيوس) بتكوين الأخلاق ، ولم يعن بالعلم عنايته بالأخلاق ، ولكنه رأى من الوجهة العملية أن الأخلاق وحدها لا تكفى ، بل يجب أن تصحب بالعلم والمعرفة • ولم يستطع أن يقتصر على مذهبه وهو : أن الغرض من التربية التربية الخلقية ، بل اضطر تحت تأثيرات الفروق الاجتماعية أن يفكر فيما يجب على الرجل المهذب أن يعرفه من المواد ، ولذلك يمكننا أن نقول : ان روسو أول من خالف بشجاعته النادرة ذلك الرأى الشائع منذ عصر النهضة ، وهو أن الانسان حيوان يتعلم ، ولم يعبأ بهـــذه الفكرة ، بل أنكرها كل الانكار ، ونادى بأعلى صوته : « يجب على المربى ألا يعلم الطفل شيئا فى الاثنى عشرة سنة الأولى من حياته » (٢) •

---

(١) Comenius : مرب ألمانى (١٥٩٢ ــ ١٦٧١ م) ، عنى بتربية الحواس •

(٢) For the first 12 years the educator must teach the child nothing.

روسو والتربية الحديثة :

ان لروسو أثرا كبيرا فى التربية الحديثة اليوم ، فهو أول من نادى بدراسة الأطفال ، حيث قال مخاطبا المدرس : « ادرس الطفل » • فى هذه النصيحة تجد مبدأ هاما من مبادىء التربية الحديثة : «فأول شىء يجب أن يعنى به الطالب ليكون مدرسا هو أن يدرس الطفل ، ويدرس العالم فى نظر الطالب ، ويفكر دائما فى عالم الطفولة الذى يعيش فيه ، كى يعطيه من المواد ما يلائمه • ولكى ندرس الطفل يجب أن ندرس عقلية الأطفال وتفكيرهم ، وغرائزهم وميولهم ، وما يحبونه وما يكرهونه • وبالسير فى هذا الطريق الذى رسمه روسو لدراسة الأطفال تصبح مهنة التعليم مهنة جديدة حية شائقة مثمرة •

وبدراسة الطفولة يعرف المدرس عقلية الأطفال ، وطرقهم فى التفكير والنظر الى الأشياء ، ويشعر بالصعوبات التى تمر بهم ، ويفهم عاداتهم وأخلاقهم ، ويدرك كيف يستميلهم ويجتذب قلوبهم ، وكيف يرغبهم فى العمل ، وكيف يشجعهم ، والوسائل التى بها ينجحون فى أعمالهم ، فالوسيلة الأولى للنجاح فى مهنة التدريس هى دراسة الطفل ، ومعرفة غرائزه وقواه ، وحواسه وعاداته ، وانتباهه وذاكرته وتفكيره ، وذكائه ووجدانه وارادته ، كى نعد الطفل للحياة المقبلة ، وندرك كل شىء يتعلق به بما أوتينا من صبر وملاحظة ، وتجربة ودراسة •

٤ ـ دراسة الطفولة :

لقد نادى روسو بقوله : « ادرسوا أطفالكم » • وهو بهذا القول خالف كل ما قيل من قبل فى عصر النهضة بشكل عنيف حتى أفزع كل من سمعه ، وهو بهذا قد أزال كثيرا من العيوب المنتشرة اذ ذاك فى حجرة الدراسة قبل أن يفكر أحد فى عمل المربى ، والواجب عليه للطفل • فالآن لا يشغل المربى فكره بالدروس التى يريد أن يعطيها فحسب ، بل ينظر بعينه ، ويفكر فى شىء آخر مهم يحتاج الى كثير من عنايته وانتباهه ، ذلك هو الطفل نفسه • انه الآن يفكر فى الطفل قبل أى شىء آخر • ولقد كان روسو أول من أسس التربية والتعليم على معرفة الطفل الذى يراد تربيته وتعليمه ، وبعمله هذا قد أصبح كما نعتقد من أعظم المصلحين فى التربية والتعليم •

« ليس الأطفال برجال صغار • (١) » :

هذه كلمة ثمينة قالها روسو ، قالها منذ القرن الثامن عشر ، ولم يدرك كثيرون كنهها حتى اليوم ، فبدلا من أن يبحث التعليم عن النهوض بحياة الطفل يضحى به ويضحى بالطفولة فى سبيل الحصول على علم صورى ، ومعلومات سطحية ، يظن أنها تفيده حينما يكون شابا أو رجلا ويرجع الفضل لروسو فى أنه بين لنا ذلك الخطأ الجوهرى ، وهو تضحية الطفل ، وعصر الطفولة فى سبيل أمور ظاهرية لا تنفع الطفل فى شىء • يقول روسو ، وحقا ما يقول : « اننا لا نفهم معنى الطفولة » • فلا عجب اذا اتبعنا آراء خاطئة عن الطفولة وضللنا الطريق من أول خطوة • وكثير منا يخاطب الطفل كأنه رجل ، ويعلمه كأنه رجل ، يعلمه أشياء تلائم الرجال ، ولا تلائم الاطفال ، ولا يفكر فى الموضوعات التى يستطيعون فهمها وتعلمها • وان بعض المعلمين ينتظرون دائما أن يكون الطفل رجلا، ويظنون أن يجدوا الرجل فى الطفل ، وهم لا يفكرون فى حقيقة الطفل قبل أن يكون رجلا • تفرغ روسو لدراسة الطفولة وكنهها ، وما يناسبها فاذا استطاع أحد أن يحكم على طريقة روسو بأنها خيالية، فانه لايستطيع أن يحكم على ملاحظات غير حقيقية • يقول روسو : « ربما أكون مخطئا فيما يجب أن يفعل ، لكنى أعتقد أنى مصيب فى رأيى عن المادة (٢) التى نبحث عنها ، فابدءوا حينئذ بمعرفة تلاميذكم حق المعرفة ، لأنكم من غير شك لا تعرفونهم » •

فكثير من المدرسين فى فصولهم ينسون فى نظرنا أن الطفل طفل ، وأن ما يلائم أحد الأطفال لا يلائم الآخر ؛ ولا غرابة اذا وجدت المدرس فى المدرسة الابتدائية يخطب فى أطفال يبلغوا من العمر ثمانى سنوات ، ويبرهن لهم على كروية الأرض ، أو يشرح لهم الوجود والقدم والبقاء ، والعدم والحدوث والفناء ، ويقول لهم : جاء فعل ماض مبنى على الفتح لا محل له من الاعراب ، وغير ذلك من الأمور الفلسفية التى فوق مستوى الطفل والتى يحفظها بالتكرار ، ولا يعرف لها معنى ، ولا يجد فيها لذة •

« ان الطبيعة تتطلب أن يكون الأطفال أطفالا قبل أن يكونوا رجالا • » فاذا أردنا أن نفسد هذا النظام ، ونحرف تلك الطبيعة حصلنا

---

(١) Children are not scall men.

(٢) المراد بالمادة هنا الطفل •

على ثمرة لا تنضج أولا طعم لها ، وسرعان ما تتعفن لأنها ليست بناضجة.

ان للطفولة طرقا خاصة فى الرؤية والتفكير والشعور ، ولا شىء يخالف العقل والمنطق أكثر من رغبتنا فى أن نضع لها الطريقة التى تصلح لنا نحن الرجال بدلا من طريقة الأطفال . اننا لا نعرف كيف نضع أنفسنا فى مكان الأطفال ، ولا نشعر بأفكارهم ، ثم ننسب لهم أفكارنا ظنا منا أنهم يفهمون مانفهم ، وانهم مثلنا فى التفكير ، مع أن طريقتهم فى التفكير غير طريقتنا ! اننا نملأ عقولهم بأشياء كلها خطأ ومبالغة . يقول روسو : « انى أتمنى أن يقوم حكيم من الحكماء بكتابة رسالة لنا عن فن ملاحظة الأطفال ؛ ذلك الفن الذى يفيدنا فائدة كبيرة ، والذى لا يعرف عنه الآباء والمدرسون المبادىء الأولية الى الآن » .

احتقار بعض المدرسين للطفولة وعدم اهتمامهم بها (١) :

لقد وضع روسو فى الكلمة السابقة النقطة الجوهرية ، والفكرة الرئيسية للتربية الحق والتعليم الصالح ؛ فأول واجب على المدرس أن يدرس الطفولة ويعرفها حق المعرفة ؛ فالطفل حقا هو مادة البحث والعمل ولسوء الحظ أهملت تلك المادة ، وكانت أكثر المواد اهمالا فى حجرة الدراسة ؛ تلك المادة التى أهملناها هى الطفل الذى تعهدنا بتربيته ورعايته . فالأطفال فى المدرسة يعاملون فى اعتقادنا كأنهم خلقوا لكتبهم المدرسية ولم تؤلف الكتب المدرسية لهم . فقبل أن نعد الكتاب المدرسى يجب أن نفكر فى الأطفال الذين يدرسونه ، وننظر الى ميولهم وغرائزهم وعاداتهم ، ونعمل على أن تكون هذه المادة ملائمة لهؤلاء الأطفال . ويجب ألا ننسى أننا نكتب لأطفال لا لرجال ، يجب أن يكون الكتاب صالحا للأطفال ، فلا نكلفهم شيئا فوق مستواهم ومستوى الطفولة .

أنظر الى بعض الكتب المدرسية التى بأيدى تلاميذنا نجد فيها كثيرا من الأمور التى لاتناسب مقدرتهم . خذ كراسات تلميذ من التلاميذ وألق نظرة فيها تجدها محشوة بما لا يعرف التلميذ له معنى ، ولا يفيد منه شيئا . اسأله عما كتب بيده فى كراسته تجده لا يذكر شيئا مما كتبه أو نقله من السبورة ؛ ففى مذكرته مالا طاقة له به . فبدلا من اضاعة وقته فى أمور لايفهم لها معنى يجب أن نفكر فيه ، وفيما يميل اليه ، وما يلائم سنه من موضوعات تصلح للطفولة ، حتى نجد فيها مسرة ولذة من

---

(١) Schoolmasters' contempt for childhood.

قصص شائقة ، ودروس عملية ، وأشياء تتصل بحياته يستطيع أن يراها ويسمعها ، ويلمسها ويختبرها هل هى خفيفة أو ثقيلة ؛ صغيرة أو كبيرة ؛ طويلة أو قصيرة ؟ ولكن المدرسة اليوم ـ كما كانت فى عهد روسو ـ لا تفكر فى الطفولة ، ولا تعبأ بها احتقارا لدور الطفولة · ولما كان يظن أن التربية هى حشو الذهن بالمعلومات كانت الطفولة مهملة ، تعامل كأنها شىء لا أهمية له · ولا شك فى أن عصر الطفولة أهم العصور فى حياة الانسان ، وأكثرها تعبا للمربين ، وهو العصر الذى تجد فيه لغة الأطفال وأفكارهم وطرق تفكيرهم وخيالاتهم · وليس من التربية ولا من التعليم أن تأمر الطفل بحفظ أنواع من الكلمات والجداول ، والتصريفات والتعريفات ، وعدد الأنهار والجزائر وأشباه الجزائر وحدود البلاد عن ظهر قلب ؛ فان هذه الطريقة تنافى التربية ، والتربية بريئة منها · وما الفائدة فى أن يأخذ الطفل كتاب الجغرافية ليحفظ أسماء الأنهار والبحيرات فى مملكة من المماليك ، أو يحفظ ضمائر النصب المنفصلة من كتاب القواعد ؟ ان الطفل فى ذلك كالببغاء يردد ما يجده فى كتابه حتى يحفظ عن ظهر قلب ، وما هذا بالتربية أو التعليم ·

وغريب جدا ألا تجد فى الجمهورية العربية المتحدة فرقا بين المصورات الجغرافية التى تستعمل فى المدارس الابتدائية ، والمصورات التى يستعملها الطالب فى المدارس الثانوية والعالية !

أليس هناك فرق بين الطفل والرجل ، أو بين التلميذ فى مدرسة ابتدائية والطالب فى مدرسة عالية ؛ حتى نستعمل مصورا واحدا للأثنين؟ هل مقدرة الطفل كمقدرة الرجل حتى يؤتى لهما بمصور واحد ؟ وهل يتصور العقل أن ما يصلح للرجل يصلح للطفل ؟ ·

ادخل أية مدرسة مصرية ابتدائية أو ثانوية ، وألق نظرة فى حجر الدراسة بها ، تجد المصورات الجغرافية فى المدارس الابتدائية والاعدادية هى عينها فى الثانوية والعالية ! لماذا ؟ لأننا نعتقد خطأ أن الطفل يستطيع أن يفعل ما يفعله الرجل ، ويفهم ما يفهمه ، ويرى ما يراه ويشعر بما يشعر به ، ويحس ما يحس به · فالطفل طفل ، والرجل رجل ، وما يلائم أحدهما لا يلائم الآخر ، اللهم الا اذا أردنا أن نغير الحقيقة ، ونعكس الطبيعة ، ونجعلها رأسا على عقب · اننا لسنا فى موضع يبيح لنا توضيح طريقة تدريس الجغرافية ، ولكننا ذكرنا على سبيل المثل للخطأ فى فهم الطفولة ·

وينبغى ألا نعطى تلاميذ المدارس الابتدائية والاعدادية تلك المجموعات من المصورات الجغرافية ، وأن نوفر ثمنها ، ونقوم بعمل مصورات تناسب الأطفال ، ونذكر فيها أهم الأشياء ، ونجعل التلاميذ يملئونها بأنفسهم عند حاجتهم اليها ، فيضعون اسم المدينة عند احتياجهم اليها فقط .

ولا يكفى أن نعلم الأطفال القراءة والكتابة ، ثم ندعهم فى المدارس الابتدائية يستظهرون جدول الضرب ؛ فتلك القراءة أو الكتابة التى يمكث الطفل مدة حتى يعرف قليلا من مبادئها ، قليلا لا يذكر بالنسبة للوقت الذى أضاعه فيما نسميه مدرسة أو مكتبا لا يذكر بالنسبة للصحة التى ضحى بها ، ومسرات اللعب التى حرمها . ولو شوقنا الطفل الى القراءة والكتابة لوجدنا فيهما سرورا ولذة ، وما مكث سنتين أو أكثر حتى يعرف مبادئهما ؛ كأن نذكر له كثيرا من القصص التى تناسب الأطفال ، وكثيرا من الأناشيد الجميلة ، ونكتب له رسائل من الأشياء التى يميل اليها ، حتى يشعر بأنه فى حاجة الى أن يكتشف ما فى الكتاب من حكايات وأناشيد ، ويعرف رد الرسالة ، فيسألنا من نفسه أن نعلمه القراءة والكتابة ، حتى يقرأ ما يشاء من القصص والرسائل ، ويجيب عما يرد اليه من الرسائل ، ويكتب ما يحب لأصدقائه وأقاربه . وهنا يجب تعليمه القراءة والكتابة ؛ لأنه شعر بالحاجة اليهما ، وطلبهما بنفسه ، ورأى أنه لا يستطيع أن يعمل ما فى نفسه من غير أن يكون قادرا على قراءة ما يرغب ، وكتابة ما يريد : هنا تكون القراءة والكتابة مناسبتين للطفل ، ولن يضيع وقتا فى تعلمهما اذا وجد المعلم الماهر .

لكن منذ نشر كتاب «اميل» نشر فى العالم رأى جديد فى التربية ، هو أنه يجب أن نفكر فى الطفل والطفولة ، ونذكر أن نجاح الطفل فى طفولته ينبغى ألا يقاس بمقدار ما نعرفه من الكلمات التى نحفظها ، أو البحار التى نجبر على تذكرها .

وفى معاملة الأطفال يجب ألا نفكر فى أنفسنا أو فى معلوماتنا وأفكارنا ، بل يجب أن نفكر فى الطفل وما يعرفه وما يفكر فيه . يجب ألا نفكر فى عقولنا ؛ بل فى عقول الأطفال ؛ فعقل الطفل يخالف عقل الرجل ، ونظرات الطفل تختلف عن نظرات الرجل ، ولكن كثيرا ما ينسى المربى أن يتكلم مع أطفال ، فيعطيهم من الدواء ما لا يصلح لهم مما يجب أن يعطاه الكبار لا الأطفال .

ونصيحتنا للمدرس أن يسأل نفسه على الدوام . هل هذا فى

مستوى التلميذ حتى يعطى كل طفل الدواء أو الطعـــام الذى يناسبه ؟ فمقدار الدواء للكبار لا يصلح للصغار ، وطعام هؤلاء لا يناسب أولئك ! واذا أعطينـــاهم اياه أحدثنـــا عندهم سوء هضم ، و/المنـــاهم من حيث لا نشعر • فعلى المربيين أن يذكروا الطفل ، ويذكروه دائما ، ولا يضحوا به بأية حال •

لكى نربى الطفل يجب أن ندرس الطفولة :

لقد شعر روسو بأن دراسة الطفولة ضرورية للمربى، كى يستطيع أن يعامل الأطفال بحزم وحكمة • ولا نبالغ اذا قلنا : ان روسو بالمناداة بدراسة الطفولة وهب لفرنسا أدبا جديدا ، وفتح بحوثا علمية هامة عن الطفل والطفولة : فهو بحق أبو التربية الحديثة ، وأبو الفلسفة والسياسة وفى « اميل » تجد صفحات عن ميول الطفل وأخلاقه ورغباته ، كما تجد ملاحظات متفرقة بين تلك الصفحات ، منها :

« ان الاطفال لا يفكرون الا فى الحاضر دائما ، ان فى استطاعتك أن توحى اليهم بذوق أو عاطفة ، انهم معجبون بأنفســـهم يتمنون أن يكون لديهم ما لدى غيرهم ، انهم مرحون محبون للمحاكاة ، ان الطفل يتمنى أن يكون أشياء ، وأن يحاكى ، وأن ينتج ، وأن يظهر قوة ونشاطا » •

ويدل حاضر الطفل على مستقبله ؛ فالطفل النشيط ، الكثير الحركة القوى الجسم ، المحب للاطلاع ، المشغوف بالأسئلة ، الذكى ـ يدل حاضره على مستقبل كبير اذا انتفع بتلك المواهب ، وأعطى الفرصة فى الانتفاع بها ؛ فالايحاءات التى توحى اليه ، والمثل التى يراها ، والمؤثرات التى تحيط به ، والتربيـــة التى يترباها ـ كل هـــذه الأشياء لها أثر كبير فى حياة الطفل وتربيته • :

وان وظيفتنا نحن المربين أن نعد الطفل للحياة المقبلة ، وندرك العالم فى نظره ، وكيف يراه ويتخيله ؟ ونفكر فى عالم الطفولة الذى يعيش فيه كى نعطيه من المواد ما يلائم ذلك العالم ، وما يناسب ميوله •

وقد نكون علماء نعرف كثيرا من المواد والحقائق ، ونكون على تمام الاستعداد لتعليمها للأطفال ، لكننا لن ننجح النجاح الذى نتمناه لأنفسنا الا اذا حصلنا على شىء آخر هو العـــلم بالمادة التى فى أيدينا ، تلك المادة هى الطفل وميوله ، وغرائزه ونفسيته ، وما يجول بخاطره • وفى الوقت الذى نسير فيه فى هذا الطريق ، وهو دراسة الطفولة كمـــا ينبغى تصير

مهنة التعليم مهنة شائقة جديدة ، يرجى منها نتائج عظيمة لاحد لهـا ٠ وبدراسة الطفولة يعرف المدرس عقول الأطفال ، وطرقهم فى التفـكير ، والنظر الى الأشياء ، كما يعرف عاداتهم والصـــعوبات التى تمر بهـم ، والامور التى يحبـونها أو يكرهونها ٠ يعرف كيـف يستميلهم ، وكيف يسترعى أنظارهم ، ويجذب قلوبهم ، وكيف يحببهم الى العمل ، وكيف يشجعهم عليه ٠

ومعنى هذا أن المدرس لا يستطيع أن يقوم بواجبه كما ينبغى الا اذا درس علم النفس العـــام ، وعلم النفس التعليمى ، وعرف الكثير عن نفسية الطفل ، وحياته العقلية ٠ وحياته الوجدانية ، وحياته الادارية ٠

التربية بستان الأطفال :

كما أن البستان يحتاج الى بستانى يتعهده بالحرث ، والتنسيق ، والارواء والعنـاية ــ كذلك الطفل يحتـــاج الى مرب يعنى به فى البيت والمدرسة ويحميه من كل المؤثرات الضارة ، ويصونه من البيئة المفسدة، ويعنى بتربيته جسميا ؛ حتى يكون قوى البدن سليما من الأمراض ، كما يعنى بتربية حواسه تربية كاملة ، ويهذب شـعوره بالواجب بالتمرين والتدريب ، لا بالأمر والتضييق ، ليعتاد أداء الواجب حبا للواجب ٠

فالمربى فى نظر (روسو) ، وفى نظر (فروبل) من بعده يجب أن يتعهد الانسـانية بالتهذيب ، كما يتعهـــد البستانى الحديقة بالتشذيب والتنظيم ؛ كى يحفظ جمالها الطبيعى ٠

نشاط الطفل (١) ٠

ان نشـاط الأطفال كبـــير لا حد له ، فهم بفطرتهم يحبون الحركة والجرى والعمل ، ويكرهون السكون والخمول والكسل ، فالأطفال العاديون الأصحاء أحياء بطبيعتهم ، نشيطون بفطرتهم ، ولا يقل النشاط الا عند كبر السن ، فقلة النشاط تحيـط بقلب الرجل الهرم ، أما قلب الطفل فمملوء نشاطا وحياة ، ونشـاطه أكثر من جسمه ٠ انه يشعر بأن فيـه حياة تكفى أن يجعل كل مايحيط به حيا ، والتكوين والتدمير فى نظره سيان ، فهو يكون هذا البيت ثم يهدمه ، ويغير حاله ٠ وكل تغيير عمل من الاعمال ٠ واذا كان الطفل فى الظاهر يميل الى ابادة ما تمســـه يده

---

(١) Child's Acticity

فليس هذا ناشئا عن حبه للضرر ، ولكنه ناشىء عن أن عملية الهدم والتخريب أسرع من عملية البناء ، فالتدمير يناسب روحه المملوء بالنشاط والحياة ٠

لا تحكم على الطفل بالجلوس والسكون ، ولا تحرم عليه الحركة :

اذا سلمنا بأن الطفل مملوء حياة ونشاطا بفطرته وجب علينا أن نمده بالوسائل التى ينتفع فيها بذلك النشاط ، وفى اعتقادنا أن فى استطاعة المربى أن يزود الطفل بكثير من اللعب والادوات المعدة للأطفال ومنها لعب (فروبل ومنتسورى) ولدينا الآن لعب كثيرة ، قليلة الثمن ، عظيمة الفائدة للأطفال ، بها تربى حواسهم ، ويوجه نشاطهم ؛ فمنها يستطيع الطفل أن يبنى بيتا ، أو يصنع قطارا صغيرا ، أو طيارة ، أو سيارة صغيرة ٠

وتوضع كل لعبة فى صندوق صغير به بطاقة تشرح طريقة التركيب والعمل ، وبه صورة أو عدة صور منها يتبين أين يوضع كل جزء من أجزاء اللعبة ٠

ومن السهل الحصول على لعب هى قطع صغيرة لو وضعت فى أمكنتها المناسبة تكون منها حيوان معين أو طائر خاص ، والحصول على صور تنقص بعض الأجزاء يكلف الطفل تكملتها بوضع الأجزاء الناقصة فى مواضعها الأصلية ٠ وان الحكم على الأطفال بالجلوس والسكون والهدوء وعدم التحرك ــ ليس بوسيلة معقولة للانتفاع بذلك النشاط الذى وهبه الله لهم وهو حكم قاس لا يتفق مع طبيعة الطفل ، وقواعد الصحة والتربية ٠

قال (اللورد دربى) فى خطبة له سنة ١٨٦٤ م ينتقد الضغط على تلك الأرواح الصغيرة فى حجرة الدراسة ــ وهو يتفق مع روسو فى مبدأ عدم الضغط ، والحكم على الطفل بالجلوس والسكون ــ : (لقد بدأ الناس يدركون أشياء كان فى استطاعتهم ادراكها منذ زمن طويل ، لو أنهم استعملوا ما لديهم من قوة الملاحظة ، ولم يتبع كل منهم الآخر كالسائمة تتبع أول ناعق ؛ تلك الأشياء ، هى أنه من الضرر العقلى والجسمى للطفل الصغير أن تحكم عليه بالبقاء معظم النهار ٠ يتعلم ، أو يدعى أن يتعلم؛ ففى الوقت الذى تقول فيه الطبيعة للطفل : (اجر حواليك) ، يقول له المدرس : (اجلس ساكنا ولا تتحرك !) ٠ وفى استطاعة المدرس أن

يعاقب فى الحال من يتحرك ويخالف الامر ، وليس فى استطاعة الطبيعة أن تقتص ممن يخالفها الا بعد زمن طويل ! فالمدرس يطاع أمره ، والصحة والعقل يقاسيان ما يقاسيان ٠

من الخطأ أن تدرس الأشياء المعنوية قبل الأشياء المحسة :

يرى روسو أن المواد التى يطالب بها هؤلاء الأطفال المساكين فوق مستواهم بكثير ؛ فالمدرس يحاول تفهيمهم الأمور المعنوية ، ويهمل الأمور المحسة ولذا يمكنك أن تحكم على مقدار انتباههم الى هـــذا النوع من الدروس ، وكيف ننتظر منهم الانتباه الى أشياء لا يستطيعون ادراكها ؟ ويتظاهر المدرسون بأنهم يعطون تلاميذهم كثيرا من المعلومات ، ولكن ما الأشياء التى يعلمونها حقا ؟

ان الأشياء التى يعلمونها ، ويفخرون باعطائها لا تخرج عن ألفاظ والفاظ الى الأبد ، يعلمونهم ألفاظا غريبة ، ومواد غريبة ، وغريبة جدا بالنسبة للأطفال ٠

وقد نسى المدرســون أن الأطفال لا يســتطيعون أن يفهموا الأمور المعنوية المجردة عن صورتها ؛ فان الأمور المعنوية التى نذكرها للأطفال يجب أن تصحب على الاقل بنموذج أو صورة لها ٠ ماذا يفهم الاطفال مثلا عن الكرة الارضية ؟ هل يكفى أن نقول لهم : ان الأرض كروية ، ثم نبرهن لهم شفويا على كرويتها ؛ وهل فى استطاعتهم أن يفهموا ما نذكره لهم من الأدلة والبراهين ؟ أليس فى شرح موضوع كروية الأرض بمجرد الــكلام من غير استعانة بمصور جغرافى يمثل الكرة الارضية ــ مضيعة للوقت ؟ ولو رأى الأطفال الكرة الارضية بأنفسهم لسهل عليهم ادراك هذه المشكلة من دون صــعوبة ٠ فمن الواجب الاســتعانة بالأمور المحســة على تفهيم الأطفال الأشياء المعنوية ، حتى يسهل عليهم فهمها ٠

ان الطبيعة جعلت الطفل قادرا على التأثر بالمؤثرات المحيطة به ، فيتأثر بسرعة ، ويصدق كل ما يقال له : فمن الواجب ألا نعطى الطفل الا الفكرة الصائبة بالطريقة التى تلائمه ، أما تكليفه حفظ أسماء ملوك ، وتواريخ وقائع ، وعبارات اصطلاحيــة ، وألفاظ لا معنى لهــا فى عهد الطفولة ، ولا فائدة منها فى أى وقت من الأوقات ــ فظلم واضح ، واجهاد كبير لطفولته الطاهرة المسكينة ٠

ولو أحسن المدرس اختيار المادة التى يعطيها الطفل ، بحيث تكون

فى مستواه ، ملائمة لميوله ، نافعة له فى حياته المقبـــلة ـ لنقشت على صفحات قلبه بحروف لا تمحى ؛ فروسو فى القرن الثامن عشر نادى بأن تكون المادة محسة مشوقة للطفل ، مفيدة له فى حياته العملية ، ملائمة لطبيعته وقواه ، متصلة بالعـــالم الذى يعيش فيه • وهذا ما ينادى به فلاسفة التربية اليوم •

وقد قامت الدكتورة (ماريا منتسورى) الطبيبة والمربية الايطالية بوضع لعب للأطفال لتربية كل حاسة من حواســـهم ؛ فبتربية الحواس وتنميتها ينمو الطفل ؛ فالصلة بين الجسم والعقل قد ثبتت لا فى العصور الحديثة فحسب ، بل منذ عهد الاغريق ، فهم أول من قالوا : (العقل السليم فى الجسم السليم) •

تربية الحواس فى الطفولة :

ان أهم نصيحة ذكرها روسو فى كتابه (اميل) هى نداؤه بالانتفاع بحواس الطفل وتربيتهـــا من الطفولة • ولا يشك انســـان فى أثر هذه النصيحة وفوائدها ، ولا ينكر أحد فضل روسو على من خلفه من المربين الذين انتفعوا بنصيحته وارشاده ، مثل (فروبل) فى النصف الاول من القرن التاسع عشر (١٧٨٣ ـ ١٨٥٢) ، و (منتســـورى) فى القرن العشرين :

يقول روسو :

انالقوى الأولى التى تقوى فينـــا هى حواسنا ، وان أول شىء يجب أن نعنى به هو تربية هذه الحواس وتهذيبها ، فانها فى الحقيقة مهملة كل الاهمال ، منسية كل النسيان • اننا نرى الطفل الصغير يريد أن يلمس كل شىء ويمسه ويقبض عليه ، فلا توقف ذلك النشاط بأية حال ، فان هذا ينفعه فى الوقت الذى يشتغل فيه بالصناعة •

فبحاسة اللمس يستطيع الطفل أن يشـــعر بحرارة الأجسام أو برودتها ، بنعومتها أو خشونتها ، بثقلها أو خفتها ، بلينها أو صلابتها •

وبحاستى النظر واللمس يمكنه أن يعرف أشكال الأجسام وأحجامها، وخواصها وصفاتها ، بالنظر اليها ولمسها : انظر الى قطة وهى تدخـــل حجرة لأول مرة ، تجدها تلف حول الحجرة ، وتحملق بعينيها هنا وهناك، وتختبر كل ما حواليها ، وتشم هذا وذاك مما حولها من غير أن تستريح لحظة واحدة ، ولن تستريح حتى تختبر كل شىء وتعرفه ! هذا ما يفعله

الطفل تماما ، حينما يبتدىء المشى ، ويدخل هذا العالم ، والفرق فى هذا المنظر العادى بين الطفل والقطة أن الطفل ينتفع بيديه اللتين منحته الطبيعة اياهما ، أما القطة فتستعمل تلك الحاسة القوية ؛ وهى حاسة الشم التى وهبتها الطبيعة لها • فباستعمال هذه الحواس وتربيتها أو اهمالها ، يكون الأطفال أذكياء أو أغبياء نشيطين أو كسالى ، مفكرين أو غير مفكرين ، حكماء أو طائشين •

العقل مؤسس على الحواس :

ان الحركات الطبيعية الأولى للطفل هى أن يوازن بين نفسه والأشياء التى تحيط به ، وأن يختبر كل شىء يراه • وما دامت أعضاؤه بضة مرنة فمن الواجب أن نشجعه على استعمالها وضبطها •ومادامت حواسه سليمة لم تفسد بالأوهام ، ولم تلوث بالأباطيل فى الطفولة فهذا هو الوقت الذى يجب فيه أن نستعملها وندربها على الأشياء التى تناسبها •

ولما كانت الحواس أبواب المعرفة والعقل ، فالأفكار الأولى التى يفكر فيها الطفل تنشأ عن الأشياء التى يحسها ، وبعبارة أخرى الأفكار نتيجة للحواس ؛ فالحواس أمهات الأفكار « وان أرجلنا وأيدينا وأعيننا هى المعلم الأول لنا فى الفلسفة » ؛ فاستعمال الكتب بدلا من الأرجل والأيدى والأعين لا يعلمنا التفكير مستقلين بأنفسنا ، ولكنه يعلمنا التفكير بعقول غيرنا من المؤلفين والكتاب ! ان الكتب تعلم الأطفال أن يأخذوا كثيرا من غيرهم على سبيل الثقة ، ولا تعلمهم أن يعرفوا شيئا بأنفسهم •

فلكى نتمرن على فن من الفنون يجب أن نحصل على الأجهزة الخاصة بذلك الفن ولكى ننتفع بهذه الأجهزة كما ينبغى يجب أن تكون قوية ؛ بحيث تستطيع أن تحتمل كثرة الأيدى التى تستعملها • ولأجل أن نتعود التفكير يجب أن نمرن كل جزء من أجزاء الجسم ، وكل حاسة من الحواس، وكل عضو من الأعضاء ؛ حتى نستطيع أن ننتفع بذكائنا ؛ ولكى نفيد كل الافادة من كل جزء من أجزاء الجسم يجب أن يكون الجسم سليما قويا، لهذا نرى أن العقل السليم للانسان لا يستطيع أن يعمل مستقلا عن الجسم ؛ فالجسم السليم هو الذى يساعد العقل على التفكير ، وقديما قال فلاسفة الاغريق :

« العقل السليم فى الجسم السليم »

تربية الحواس وتهذيبها :

لم يقتصر روسو على النداء باستعمال الحواس والانتفاع بها ، بل أرشدنا الى الوسائل التى ينبغى أن تربى بها الحواس وتهذب • وفى استطاعتنا أن نقول : ان التجارب الحديثة فى تربية الحواس كطريقة منتسورى فى التربية ، ودراسة الطبيعة فى بيئتها ، والانتفاع بالمقاييس والموازين ـ كلها مؤسسة على تربية الحواس التى أشار بها روسو من قبل ، فهو يقول : « فى الوقت الذى يبتدىء الطفل تمييز الأشياء بعضها من بعض يجب أن نختار له اللعب التى تهدى اليه » بحيث تكون ملائمة له ولسنه وميوله : فلا نختار للطفل لعب طفلة ، ولا لهذه لعب ذاك ، ولا نختار للصغير اللعب التى تصلح للكبير أو العكس • فاذا أردت أن تهدى الى ابنتك لعبة من اللعب أمكنك أن تهدى اليها دمية تمثل العروس أو لعبة كبيرة تمثل المطبخ وأدواته • وفى لعب الاطفال التى تقوم ألمانيا بصنعها أنواع لا تحصى ، منها ما يناسب الطفل وما يناسب الطفلة فى الأعمار المختلفة •

يقول روسو فى موضع آخر : « ليس الغرض من تمرين الحواس مجرد استعمالها ؛ بل الغرض منها الوصول الى المعرفة ، والحكم السديد ، وقوة الشعور والادراك والملاحظة • » فنحن لا يمكننا أن نلمس الشىء أو نراه أو نسمعه الا بالطريقة التى تعلمناها وتعودناها ؛ فهناك تمرينات آلية تستخدم لتقوية الجسم ، ولا تعلم الانسان قوة الحكم على الأشياء التى تمر به • من هذه التمرينات السباحة والجرى والقفز ، ولعبة النحلة ، ورمى المقلاع • وهذه التمرينات كلها مفيدة للجسم ، ولكن أليس لدينا الا الأذرع والأرجل ؟ أليس لنا أعين وآذان ؟ ألسنا فى حاجة الى هذه الأعين وتلك الآذان ؟ فروسو ينصح باستعمال كل حاسة من الحواس ، وتنمية كل منها الى أكبر درجة ممكنة ، والموازنة بين آثار الواحدة منها والأخرى • فهو يقول : « قيس واحسب وزن ووازن » ؛ أى استعمل المقاييس ، والحساب ، والاحصاء والوزن ، والموازنة فى تربية حواس الطفل ؛ بأن تكلفه أن يقبس شيئا فى الحجرة ، ويعرف مساحته • أو تدعه يزن بعض الأشياء ، فى يديه ؛ ليميز الثقيل من الخفيف ، ويوازن بين الاشكال بعضها وبعض •

ان روسو لا ينصح بالعناية بحاسة من الحواس واهمال أخرى ، فلا يكفى أن نمرن الطفل على الجرى والقفز والسباحة واللعب ؛ بل يجب

أن نعطيه أكبر فرصة ممكنة فى الانتفاع بعينيه فى الموازنة النظرية ، وفى معرفة الالوان ، وتمييز الامور المرئية فى الحكم على الجميل والقبيح ، وفى رؤية جمال الطبيعة التى تحيط به ، فلا يمر على الحديقة كأنها حديقة مجردة ، أو كأنها قطعة من الأرض بها أشجار وفواكه وأزهار ؛ بل يقدر ما فيها من جمال ، ويوازن بين الاشياء التى فى الحديقة ، ويفكر فيما رآه من الاشجار والازهار !

دع الطفل يعرف الفروق بين الاشياء ، دعه يحلل كل شىء بنفسه أعطه الفرصة فى أن يرى كل شىء بنفسه ، اتركه يعد ما تحويه شجرة الورد من الورد ، دعه يأخذ زهرة أو وردة ، ويعد ما بها من أوراق خارجية ويلحظ ما بها من الداخل • دعه يلاحظ كل ما تمر عليه عينه فى الحديقة أو الصورة أو غيرهما حتى يستطيع فى يوم ما أن يرى ما يراه الشاعر أو المصور فى الشىء من جمال أو قبح ، ومحاسن أو مساو •

وتربى حاسة السمع لدى الطفل فى نظرنا بالموسيقا والغناء والشعر وتغريد الطيور : دعه يسمع النغم والصوت والقافية ، والتناسب بين الأجزاء بعضها وبعض ، ولا تسمعه تلك الموسيقا المحزنة التى تدل على شعور قوم قد استعبدوا وظلموا من أجيال مضت • اسمع الموسيقا التى كانت لدينا فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ تجدها محزنة مؤلمة ، تبعث فى النفس الحزن والشجى ، وهى تمثل روح الأمة وشعورها ، وهى صورة للعصور المظلمة التى مرت بها • وما أكثر حاجة الطفل وحاجتنا معه الى موسيقا تبعث فى النفس الحياة والسرور ، لا الأنين والبكاء !

ولتنمية حاسة اللمس دع الطفل يلمس قطعا متنوعة من النسيج الناعم والخشن قطعا صوفية وحريرية ، قطنية وتيلية ، خفيفة وثقيلة ؛ ليرى الفرق بينها كون له مجموعة من بقايا الملابس المتنوعة ، ودعه يرتبها بحسب نعومتها • دعه يأخذ أشياء مختلفة فى يده ويرتبها على حسب خفتها وثقلها • وبعد الانتهاء من ترتيبها بين له الخطأ فى الحكم على وزنها كى تتربى لديه قوة الحكم • وقد قامت الدكتورة منتسورى بوضع لعب تقوى فى الطفل الحكم السديد ، وقد انتفعت بما ذكره روسو فى تربية الحواس من القياس والاحصاء والوزن والموازنة •

ولو عنينا بتربية الحواس وتهذيبها كما ذكر روسو ما كنت ترى الرجل ينظر الى الصورة ، فلا يمكنه أن يرى ما فيها من آيات الجمال ، أو يقرأ ما تحمله من الأفكار والاوصاف ! ماكنت تراه ينظر الى مناظر

الطبيعية نظرة خيالية من العلم بماتمثله من الحسن والبهاء • يسمع الطيور تغنى وتغرد ، فلا يشعر بسجعها وتغريدها ، يسمع الموسيقا فلا يميز بين الضوضاء والعذب منها • يرى الشيء فلا يمكنه الحكم عليه ، يقدره فيخطىء التقدير ، يختبر الشيء بيده أو نظره ، فلا يستطيع أن يعرفه معرفة صحيحة !

فالحواس تنمو بالتمرين ، ولها أثر كبير فى نمو العقل والتفكير ، لهذا يجب أن نعنى بتربية كل حاسة من الحواس وتهذيبها ، ونعطى الطفل الفرصة التى يدرب بها كل حاسة من حواسه ، ونختار له من اللعب ما يدعو الى التفكير وتهذيب الحواس .

٦ ـ لاقراءة (١) :

يقول روسو : « يجب ألا يكون هناك كتاب آخر يتعلم الطفل منه سوى العالم ، وألا يرشد الى شيء غير الحقائق ، فالطفل لا يفكر حينما يقرأ ، فهو يقرأ ويقرأ فقط ، ولا يفهم شيئا مما يقرأ ، لأنه لا يتعلم الا ألفاظا » .

هذا ما ادعاه روسو ، ولا ريب أنه مبالغ فى دعواه ، ولكنه مصيب فى قوله : « ان رغبة الطفل فى القراءة لابد أن تأتى • » واذا وجدت الرغبة فى القراءة أفاد الطفل منها فائدة لا تنكر ، وخاصة اذا كانت الموضوعات شائقة ، ملائمة لمدارك الطفل .

وفى اعتقادنا أن بتعلمه القراءة يمكنه أن يجد مسرة فى قراءة بعض الكتب التى يميل اليها اذا أمكنه الحصول عليها ، ووجد من يشجعه على قراءتها .

أصحيح أن الأطفال لا يتعلمون شيئا سوى الكلمات والألفاظ ، ولا يفكرون فيما يتعلمون ؟

حقا قد يعنى المدرس بالألفاظ أكثر من الأفكار ، وبحفظ المفردات أكثر من فهمها • وليس هذا الخطأ ناشئا عن القراءة ، ولكنه ناشىء عن الطريقة التى اتبعها المدرس مع الطفل • ولا يمكننا أن نوافق روسو فى عدم تعليم الطفل القراءة حتى قبل لحاقه بالمدرسة ؟ فالقراءة مفيدة له ، ومفيدة جدا ، ولكن يعن لنا هنا أن نسأل : هل نقرأ له كتبا فى

---

(١) No Reading

عالم الخيال أو كتبا فى عالم الحقيقة ؟ لسنا فى حاجة للاجابة عن هذا السؤال الى الخروج عن الموضوع ، والبحث فى موضوع التخيل ، ونكتفى بأن نقول :

ان بعض فلاسفة التربية فى العصر الحاضر ـ كالدكتورة منتسورى ترى أن عالم الخيال ينتقل بالأطفال من العالم الذى يعيشون فيه وهو عالم الحقيقة الى عالم آخر وهو عالم الخيال . واننا نرى أن قراءة الكتب الخيالية الخرافية هامة تنمى قوة التخيل لدى الأطفال ، وأن الخيال عادة مبنى على الحقيقة ، وكثيرا ما يتحقق هذا الخيال . وقد أظهر لنا العلم الحديث فى القرن العشرين أن ما كان يعد محالا فيما مضى أصبح الآن فى عالم الامكان .

وان الذى حمل روسو على المناداة بعدم تعليم الأطفال القراءة فى الصغر اعتقاده أن الحركة واللعب والضوضاء تفيده من الناحيتين الجسمية والعقلية أكثر من القراءة ، ولا ندرى : لماذا لا نتوسط ونعطى الطفل فرصة فى أن يتعلم ، وأخرى فى أن يتحرك ويلعب ويمرح ، فنجمع بين الفائدتين كما يفعل الآن ، ولم نقصره على هذه أو تلك ؟

ومن الواجب أن نشجع أبناءنا وبناتنا على القراءة حبا للقراءة أو كسب المعرفة ، ونشجعهم على اقتناء الكتب ، حتى نبث فى نفوسهم حب القراءة والبحث والاطلاع ، فان الكثيرين من المتعلمين لدينا لا يجدون لذة فى الكتب أو ميلا اليها ، لأنهم لم يجدوا من يرغبهم فيها ، أو يشجعهم على قراءتها فى البيت أو المدرسة ، ومما يبعث فى النفس الألم أنهم لا يميلون الا الى النوع الرخيص أو القبيح من الكتب والمجلات الهزلية أو الجنسية .

تذكر من غير كتب : (١)

يعترض المربون على روسو اهمال الذاكرة ، لاهماله القراءة والكتب فى الطفولة ، وهو يجيب عن هذا الاعتراض بقوله : « ان ذاكرة الطفل لن تعطل فى الوقت الذى لا يقرأ فيه كتبا » ، فان كل ما يراه وكل ما يسمعه يترك أثرا فى نفسه ، ويتذكر ما يراه وما يسمعه ، فهو يتذكر فى نفسه أعمال الناس وأقوالهم ، فالبيئة التى تحيط بالطفل تقوم مقام الكتاب فى تقوية ذاكرته عن غير قصد ، وبدون أن يشعر ، وفى الوقت نفسه ينصح روسو بألا نكلف الطفل أن يحفظ شيئا عن ظهر

---

(١) Memory without books

قلب الا اذا فهم معناه . واننا نتفق معه كل الاتفاق على هذا الرأى ، وهذه النصيحة ، فلا فائدة من أن يحفظ الطفل شيئا ، يفهم معنـاه . ومن الواجب ألا نكلفه الحفظ الا بعد أن يفهم القطعة تمام الفهم بما فيها من مفردات وعبارات ، كى يسهل عليه الحفظ والتذكر ، فمن الصعب أن تحفظ قصيـدة ، أو قطعة شـعرية أو نثرية اذا لم تجـد فهم معناها .

٧ ـ الرسم من الطبيعة :

ان روسو يعتمد على الطبيعة فى تربية الطفل ، فهو يتعلم لا من الكتاب ، بل من الطبيعة ، وان رأيه فى تعليم الرسم من الطبيعة يستحق كل تقدير ، اذ يقول :

« ان جميع الأطفال المولعين بالمحاكاة يحاولون الرسم ، وانى أرجو أن يبث فى نفس طفلى هذا الفن ، لا حبا الفن نفسه ، بل لتكون عينه صائبة فيما ترى ، وتكون يده مرنة قابلة للمرونة »

ولكنه ينصح بابتعاد اميل عن مدرس الرسم خوفا من أن يكلفه محاكاة الرسوم التى قام غيره بها ، فهو يفكر فى حاسة النظر ، وتربية العين واليد أكثر من تفكيره فى الرسم والاصطلاحات الفنية الخاصـة به ، ولذا كان لا يسمح لاميل بالرسم الا من ذوات الأشياء ، وهى فى حالتها الطبيعية لم تمسها يد انسان . يقول روسو : « ليس غرضى أن يكون اميل قادرا على محاكاة الأشياء فحسب ، بل غرضى أن يعرفها حق المعرفة فى أثناء محاكاته لها » فالغرض من الرسم فى نظر روسو أن يعرف الطفل الذى يرسمه أكثر من أن يقدر على محاكاته .

٨ ـ روسو والتربية الخلقية والجسمية والعقلية :

لننظر الآن الى آراء روسو فى التربية الخلقية وغيرها : لقد صدق روسو ولا ريب فى رغبته أن يعامل الأطفال أطفالا ، ولكن يعن لنا هنا أن نسأل : من الأطفال ؟ وما الأشياء التى يمكنهم فهمها ؟ وما العالم الذى يعيشون فيه ؟

لقد خلط روسو كثيرا فى التربية الخلقية للأطفال ، ففى موضـع من المواضع يقول : « ان هناك نوعا ، ونوعا واحدا من العلم ينبغى أن نعطيه الأطفال ، ذلك هو الشعور بالواجب » وفى موضع ثان يقول :

« ليس من عمل الطفل أن يميز الصواب من الخطأ لكى يشعر بالواجب » .

وفى موضع ثالث يدعى أن الانسان يولد وفى قلبه شعور غرزى بما هو عدل ، وما هو ظلم . وبعد أن انتهى من مدحه للأمور السلبية ناقض نفسه قائلا :

« انى لا أظن أن من لا يحتاج الى شىء يستطيع أن يحب شيئا ، كما لا أظن أن الانسان الذى لا يحب شيئا يستطيع أن يكون سعيدا ». وفى مكان آخر يقول : « ان أسمى الفضائل السلبى منها » وفى الجزء الرابع صفحة ٢٩١ من اميل يقول : « ان الانسان بعمل الخير يصبح خيرا . وانى لا أعرف تجربة أصدق من هذه التجربة » .

واننا لا نخالفه فى هذه الفكرة ، ولكننا نأخذ عليه التناقض فى أقواله ، وفى أفعاله ، ففى الوقت الذى ينادى فيه بتفهيم الأطفال الشعور بالواجب ينادى فى موضع آخر بأن هذا ليس من عمل الطفل . وفى الوقت الذى يفضل فيه الأمور السلبية يقول : لا أظن أن الرجل الذى لا يحتاج الى شىء يستطيع أن يحب شيئا ، كما لا أظن أن الانسان الذى لا يحب شيئا يستطيع أن يكون سعيدا .

ويرى روسو أن نعنى بحياة الطفل الجسمية بكل وسيلة من الوسائل ، وأن نؤخر الناحية العقلية ، ونتجاهل حياته من الناحية الخلقية . واذا وافقنا على العناية بالتربية الجسمية والبدنية للطفل فلن نتفق معه على التأخير فى تربية الطفل تربية عقلية ، وتعويده التفكير من الصغر ، والاعتماد على النفس فى تفكيره . ولن نوافقه على تجاهل التربية الخلقية فى الطفولة ، ففى اعتقادنا أن أهم مرحلة من مراحل النمو الانسانى لبث أحسن العادات الخلقية والصحية فى نفس الطفل انما هى مرحلة الطفولة .

ولا يمكننا أن ننكر فضل روسو فى القرن الثامن عشر فى المناداة بالعناية بالتربية البدنية ، أو الجسمية . وتربية حواس الطفل فى وقت كانت التربية البدنية والحواس مهملة كل الاهمال ، فلروسو أثر كبير فى انقاذ النوع الانسانى من اهمال الحواس والتربية الجسمية ، فلكى يصل روسو الى قلب المربين أخذ يقول بتأخير الحياة العقلية ، وتجاهل الحياة الروحية : فقد كانت العناية بهما فى عصر روسو أكثر من العناية بالجسم ، لهذا بالغ فى الناحية الجسمية ، وحبذا الامر لو طالب بالتفكير فى الناحية الجسمية مع التفكير فى الناحيتين : العقلية والخلقية .

ومهما قال روسو من تأخير التربية العقلية ، وتجاهل التربية الروحية ـ فانه من المحال أن تمنع اميل من التفكير ، والاستفهام عن الأشياء التى لا يفهمها ، والسؤال عن الأمور التى لا يعرفها ، فكل طفل يفكر ، ويفكر كطفل ، ولو أنه لا يستطيع أحيانا السير فى الطريق الذى يرسمه له من يربيه . وفى الوقت الذى يستطيع فيه الطفل أن يتكلم ، وقبل أن يقدر على التكلم يصير عالم الحس عالما له ، كما يصير عالم العواطف والتألم لغيره ، والشعور بالصواب والخطأ والحسن والقبح عالما له . والطفل مرن قابل لكل نوع من أنواع التربية العقلية والخلقية والجسمية ، ويتأثر كل التأثر بالتربية التى تمر به فى طفولته . وان الهواء الذى يتنفسه الطفل قد يحتوى كثيرا من الكربون ، ولكن ليس لدينا قوة فى أن نحرم الطفل الهواء ، وكل ما فى استطاعتنا أن نفعله هو أن نفكر ونبحث عن الهواء النقى الصالح للطفل ، ونعمل على أن نضع الطفل فى بيئة صالحة .

أما رأى روسو فى ابعاد الطفل عن الجو الأدبى والبيئة الخلقية فنحن لا نرى معه هذا الرأى ، ولا يمكننا أن نعزل الطفل عن البيئة ، ولكن فى استطاعتنا أن نعمل على تحسينها ، حتى تصير بيئة خلقية كاملة . واننا نعتقد أن فى الطفل استعدادا للتفكير ، وللأخلاق الكاملة ، اذا وجد من يساعده فى أن يربى تربية كاملة فى كل ناحية من النواحى، وكان لديه الاستعداد الفطرى ، ففى الطفل نرى شيئين : شيئا قد تم وهو ما فطر عليه ، وشيئا قد بدأ وهو ما ترك للتربية والمربين . نرى كمالا يعد الطريق لكمال آخر ، نرى طفلا فى اليوم ورجلا فى المستقبل ، فالله الذى وهب للانسان هذه الحياة الانسانية ، وكونه من عدة أجزاء ـ أراد حقا أن تتصل هذه الأجزاء بعضها ببعض ، كما أراد أن يكون كل جزء منها كاملا فى ذاته .

٩ ـ تجنب كثرة الارشاد :

ان روسو لم ينس الاحتجاج ضد الاكثار من الارشادات ، والافراط فى الأوامر والنواهى ، لأن الاكثار يميت شعور الطفل ، وقوة التفكير لديه ، كأن نقول له : تعال هنا ، اذهب هناك ، قف ، افعل هذا ، ولا تفعل ذاك ، وكأن تقوده فى كل عمل يريد أن يعمله ، ولا تترك له فرصة للتفكير ، وتستولى على كل ارادته وأفعاله ، وتجعله قاصرا يعتمد على غيره فى كل شأن من شئونه ! .

ولا ريب أن هذا ضار بالطفل ، وبمستقبله . وكيف يكون حينما

يصير رجلا ، ويجد نفسه آلة فى يد غيره ، متعطل الفكر ، لا يستطيع الاعتماد على نفسه ، ولا يمكنه أن يدبر شئونه ؟ ولا عجب ، فقد عطلنا ما وهب له الله من مواهب بكثرة تدخلنا فى أعماله ، وكثرة الأوامر والنواهى التى نمطرها عليه فى كل وقت ، لغير ضرورة أو مناسبة ! .

فروسو يحذرنا الخطر أو الضرر الذى يلحق الطفل حينما نفرط فى ارشاده ، ونتدخل من غير ضرورة فى أعماله .

وجدير بنا أن ننتفع بهذه النصيحة فى بيوتنا ومدارسنا فى معاملة الأطفال ، فالولد طوال النهار لا يجد فرصة لتمرين ارادته ، فهو دائما تملى عليه ارادات غيره وأفكاره ، فتضعف ارادته ، وتضعف قوة التفكير لديه :

يستيقظ فى الصباح حينما يؤمر بالاستيقاظ ، واذا أكل لا يقوم حتى يؤمر بترك الطعام ، ثم يؤخذ للرياضة فى الخارج كأنه حصان ، لا حرية له ولا اختيار ! فلا يترك ليخرج بنفسه للرياضة ، ثم يعود . ودروسه فى المدرسة محددة له كل التحديد فى أوقاتها ومقاديرها . فى مثل هذا النوع من الحياة لا يجد التلميذ فرصة يفكر فيها بنفسه ، أو يعمل بنفسه ، فهو يحيا حياة كلها اتكال واعتماد على غيره ، لهذا تجده ضعيف الثقة بنفسه ، وبتلك الحياة الاتكالية لا يمكننا أن نعده للحياة العملية التى تنتظره ، ولا يستطيع أن يواجه مدرسة الحياة القاسية ، أو مدرسة التجارب الصعبة التى قد تلاقيه ويلاقيها ، وتراه ويراها فى يوم من الأيام .

وفى المدارس نعنى عناية كبيرة بمنع الطفل من ارتكاب أى خطأ ، فهو لا يرتكب الخطأ لأنه خطأ ، بل لأن هناك سلطة خارجية تصده عن الخطأ ، فهو لا يفكر فى وجه الصواب أو الخطأ ، بل يعمل ما يعمل خوفا من سلطة غيره ، ولا يفكر فى ارضاء نفسه وضميره أمام الله والانسانية، فهو اذا فعل الفضيلة لا يفعلها حبا للفضيلة ، واذا ابتعد عن الرذيلة لا يبتعد لأنه مبغض لها ، ولكنه يفكر فى ارضاء غيره . ولا يخاف توبيخ الضمير ، أو لوم النفس ، بل يخاف توبيخ السلطة الخارجية واومها ! فكل أعماله مراءاة وخوف ، لا يحب الخير للخير ، ولا يكره الشر للشر ، اذا وجد الفرصة لارتكاب الرذيلة ارتكبها ، مادام يأمن على نفسه من الرقابة الخارجية ، فهو عاجز عن منع نفسه من ارتكاب الخطأ ، لأنه ليس عليه رقيب يراقبه !

وفى مدارس الخاصة بانجلترة يترك للتلاميذ الفرصة فى أن يدبروا

حياتهم بأنفسهم ، وينظموا أعمالهم بأنفسهم ، ويتولوا معظم الأعمال الادارية والرياضية والداخلية : كمراعاة النظام والهدوء فى فناء المدرسة، والقيام بالواجب ، ومراقبة الألعاب الرياضية .

وبقلة التدخل من المدرسين والنظار يعود التلاميذ الاعتماد على أنفسهم من الصغر ، ويعطون حرية منظمة معقولة ، ولكن الذى يؤخذ على تلك المدارس شدة عنايتها بالألعاب الرياضية ، حتى تجد الطلبة لا يفكرون الا فى هذه الألعاب ! أما الدروس فمهملة كل الاهمال ، أو كثير من الاهمال ! وحبذا الأمر لو عنوا بالناحية العلمية عنايتهم بالناحية الرياضية . والبطل فى نظر الطلبة هو الماهر فى الكرة أو التجديف . أما المنكب على الدرس والعلم والفن فينفر منه الجميع !

ان ترك التلاميذ يعتمدون على أنفسهم ، وينظمون أعمالهم بأنفسهم، ويتولون ادارتها ، ويتحملون تبعتها يعدهم اعدادا حسنا للحياة العملية التى تنتظرهم بعد الانتهاء من المدرسة . ويتفق الأساتذة بمدارس الخاصة بانجلترة مع روسو فى قوله « ان الدروس التى يتعلمها الأولاد بعضهم من بعض فى الملعب أجدى عليهم وأنفع مائة مرة من الدروس التى يعطونها فى المدرسة ! »

طبعا هذه مغالاة من روسو ومن أساتذة مدارس الخاصة ، فاننا — وان كنا لا ننكر أثر الملعب وفوائد الألعاب الرياضية ، — لا نوافق روسو وهؤلاء الأساتذة على اهمال الكتب ، والمواد الدراسية ، وقصر العناية على الألعاب الرياضية .

وغريب أن فى مصر قبل الثورة وفى فرنسا حتى اليوم عناية كبيرة بالدروس ، واهمالا للألعاب الرياضية ، ولذا تجد التلاميذ هنا وهناك ضعاف الاجسام ، صفر الوجوه ، أما فى انجلترة فالامر على العكس ، اذ العناية كبيرة بالألعاب الرياضية ، قليلة بالناحية العلمية فى مدارس الخاصة كما قلنا . وحبذا الأمر لو كان هناك حد وسط ، وعنينا بالألعاب الرياضية عنايتنا بالدروس المدرسية ، لأن الحياة الخارجية ليست كلها لعبا ، وليست كلها علما . ولا يكفى النجاح فى الحياة أن يكون الرجل مجيدا للعب الكرة ، بل يجب كذلك أن يكون ذا كفاية من الوجهة العلمية ، كاملا من الناحية الخلقية . ولنفكر دائما فى العناية بكل ناحية من نواحى التربية : الجسمية والعقلية والخلقية والوجدانية والاجتماعية والعملية واللسانية والفنية .

ولو بحثت عن طريقة التعليم فى فرنسا ، وزرت مدارس الليسيه

ـ لوجدت التلاميذ أربعة أقسام : قسما داخليا وهو نحو ٢٦٪ من التلاميذ ، وقسما نصف داخلى ، وهو نحو ١٣٪ ، وقسما خارجيا وهو حول ٦١٪ ، وهذا القسم الأخير ينقسم قسمين :

١ ـ قسما يحضر فى أثناء الدراسة فقط ، ويعد دروسه فى المنزل .

٢ ـ وآخر يعد دروسه مع القسم الداخلى فى حجر الاستذكار بالمدرسة ، وفى هذا القسم يمكث التلاميذ عادة فى المدرسة من الساعة الثامنة صباحا الى منتصف الساعة الثامنة مساء . واليوم المدرسى للتلميذ الداخلى يوم شاق جدا ، فهو يستيقظ فى الساعة الخامسة صباحا فى الصيف ، وفى منتصف الساعة الثالثة شتاء ، ثم يذهب ليستذكر دروسه حتى الساعة السابعة والربع صباحا من غير أن يتناول شيئا من الطعام ، وبعد أن يتناول فطورا فرنسيا قليلا لا يسمن ولا يغنى من جوع ـ يستريح نصف ساعة لترويح النفس والجسم ، ثم يذهب الى حجرة الدراسة فيتعلم من الساعة الثامنة الى العاشرة ، أو الحادية عشرة . وبعد فترة قصيرة من الراحة يدرس حتى الساعة الثانية عشرة ، ثم يتناول الغذاء ، وهى أكلة هامة يعتنى باعدادها ، وينتهى الطعام فى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر ، ثم يلعب التلاميذ ساعة ، ويعودون للاستذكار بأنفسهم ساعة ، تبدأ من الساعة الواحدة والنصف ، وتنتهى فى الساعة الثانية والنصف ، ثم يذهبون الى حجر الدراسة ليمكثوا بها ساعتين ، ثم يستريحوا نصف ساعة ، وفيها يتناول كل تلميذ قطعة جافة من الخبز ، ثم يبدأ التلاميذ باعداد دروسهم حتى الساعة الثامنة مساء ، حيث يكون وقت العشاء الذى ينتظره التلاميذ بفارغ الصبر . وفى منتصف الساعة التاسعة مساء يذهب التلاميذ جميعا الى الفراش ، وفى الساعة التاسعة يدق ناقوس النوم ، ويطفأ النور .

ومن هذه الخطة اليومية فى المدرسة الفرنسية الداخلية نرى أن الزمن الذى عين للعب ساعتان ! والوقت الذى حدد للعمل فى حجر الدراسة واستذكار الدروس نحو احدى عشرة ساعة . وقد أخذ الفرنسيون يشعرون بأن هذه الحياة ، حياة السجن ، تخالف العقل ، وفيها اجهاد للصغار من الأطفال . وقد بدأت المدارس فى الأقاليم تسمح للتلاميذ صيفا بوقت للعب مساء ، وفى حجر الاستذكار يسمح للتلميذ الذى ينتهى من استذكار دروسه واعدادها بقراءة أى كتاب للتسلية .

ويقضى التلاميذ عادة ست ساعات أو سبعا لاعداد دروسهم اليومية ، وهى أربعة دروس أو خمسة . ولسنا فى حاجة الى أن نقول : ان هذا فوق طاقة الطفل .

وفى المدارس الفرنسية الآن تشجيع للألعاب الرياضية ، ولكن نظار المدارس لا يزالون يخافون الحوادث التى تحدث للتلاميذ فى أثناء اللعب ، والآباء لا يفكرون الا فى نتائج الامتحانات ، ولذا لا يجد الولد الفرنسى المملوء بالحياة وحب العمل فرصة كافية لرياضة الجسم ، واراحته من العناء والاجهاد . وقد تعجب اذا سمعت أن المستشفى المدرسى كثيرا ما يخلو ممن يشكو المرض من التلاميذ ، ففى فرنسا لا يهتم كثيرا بالجسم وحبه الفطرى للنشاط . والعناية كلها موجهة نحو العلم . وفى انجلترة فى مدارس الخاصة تجد العناية موجهه نحو اللعب ، ولكن خير الأمور الوسط ، فالواجب ان يعطى الجسم حقه من الرياضة ، وواجبه من العمل ، فلا يهمل الجسم فى سبيل الدرس ، ولا الدرس فى سبيل الجسم . ولو كان روسو اليوم حيا لاحتج بكل قواه على ارهاق الطفل الفرنسى فى العمل ، ولرحب بالعناية بالألعاب الرياضية فى انجلترة ، فان روسو يشجع الدروس التى يكتسبها الطفل من الحياة والتجارب خارج المدرسة .

ولا نقصد بتلك الدروس الدروس العلمية ، بل نقصد الدروس التى يكتسبها الأطفال فى أثناء اللعب فى الملعب ، فلقد قال : « ان الدروس التى يكتسبها الأولاد بعضهم من بعض فى الملعب أجدى عليهم من الدروس التى يتعلمونها فى المدرسة مائة مرة » .

الأسئلة :

ان الأسئلة فى نظرنا ليست بسهلة ، فالسؤال فن من الفنون يجيده المدرس أكثر من التلميذ ، ولكى نستطيع أن نسأل عن الشىء الذى لا نعرفه ، يجب أن نعرف كثيرا عن هذا الشىء . وفى المثل الهندى : ان الرجل العالم يعلم الشىء ويستطيع الاستفهام ، اما الرجل الجاهل فلا يعرف كيف يسأل . وان الأطفال يتعلمون من الأسئلة التى توجه اليهم ، أكثر مما يتعلمونه من الاسئلة التى يسألونها هم أنفسهم .

روسو وعلاقته بمونتين (١) وجون لوك (٢) :

ان الانسان مهما أوتى من ذكاء ومقدرة لا يستطيع أن يتخلص من الآراء التى ذكرها غيره من قبل ، فهو يتأثر بها سواء أراد أم لم يرد . وان من ينظر الى آراء روسو وطريقته فى التربية والتعليم لا يشك مطلقا فى أنه تأثر بآراء (مونتين ولوك) فى التربية والتعليم ، فهو قد سار فى الطريق الذى سار فيه هذان الكاتبان القديران من قبل ، ولكنه فاقهما وفاقهما كثيرا فى وضوح الرأى ، وفى الشجاعة النادرة التى أظهرها فى آرائه وأفكاره واعترفاته ، من غير مبالاة بالنقد أو العادات القديمة ، وبغير اكتراث للطرق المتبعة فى عصره . وان من يطلع على اميل ، وعلى ماكتبه روسو فى « العقد الاجتماعى » وفى « اعترافاته » يمكنه أن يلمس من روح كتابته الوضوح والجمال فى الأسلوب،والاخلاص القوى ، والشجاعة النادرة .

وقد تأثر روسو بآراء مونتين وغيره من الأقدمين فى العناية بالتربية الجسمية ، وبتربية الحواس تربية منظمة ، فنادى كما نادى اليونان قديما بأن العقل السليم فى الجسم السليم ، وكما ننادى اليوم بأن تربية الحواس تربية للعقل . وقد تأثر أيضا بآراء لوك فى عدم المغالاة بتدفئة الأطفال بالملابس والأدثرة فى الحر والبرد ، وفى العناية بتربية الجسم والعقل والخلق ، ولو أنه يختلف عن لوك فى أن روسو يرى عدم مقاومة الميول والغرائز الفطرية فى الطفل ، وترك الطفل حرا يفعل ما يشاء وما يرغبه ، فى حين أن لوك يرى اخضاع هذه الميول والغرائز ومقاومتها حتى تهذب وتربى .

---

(١) (ميشيل مونتين) من أكبر المربين الفرنسيين ، ولد سنة ١٥٣٣ وتوفى سنة ١٥٩٢ ، وقد عنى أبوه بتربيته كل العناية ، وكان يعطف عليه كثيرا ، أجاد اللغة اللاتينية وهو صغير ، فقد كان أبوه يحادثه بها فى المنزل ، وكان له مدرس خاص يعنى بتربيته . وقد أقبل القراء على مؤلفاته كل الاقبال . ومن مبادئه تعويد الطفل الاعتماد على النفس ، والعناية بالتربية العملية ، متأثرا بالفلسفة اليونانية فى أن يعلم الطفل صغيرا ما يجب أن يعمله كبيرا .

(٢) John Locke (جون لوك) من أكبر فلاسفة التربية من الانجليز . ولد سنة ١٦٣٢ وتوفى سنة ١٧٠٤ م ، وله مؤلفات ثمينة فى التربية والدين والفلسفة . منها رسالته عن « العقل الانسانى The Human Mind » تلك الرسالة التى ترجمت الى الفرنسية والألمانية .

الفصل الثالث

آراء روسو فى التربية والتعليم

من الآراء الهامة لروسو فى التربية والتعلم ما يأتى :

١ ـ يجب ألا يكون التعليم أدبيا ولا لغويا :

فروســـو لا ينصـــح بتعليم الأدب أو اللغـات ، لأن الأدب روحه الخيال ، وروسو يفكر فى عالم الحقيقة لا عالم الخيال ، واللغة روحها العبارات والألفاظ ، وهو لا يفكر فى الألفاظ أو العبارات ، ولكنه يفكر فى عالم الطبيعة ، ويفكر فى المعانى .

ولا نريد أن نتعرض لنقد روسو فى كل ما يقوله ، فله رأيه الذى يقول به الكثيرون حتى اليـــوم من تفضيل العلوم على الآداب ، والتفكير فى الناحية المادية أكثر من الناحية الفلسفية المعنوية . ولسنا فى موضع نفضل فيه العلم على الأدب ، أو الأدب على العلم ، فان هذا الموضوع يحتاج الى بحث مستقل ، وقد كتب فيه كثيرون من العلماء والادباء .

٢ ـ أن تعليم الكلمات يجب أن يختفى :

فروسو لا يقول بتعليم الأطفال ألفاظ مجردة ، ومفردات لا حاجة لهم بها ، وكلمات لغوية فوق مستواهم لا يعرفون لها معنى ، واننا نتفق مع روسو كل الاتفاق فى هذا المبدأ ، فلا فائدة من أن يتعلم الطفل ألفاظا لا يدرك لها معنى ، ولا يشعر بالحاجة اليها ، ولا يستطيع أن يستعملها. أما الألفاظ التى يحتاج الأطفال اليها ويشعرون بالحاجة الى استعمالها فى كتابتهم ، ويسألون عنها ، فمن الواجب أن نزودهم بها ، حتى نكون لديهم ثروة لغوية ، ماداموا يفهمون معناها ، ويعرفون طريقة استعمالها.

٣ ـ أن المواد التى يجب أن تدرس هى الرياضة وعلوم الطبيعة :

وهو بهذا المبدأ يكرر ما قاله أولا فى التنديد بتعليم الآداب واللغات، ويشجع الدراسة العلمية ، ودراسة الطبيعة والرياضة . ونحن لا ننكر أثر هذه الدراسة ، ولكننا لا نستطيع أن نتفق معه فى انكار أثر الآداب واللغات ، ولا نزال نجد كثيرين يفضلون العلوم على الآداب ، ثقة بأن العلوم تمثل الحقيقة ، وهى الوسيلة الى الاختراع والرقى والمدنية . وان مدنية القرن العشرين والاختراعات التى نراها كل يوم أثر من آثار العلم ، أما الآداب فى نظر روسو فهى الى الخيال أقرب منها الى الحقيقة، وهو لا يعتقد الخيال ، لأنه يرى أن العالم الذى يعيش فيه الطفل ينبغى أن يكون عالم حقيقة لا عالم خيال . ولم يرد روسو أن يتعلم اميل العلم للعلم ذاته ، ولكنه أراد أن يتعلمه حبا للابداع والاختراع .

٤ ـ يجب استعمال اليدين فى اللعب وسيلة للتعلم :

وهذا ما ينادى به فلاسفة التربية اليوم ، حتى يستطيع التلميذ أن ينتفع بيديه وحواسه ، كما ينتفع بعقله ، وبهذا يتجه روسو فى التعليم الى الناحية العملية ، الى الصناعة والزراعة والتجارة والأشغال اليدوية والفنون الجميلة : من رسم وموسيقا وتصوير .

٥ ـ لا تعلم من الكتاب (١) :

يرى روسو ألا يعتمد الأطفال على الكتب وحدها فى التعلم ، ولم يشعر أحد بما ترمى اليه نظرية روسو الا حديثا ، فقد كان التعليم المدرسى مقصورا على الكتب ، وعلى الكتب وحدها ، فكان الطفل فى المدرسة لا يجد سوى الكتاب ، أما الطبيعة ودراستها ، والبيئة والانتفاع بها ، والآثار وزيارتها ، والبساتين وفلاحتها ، والأشغال اليدوية والانتفاع بها ـ ، فكانت مهملة الاهمال كله . ومازالت مهملة فى كثير من المدارس حتى يومنا هذا . وكان الطفل اذا أخفق فى دراسته قال الناس عنه : انه لا يصلح للكتاب !

ويتفق علماء التربية وفلاسفتها اليوم مع روسو فى التنديد بجعل الكتب الوسيلة الوحيدة للتعليم ، ولهذا نادوا وينادون بتغيير طبيعة المدرسة ونظمها وطريقتها فى الدراسة ، فروسو قد سبقنا فى هذا الرأى

---

(١) No. book-learning

بأكثر من قرن ونصف القرن : فروسو فى القرن الثامن عشر له كل الأثر فى طريقة منتسورى (١) ، وطريقة دالتون ، وغيرهما من طرق التربية الحديثة فى القرن العشرين ، فبالصائب من آرائه أفاد كثير من علماء التربية وفلاسفتها من عصره حتى يومنا هذا . وليس من الضرورى أن نعمل بآرائه التى بعدت عن الصواب ، ولا تتفق مع الرأى السديد .

وعجيب أن يندد روسو بالتعلم من الكتب مع أن أباه قد قرأ له كثيرا منها وهو طفل لم يعرف القراءة حتى الساعة الأخيرة من الليل أحيانا . وحينما استطاع أن يقرأ كان يقرأ كثيرا ، وكثيرا جدا من الكتب والمؤلفات . ولعله أراد ألا نكتفى بالكتب ونعتمد عليها وحدها فى تعلمنا ، وأن ندخل الأعمال اليدوية فى تعليمنا ودراستنا ، لأن لها صلة كبيرة فى تنمية العقل .

والحق أنه يجب ألا تجعل الكتب الوسيلة الوحيدة للتعلم ، وأن يضاف اليها كل ما يمكن من الوسائل الأخرى ، للتعلم ، كالتجارب التى تمر بالانسان ، ودروس الحياة ، والرحلات من جهة الى أخرى ، والأعمال اليدوية ، والطبيعة ، والزملاء الذين يتصل بهم فى المعاملة والمحادثة والمكاتبة ، وهذا ما قصده روسو من قوله : « لا تعلم من الكتاب » . وهذا ما يعترف به الفلاسفة والمصلحون اليوم فى القرن الحاضر .

وهل نعجب اذا اعترف روسو بأن المحادثة الجميلة المعقولة مع سيدة مثقفة أفضل كثيرا من قراءة الفلسفة والكتب الفلسفية ؟ وهل بعد هذا الاعتراف والتصريح نجلس عند أقدام الحكماء والفلاسفة لنتلقى الحكمة والفلسفة منهم ؟

نعم سنجلس لنتلقى الحكمة والفلسفة من الحكماء والفلاسفة مهما صرح روسو ، ومهما اعترف ، فلهذه الأمور الفلسفية أثرها فى الناحية العلمية ، والأفكار أمهات الأعمال .

حقا ان روسو لا يقول بتلقين الطفل كل شىء ، ولكنه يقول ونقول معه : دع الطفل يعلم نفسه ، ويعتمد على نفسه فى التعلم ، تحت اشراف المربى وارشاده ، حينما يشعر الطفل بالحاجة الى الارشاد ، حينما يستعين به ويرى نفسه فى حاجة اليه . وما هذه النصيحة التى ينصح

---

(٢) ارجع الى هذه الطرق فى كتابى (روح التربية والتعليم) و (الاتجاهات الحديثة فى التربية) للمؤلف بمكتبة عيسى البابى الحلبى بمصر .

بها روسو ؟ انها طريقة دانتون عينها ، وهى من أحدث الطرق فى التربية والتعليم . وقد كتبنا عنها الكثير فى كتابنا : « الاتجاهات الحديثة فى التربية » .

٦ ـ روسو والتربية الطبيعية :

ليس المراد من التربية الطبيعية أن يترك للطفل الحبل على الغارب، ويهمل بغير تربية وتعليم ، ولكن المراد من التربية الطبيعية أن يتمتع الطفل بما فى الطبيعة من جمال ، ويصل الى ما فيها من أسرار ، وينتفع بما فيها من عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجماد ، حتى يستطيع فى النهاية أن يقدر أسرار هذا الكون ، ويصل الى قدرة الخالق المبدع للكائنات المختلفة فى الطبيعة ، كما أن المراد من التربية الطبيعية أن يفكر المربى فى ميول الطفل وغرائزه ونزعاته الفطرية ، ويراعى ما يميل اليه وما لا يميل اليه ، وينتفع بتلك الميول الفطرية ، فيزودها بما يلائمها مما ترغب فيه ، وتود معرفته .

واذا رجعنا الى التربية الحديثة فى القرن العشرين وجدنا معظم المربين ينـادون بمراعاة ميول الطفل ومسـتواه العقلى والعلمى ، كى يستطيع أن ينتفع بما لديه من مواد دراسية . ولا يعترض على هـذا الرأى الا قليل من المربين حيث يقولون : ان هذه التربية التى يعنى فيها بأن يعمل الطفل ما يشاء ، وتقدم اليه المواد التى يميل اليها ـ لا تكون رجلا صالحا للحياة العملية التى تنتظره ، فالحياة العملية مملوءة بما يحبه الانسان وما يكرهه ، وقد يعترضه كثير من الصعوبات والشدائد ، فيجب أن نعوده القيام بأداء ما يحب وما يكره ، وأن يجعل نفسه ملائما لكل بيئة ، ويكون قادرا على التغلب على ما يعترضه من عوائق وصعوبات، كى يستطيع أن يعيش فى هذه الحياة .

٧ ـ دراسة الطبيعة (١) :

مع أن روسو لم يكن لديه حظ كبير فى دراسة الرياضة والطبيعة، كان لديه فى السنوات الأخيرة من حياته ولع كبير بدراسة علم النبات ، ولع بلغ درجةالولع . لم يضع روسو لاميل منهجا خاصا لدراسـة الطبيعة ، ولكنه نصح بتعويد اميل الانتباه الى مظاهر الطبيعة وتغيراتها التى تطرأ عليها من وقت لآخر ، فيلاحظ ما يحدث من تغيير فى الطبيعة

---

(١) Study of Nature

التى يدرسها ، فلا يمر عليها مر الغافل الذى لا يرى بعينيه ، ولا يلاحظ بهما جمال الطبيعة ، كما نصح بتربية غريزة حب الاطلاع التى لدى الطفل ، واقناع هذه الغريزة بكل تأن ، بحيث يجيبه المربى الى مايحب الاطلاع عليه ، ويفهمه ما يسأل عنه ، ويشرح له ما يطلب منه شرحه .

٨ ـ روسو ضد الطريقة الاخبارية فى التعليم :

لم يتفق علماء التربية وفلاسفتها صغيرهم وكبيرهم ، قديمهم ومحدثهم اتفاقهم على هذا المبدأ ، وهو تعليم النفس . يقول روسو . « ان التعليم الحق هو تعليم النفس بالنفس » . فمن الحكمة ألا يكثر المدرس استعمال الطريقة الاخبارية فى تعليم الأطفال ، وأن يعودهم تعليم أنفسهم بأنفسهم . واذا نظرنا الى الاتجاهات الحديثة فى التربية والى الطريقة التنقيبية كطريقة دالتون ، وطريقة المشروع ، وطريقة دكرولى ـ وجدناها مبنية على هذه النظرية ، وهى نظرية تعليم النفس والاعتماد عليها فى التعلم ، فروسو قد وضع مبدأ تعليم النفس ، وقام فلاسفة التربية من بعده بتطبيق هذا المبدأ ، وخاصة فى القرن العشرين ، فالمربية (هيلين بار كهرست) (١) الأمريكية صاحبة طريقة دالتون ـ أخذت تجرب هذا المبدأ ، وهو تعليم النفس والاعتماد عليها فى التربية والتعليم، وانتشرت طريقتها فى أمريكا ثم فى انجلترة وغيرهما . وأخذ كثير من المدرسين فى تجربتها بمدارسهم ، وكتب عنها كثيرون من فلاسفة التربية أمثال (ايفلين ديوى) بأمريكا ، والدكتور بلارد ، والسير جون آدمز بانجلترة . وكانت الصعوبة الأولى فى تنفيذ هذه الطريقة عدم وجود الكتب التى تصلح لها ، وقد تغلب المربون على هذه الصعوبة بوضع الكتب المناسبة . والفضل كله ينسب لروسو ، فقد كان قائدا للآراء والأفكار فى عالم التربية .

ان من العيوب الشائعة فى طريقة التدريس حب المدرسين للاخبار ، والطريقة الاخبارية . ومن الصعب عليهم مقاومة الميل لهذه الطريقة ، الميل للشرح فى الوقت الذى لا يطلب منهم شرح ، فقد يضيعون كثيرا من الوقت فى توضيح أشياء واضحة حتى لدى الضعفاء من التلاميذ . ولا يفكرون فى أن ينتفعوا بما لدى التلاميذ من آراء وأفكار ، فهم يعطون المحتاج وغير المحتاج ، كالأغنياء الذين لا تهمهم الطريقة التى

---

(١) Miss Helen Parkhurst ارجع الى كتابنا « الاتجاهات الحديثة فى التربيه » تجد فيه الكثيرعنها وعن طريقتها فى التربية .

يعطون بها . ونحن لا نمنع اعطاء المحتاج ، ولكننا ننقد اعطاء من هو فى غنى وليس فى حاجه الى العطية .

حسن ان يفكر المدرس فى أن يجعل تلميذه عالما بما يعلم . وحسن جدا أن يكون المدرس غزير المادة خطيبا ، ذلق اللسان ، قادرا على التعبير عما فى نفسه بسهوله وفصاحة ووضوح ، ولكن ليست الطريقة الاخبارية أو طريقه المحاضرات بالطريقة التى ينبغى ان تتبع مع تلاميذ المدارس الابتدائية والثانويه ، فان خير وسيله يمكن أن تتبع معهم أن يكون المدرس سببا ومرشدا وقائدا فى التعلم . ولئن صلحت الطريقة الاخبارية لتعليم الكبار فانها لا تصلح لتعليم الأطفال ..

وقد رأى روسو رأى اليقين أن مجرد الاخبار لا يؤدى الى النتيجة المرضية التى نرتضيها ، ووضح الضرر الذى يعود على التلاميذ من جراء حبنا للالقاء ، وكثرة الاخبار فى تدريسنا .

اننا لا ننكر تلك الحقائق التى ذكرها فى كلمته الآتية ، ولا نستطيع أن نتناساها أو نتجاهلها : « انى لا أحب كثرة الشرح والتفسير فى تلك الخطب الطويلة التى تقال لأطفال صغار لا ينتبهون اليها الا قليلا ، ولا يفهمون منها الا يسيرا ، فعليكم بذوات الأشياء . واننى مازلت أكرر وأكرر بأننا نعلق أهمية كبيرة فى التعليم على الألفاظ وكثرة الكلام والثرثرة » .

فروسو ضد الاطالة فى توضيح الواضحات ، فان توضيحها من المشكلات ، ولا يقوم بالشرح أو التفسير الا اذا كان هناك ما يقتضى الشرح أو التفسير ، كما أنه ضد استعمال طريقة الخطابة والمحاضرات مع الأطفال .

وفى اعتقادنا أنه ليس هناك ما يمنع من الشرح أو التفسير اذا كان هناك ما يتطلب الشرح أو التوضيح ، فاذا وجد التلميذ صعوبة ، وشعر بأنها فوق طاقته ـ فلك أن تفتح أمامه الطريق ، وتدعه يسير فيه بنفسه . واذا ما وجد عقبة من العقبات ساعدته فى ازالتها ، وسهلت له السبيل ، حتى يصل الى النهاية ، فاعطاء الدواء بكثرة فى الوقت الذى لا يشعر فيه الانسان بالحاجة الى الدواء يضر ولا ينفع ، فالمدرس ينبغى أن يكون كالطبيب ، لا يعطى الدواء الا من كان مريضا ، ولا يزور الا من يستدعيه ممن يشعرون بالمرض والحاجة اليه : ضع للتلاميذ الخطة التى تريد تنفيذها ، وراع فى وضعها الأمور التى تلائمهم ، وأمدهم

بالوسائل التى بها يستطيعون تحقيق الأغراض التى تتطلبها منهم .

اشرح الصعب حينما يشعرون بالصعوبة ، ويتلهفون على الحل ، فانهم فى حالة الشعور بالعجز ينظرون اليك مسترشدين بك ، وكلهم استعداد واصغاء وانتباه لكل كلمة تفوه بها وكل عبارة تذكرها .

هنا يحرصون على ما سمعوا ، ويجتهدون فى المحافظة عليه ، واثقين بأنه غال وثمين ، لأنهم لم يصلوا اليه الا بعد جهد وبحث وسؤال .

هنا يعتمد التلاميذ على أنفسهم فى التفكير لأنفسهم وبأنفسهم ، ويشعرون بالمساعدة التى تقدمها لهم ، ويقدرونها حق قدرها .

هنا لا تحتاج الى استعمال أية وسيلة لحفظ النظام ، فهم أنفسهم مصغون اليك كل الاصغاء ، منتبهون كل الانتباه . أما اذا اتبعت طريقة الالقاء والمحاضرات فى تعليم الصغار من التلاميذ فقد تكون فى واد وهم فى واد آخر ، ينظرون اليك بعيونهم ، وعقولهم غائبة ، لا يعون ما تقول ، ولا يفهمون شيئا مما تذكر .

اسألهم فيما شرحته لهم من غير مقتض تجد أنهم لا يدرون الا قليلا مما أتعبت نفسك فى شرحه وتفسيره لهم . أما عنايتك فوجهها الى الأفكار والمعانى ، لا الى الألفاظ والمفردات التى لا يدركون لها معنى . وجهها الى ذوات الأشياء (١) الى الأشياء المحسة نفسها ، حتى يكون لها أثر واضح فى نفوسهم .

٩ ـ روسو والاعتماد على النفس فى التعلم (٢) :

يقول روسو : « ان اميل لن يكلف تعلم العلم ، بل اختراع العلم » ولا عجب ، فالطريقة التى وضعها روسو لتربية اميل ترمى فى الحقيقة الى تربية مصارع فى الناحية العقلية . واذا كان من السهل على المربى أن ينمى جسم اميل بالألعاب الرياضية والتمرينات البدنية الشاقة ، حتى يصل الى درجة مصارع فليس من السهل أن يمرن عقله حتى يصل الى درجة المصارعين فى الناحية العقلية ؟ فتربية الجسم أسهل من تربية

---

(١) the things themselves

(٢) Self teaching

العقل على طريقة روسو ، وهى أن يترك اميل يفكر بنفسه حتى ينمو عقله : يقول روسو :

« ان اميل مضطر لأن يتعلم بنفسه ، وان يستعمل فكره لا أفكار غيره » .

واننا نتفق مع روسو فى اعطاء الفرصة للتلميذ فى أن يعتمد على نفسه فى التعلم بنفسه ، والتفكير بنفسه . وانى أنصح للقارىء بالاطلاع على طريقة دالتون (١) ، ففيها يجد كثيرا من الوسائل التى تتبع فى مثل هذا التعليم ، تعليم النفس بالنفس ، كى يترقى كل متعلم ، ويتقدم على حسب قوته ونشاطه ، ومواهبه ومجهوده ، فالعقل كالجسم له طاقة خاصة ، وليس من الحكمة أن نحمله فوق طاقته . « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

يرى روسو أن الاعتماد على النفس فى التعلم يؤدى الى الابتكار والاختراع ، وأن استعمال الفكر يقوى التفكير لدى المتعلم ، وأن معظم الأخطاء التى نرتكبها نقلت الينا من غيرنا ، وأن تقدمنا ينبغى أن يناسب قوتنا ، فان كنا أقوياء الجسم والعقل كان نجاحنا كثيرا وان كنا ضعاف الجسم والعقل كان نجاحنا فى الحياة قليلا .

يرى روسو أن نشجع الطفل على الاستقلال فى التفكير ، فلا نسمح لأحد بالسيطرة عليه ، والتحكم فى تفكيره ، بل نعطيه الفرصة فى أن يحكم عقله ، ويفكر بنفسه فى كل شأن من الشئون ، بأن يزن الأفكار ، ويقدرها حق قدرها ، ويستعمل حكمته وعقله فى كل عمل من الاعمال ، هذا اذا أردنا أن نجعله رجلا مستقلا ، يعتمد على نفسه فى الحياة .

طبعا لا يريد روسو أن يكون اميل مستبدا برأيه ، وانما يريد أن يعوده التفكير بنفسه ، والاستقلال فى عمله ، ويصونه من المؤثرات الخارجية التى تضره ، أو توقعه فى الخطأ ، وخاصة اذا كان ضعيف الارادة .

ولا نشك مطلقا أن هناك فرقا كبيرا بين طفل عودته أمه الاعتماد عليها وعلى مربيته فى جميع شئونه ــ من لبس الملابس وخلعها ، وتنظيف الحذاء ، وترتيب أدواته ولعبه ، واحضارها ، واعادتها الى موضعها ، بحيث لا تترك له الفرصة فى أن يعتمد على نفسه فى الأمور التى يمكنه

---

(١) فى كتابنا : (الاتجاهات الحديثة فى التربية) .

القيام بها ــ وطفل آخر أعطى الحرية فى استعمال أعضائه وحواسه ، وعود القيام بكثير من الأمور من غير مساعدة أحد : فالاول قد يجد صعوبة فى الحياة اذا فوجىء بما لاينتظر فى ذلك العالم المملوء بالصعاب ، أما الآخر فقد عود الاعتماد على النفس ، والتغلب على ما يعترضه من الصعوبات من الصغر ، وربى لغرض سام هو أن يكون رجلا كاملا فى المستقبل ، قادرا على الانتفاع بجميع ماوهب الله له من مواهب وميول وحواس . وبقدرته على الافادة من تلك المواهب ، وتعوده استعمالها تجد من السهل عليه أن يتخلص من المشكلات وحل الأمور الصعبة ، التى كثيرا ماتعترض الطالب فى العالم الذى ينتظره بعد الانتهاء من الحياة المدرسية .

١٠ ــ « ابذل جهدا فى التعلم » (١) :

رأى روسو من قبل ، ويرى علماء التربية اليوم ــ أن الدروس التى يستذكرها الانسان بنفسه ، ويبذل جهده فى معرفتها وفهمها ــ مهما يجد من الصعوبة فى الابتداء ــ تكون أثبت فى ذهنه ، وأكثر وضوحا لديه ، وأحسن مما لو لقنها اياه غيره فالشىء الذى يأتى بسهولة قد يذهب معظمه بسهولة ، أما الذى تصل اليه بعد الجهد والتعب فمن الصعب أن تفقده .

ان روسو لايريد أن يكون الانسان عبدا لغيره فى آرائه وتفكيره وينصح لنا بأن ننتفع بعقولنا فى معرفة الحقيقة والوصول اليها ، واختراع الوسائل التى بها نصل الى الحقيقة . انه لا يريد أن نهمل قوة التفكير التى لدينا بتعطيلها واضعافها ، وامانتها لعدم استعمالنا اياها . انه لا يجب أن نترك حواسنا وأعضاءنا وقوانا مهملة متعطلة ، ونعتمد على غيرنا فى القيام بأشياء يمكننا القيام بها . ولم نعطل تلك الحواس والأعضاء والمواهب والقوى التى وهبها الله لنا ؟ لم لا نستخدمها فيها يفيدنا ويفيد المجتمع ؟ فروسو لا ينصح بالاستعباد والخضوع فى الرأى لأحد ، أو الاعتماد على غيره فى عمل ، أو اهمال القوى التى وهبت لنا من غير انتفاع بها فى الوصول الى ما نحتاج اليه ، ومانشده .

---

(١) Learn with effort

١١ ـ الأعمال اليدوية (١) :

« بدلا من الحكم على الطفل بملازمته كتبه ـ ينبغى ارساله الى مصنع صغير ، فان أعماله اليدوية تفيد عقله ، ويصير فيلسوفا من غير أن يشعر فى وقت يظن فيه أنه سيكون صانعا فحسب »

بهذا ينصح روسو بالتعلم بالعين واليد ، كما ينصح كثير من علماء التربية والنفس اليوم باستعمال العين واليد فى التربية والتعليم . ولا ينكر أحد أثر الاعمال اليدوية فيهما ، فانهما من أكبر الوسائل لتربية العقل ، وقوة التفكير والابداع والاختراع .

فينبغى ألا نكتفى بالكتب فى تعليم أبنائنا وبناتنا ، بل يجب أن نمدهم بكل ما يمكن من الادوات والآلات الملائمة ، حتى نتيح لهم الفرصة فى استخدام حواسهم وأيديهم ، لنربى عقولهم ، ونصيرهم فلاسفة وصناعا فى وقت واحد كما يقول روسو . فانه لا يكفى فى الحياة أن يكون الانسان فيلسوفا فحسب ، بل يجب أن يكون قادرا على القيام بكثير من الاعمال اليدوية ، كالنجارة والزراعة وغيرهما :

تجد الرجل الايرلندى فى بيته يستطيع أن يقوم بكثير من الاصلاحات التى يتطلبها المنزل من غير حاجة الى نجار ، أو بستانى ، أو نقاش ، فهو نفسه يقوم بكثير من الاعمال الصغيرة ، كصنع غطاء صندوق ، أو اصلاح كرسى أو قفل ، أو طلاء الحمام أو المقاعد ، أو زخرفة المنزل بالورق ، أو تنظيم الحديقة ، أو اعدادها للزراعة ، أو قطع خشب الوقود بما لديه من عدد النجارة والطلاء والزراعة .

أما نحن فقد نستدعى النجار ليؤدى عملا سهلا يستطيع الغلام أن يقوم به لو كان لديه شىء من العدد والآلات ، وعود استعمالها ، فلم لا نعود الطفل من الصغر كثيرا من الاعمال اليدوية ؟ لم لا نمده بكل ما يمكن من الاجهزة واللعب التعليمية ؟ فانها ليست تمرينا مفيدا ليديه وعينيه فحسب ، ولكنها تمرين مفيد لتنمية قوة التفكير لديه .

---

(١) Hard-work

الفصل الرابع

كتاب (اميل)

(اميل) كتاب معقد :

إن كتاب (اميل) لروسو كتاب معقد ، فيه كثير من التناقض ، ولكنه لا يخلو من آراء ثمينة ، وأفكار سديدة ، كان لها أكبر الأثر فيمن أتى بعد روسو من المربين حتى عصرنا هذا . وقد خلط فيه روسو بين الحقيقة والخيال ، وبين القصة والفلسفة ، وبين الصواب والخطأ .

وفى (اميل) تلمس قوة فى البرهنة ، وشدة فى النقد ، وسموا فى الخيال ، وروعة فى الكتابة والخطابة . ترى قلما ساحرا ، وأسلوبا جذابا ، وصراحة نادرة ، واخلاصا شديدا ، وروحا متكهنا ، ووصفا دقيقا ، ومبالغة كثيرة ، وميلا الى الفطنة ، وشجاعة فائقة ، ومخاطرة كبيرة .

اذا قرأت (اميل) شعرت بأنك فى موقعة حربية ، وفى جو مملوء بالنار والدخان ، فهو اذا تكلم تكلم بقلبه فيصل الى القلوب ، وبأسلوب جذاب فيملك النفوس . فيجب أن تفكر فى الحقائق ، ولا تتأثر بهذا الأسلوب ، وتنتظر حتى تطفأ النار ، ويزول الدخان ، كى تصل الى الحقيقة ، غير متأثر بأسلوبه العذب ، وعبارته القوية ، وخطابته النارية .

لم يكتب روسو للعصر الذى كان يعيش فيه ، بل كتب للمستقبل ، وفكر فى المستقبل ، فلاعجب اذا انتفعنا بآرائه فى القرن العشرين، فكثير من نظريات روسو التى ذكرت فى اميل لم تفهم فى عصره حق الفهم ، ولم تقدر تلك الذخائر حق قدرها الا فى العصر الحاضر ، فقد تكهن روسو بأشياء لم تحقق الا اليوم ، مما يدل على شدة ذكائه ، ونبوغه وعبقريته ، وحسن بصيرته ، وبعد نظره ، فهو لم يكتب للقرن الثامن عشر فحسب ، ولكنه كتب للاجيال المقبلة :

تكلم روسو عن الثورة الفرنسية قبل حدوثها بثلاثين سنة ، وان الروح التى يمثلها كتاب (اميل) تجعله من الكتب الحية الخالدة التى تستحق الخلود والتفكير والتأمل من المربين والفلاسفة .

ولا يمكننا أن ننكر أن كتاب (اميل) شرح كثيرا من عيوب التربية الشائعة فى عصره ، وأدخل فى المدارس وحجر الدراسة ورياض الاطفال كثيرا من النور والهواء والحرية ، وحرر الشعوب والانسانية مما لحقها من الشدة والعبودية ، وطالب المدرس بمعرفة الطفل الذى يقوم بتعليمه، فهو أول من نادى المدرس بقوله : « ادرس المادة التى كلفت القيام بتعليمها . » ولا شك أن المادة التى كلف المدرس القيام بتعليمها هى الطفل . وفى تلك الكلمة التى كان روسو أول من نطق بها تجد أساس التربية الحديثة ، فقبل أن يتخذ المدرس التدريس مهنة له يجب أن يدرس الطفل ، ويعرف كل شىء يتعلق به .

وقد كان الدافع له على كتابة (اميل) أن سألته مرة احدى السيدات أن يرشدها الى الطريقة المثلى فى تربية أبنائها ، فأخذ يفكر فى الاجابة عن سؤال تلك السيدة ، فكانت النتيجة أن ألف كتاب (اميل)، وبين فيه كيف نربى الطفل منذ ولادته ، حتى يبلغ العشرين من العمر ، ويصير رجلا يبحث له عن شريكة تجعله سعيدا فى حياته ، وكيف تربى هذه لتكون زوجا صالحة ، فروسو فى كتابه وضح لنا فى الاجزاء الاربعة الاولى من (اميل) كيف يربى الرجل ، وفى الجزء الخامس منه شرح لنا كيف تربى البنت لتكون امرأة تستطيع القيام باسعاد زوجها ، وتربية أبنائها .

الرجوع الى الطبيعة :

كتب (تيرجوت) (١) فى سنة ١٧٥١ م قبل روسو بسنوات كثيرة رسالة مسهبة ينادى فيها بالرجوع الى الطبيعة فقال : « ان تعليمنا سطحى ، وتربيتنا سطحية . » « ان كل شىء يدرس لنا ضد الطبيعة » . « يجب أن تدرس الطبيعة ويؤخذ رأيها . كى ننجو من الضرر الذى ينشأ عن تعطيلها . » . « ان رءوس الاطفال مملوءة بكثير من الافكار المجردة التى لا يمكنهم فهمها مع أن الطبيعة تستدعيهم اليها فى كل حين » . « ان الفضائل كلها قد بذرتها الطبيعة فى قلب الانسان ، وان

---

(١) Jurgot : عالم فرنسى من علماء الفلك (١٧٢٧ ـ ١٧٨١ م) .

الشيء الذى نحتاج اليه ان ندع هذه الفضائل تزهر ، وتخرج أزهارها وثمارها » .

من هذا نرى أن الدعـوة الى الرجوع الى الطبيعة قد ذكرهـا (تيرجوت) من قبل روسو ، ثم ذكرها روسو من بعده نقطة جوهرية فى كتابه اميل .

وأغلب الظن أن روسو لم ير آراء (تيرجوت) فى رسالته سنة ١٧٥١م الى (مدام دى جرافجنى) المؤنفة الشهيرة ، فكثيرا ماتتفق الخواطر ، ويبدى اثنان من المفكرين فكـرة واحدة فى وقت واحـد عن أمر معين ، ولم يسبق لهما تبادل فى الرأى أو الفكرة ، فروسو نادى بالرجوع الى الطبيعة ونادى بهذه الفكرة (تيرجوت) من قبله ، من غير أن يتصل أحدهما بالآخر .

وقد نادى روسو بأن الانسان طاهر بفطرته ، نقى بطبيعته ، مخلص فى ميوله ورغباته ، ولا يفسـده الا البيئة التى أوجدتها يد الانسان . وقد رأى (تيرجوت) من قبله أن كل شيء حسن بطبيعته ، قبيح بما يعرض له من المؤثرات الخارجية ، ثم أتى « وردسورث» الشاعر الانجليزى، شاعر الطبيعة والانسانية ، ونادى بما نادى به من قبله (تيرجوت) . وروسو فى القرن الثامن عشر .

وان الأمثلة التى اقتبسها روسو فى كتاب (اميل) تكفى الحكم بأن هذه الافكار والآراء كانت منتشرة فى البيئة التى تحيط بروسو ، فجمعها وهذبها ، ووضعها فى الموضـع الذى تسـتحقه ، ودافع عنها بمقدرته الفائقة ،وفصاحته النادرة ، وأسلوبه المؤثر ، وروحه القوى ، وأظهرها فى ثوب جميل يسحر الألباب ، ويفتن العقول ، وأعلن عنها بجرأته وشجاعته . ولكن هل يضير روسو أن ينتفع بآراء غيره اذا سلمنا بأنها لغيره ؟ ألا يكفيه أنه قد أتم مابدأه غيره ، وأكمل الآراء الناقصة ، ووضح الأفكار الغامضة بما أوتى من ثروة فى المادة ، وقوة فى الحجة ، وعذوبة فى الأسلوب ، وقدرة على التأثير ؟

لا ينكر أحد أنه كان له فضـل السبـق فى أفكاره عن الطبيعة الانسانية .

ولكن يجب ألا ننسى أن روسو كان فى حاجة الى التجربة العملية ، وأنه فى خياله وتفكيره وبرهنته أقوى منه فى الملاحظة والنظر ، ولم يكن هذا ناشئا عن عدم تقديره لفائدة الملاحظة وأثرها ، فقد شـعر تماما

بحاجته الى الملاحظة ، وأدرك ما به من نقص حينما أراد أن يبحث هذا البحث الخالد بمقدرة وكفاية ودقة ، فقد كتب فى ١٥ من يناير سنة ١٧٥٩م رسالة الى (مدام دى كريكى) (١) حينما انتهى من كتابته رواية (هيلويز الجديدة) (٢) وبدأ تأليف كتاب (اميل) يقول فيها :

« فى الكلام عن التربية لدى أفكار عن هذه المادة أود أن أكتبها ، لو كنت أجد قليلا من المساعدة ، لكننى فى حاجة الى بعض الملاحظات التى لا أستطيع أن أذكرها ، فأنت أيتها السيدة أم ، ومع أنك تقية صالحة أنت حكيمة فيلسوفة ، لقد ربيت ابنك ، فان كنت قد دونت فى أوقات فراغك شيئا من الملاحظات عن تربيتك له فأرسليها الى فانك ستجازين خير جزاء اذا ساعدتنى ملاحظاتك فى اظهار عمل نافع . »

من هذه الرسالة يتضح لنا أن روسو الذى لم يرب أولاده الخمسة اضطر الى أن يرجو هذه السيدة أن تذكر له شيئا من تجاربها ، لأنها أم ومربية بالفعل .

ملاحظة روسو لاطفال غيره :

كان روسو يلاحظ أطفال غيره ، وقد وجد كثيرا من السرور من دراسة الاطفال والبحث عنهم ، وا أسفاه ! انه من المحزن أن يلحظ أطفال غيره ، ويهمل أولاده !

من المحزن أن تراه ينظر من نافذة منزل تخيم عليه الكآبة والوحشة لخلوه من الاطفال لهفوته وغلطته . انه يراقب الاطفال من تلك النافذة ، ليراهم وهم عائدون من المدرسة وينصت الى محادثاتهم ، ويسترق حديثهم ، ويشاهدهم وهم يلعبون ألعاب الطفولة . يقول روسو : « لم يتمتع أحد بما تمتعت من ملاحظتى للاطفال وهم يلعبون ، ويداعب بعضهم بعضا . » ويقول فى موضع آخر : « لقد كان لما كنت أحسه من لذة فى ملاحظة الاطفال ومشاهدتهم أكبر الأثر فى نجاحى فى معرفة القلب الانسانى . »

ولو استطاع روسو أن يلحظ أبناءه يوما بعد يوم منذ الولادة بدلا من مراقبته لأبناء غيره لكانت دراسته الطفولة أكثر دقة وضبطا . فروسو

---

(١) Mme de Créquy

(٢) La Nouvelle Héloïse

قد ارتكب جرما لا يغفر فى هجر أولاده الخمسة ، وارسالهم الى الملجأ ، ثم ادرك خطيئته ، وأراد أن يكفر عنها بدراسة أبناء غيره ، والتفكير فى تربيتهم وتعليمهم .

نقص روسو فى التربية العلمية :

لقد كان روسو ضالا تائها فى شبابه ، حاول كثيرا من الحرف والاعمال ، فقد حاول أن يتعلم الحفر ثم النقش ، ثم كان كاتم سر ، ثم ناسخا لقطع موسيقية ، ثم مدرسا . وقد نصح له (جرم) الكاتب القصصى الألمانى ذات يوم أن يذهب ويبيع شراب الليمون ، ولا عجب ، فهو لم يعد ليكون مدرسا ، ولم يمرن على التدريس الا قليلا ، لهذا لم يوفق فى التربية العملية توفيقه فى التربية النظرية ،فهو قد وفق الى حد كبير فى النظريات والآراء التى نادى بها فى التربية ، ولكنه لم يوفق فى مهنة التدريس ، ففى سنة ١٧٣٩م عهد اليه بتعليم ابنين من أبناء حاكم مدينة (ليون) ، وكان عمر روسو اذ ذاك سبعا وعشرين سنة ، فأخذ يقوم بالتدريس لهما معتقدا فى البدء أنه يستطيع أن يكون مدرسا، وأنه يمكنه القيام بتلك المهنة ، ولكنه أخفق فى عمله ، وقال : « انى لم أفعل شيئا يستحق أن يذكر . » وأدرك أن مهنة التدريس مهنة شاقة، وأنه لا يصلح لها بأية حال ، فاعتزل التدريس الخاص لبعض التلاميذ فى نهاية تلك السنة . كل هذا قد حدث قبل أن يؤلف (اميل) ، وهو الكتاب الذى يدل على الذكاء النادر ، والتفكير العميق .

فنحن لا ننكر على روسو ذكاءه ، كما لا ننكر عليه تفكيره ، وقوة ملاحظته ، ولكننا نعيب عليه أنه لم يدرس التربية دراسة منظمة ، ولم يطلب العلم بطريقة منظمة ، ولم يثابر على تعلمه ودروسه ، ولم يتم التعلم كما ينبغى ، فتعلمه كان متقطعا مضطربا ، ولذا كان يشعر بنقص من الناحية العلمية .

ومما سد هذا النقص أن حياته المؤلمة المحزنة دفعته الى أن يتصل بكثير من البيئات الاجتماعية ، ويلتجىء الى المعيشة مع الأسر المختلفة فى حياتها وثقافتها ، فكانت لديه الفرصة فى أن يتصل ببعض التلاميذ ، ويعاشر بعض العظماء والأمراء ، والسيدات والأميرات . وكان لهذه الصلة أثر كبير فى آرائه وأفكاره ، وفى حياته وتجاربه ، وفى عقله وتفكيره، لهذا يمكننا أن نقول انه أفاد من مدرسة الحياة ، ومن هؤلاء الأصدقاء والعلماء أكثر مما كان يظن أن يفيده من أية مدرسة أو كلية . فروسو قد علم نفسه بنفسه ، ولذا يريد أن يعلم اميل نفسه بنفسه ، وفى هذا

يقول : « ان القليل الذى أعـــرفه قد تعلمته بنفسى ، ولم تسـمح لى الأحوال بأن أتعلم شيئا من مدرس » ، فهو قد تعلم من انحياة والتجارب ومن البيئات المتنوعة التى كان يتصل بها .

تربية اميل تخالف التربية الحقيقية التى رباها روسو :

ان تربية (اميل) تخالف فى كثير من نقط التربية التى رباها روسو، فهو لايريد أن يربى (اميل) كما ربى هو ، فروسو لم يرض عن التربية التى رباها ، ولم يرض عن المجتمع الذى عاش فيه ، ولم يقنع بالحياة التى كان يحياها ، فالتربية التى أرادها لاميل نتيجة الخبرة أو التجربة التى رآها بنفسه فى الحياة ، فهو لا يود أن يقاسى ما قاسى فى الحياة ، ولا يريد أن يقع فيما وقع فيه من الهفوات التى ارتكبها فى حياته ، ولا يود أن يعيش مشردا كما كان يعيش ، ولايحب أن يكون (اميل) مثله فقيرا معدما طريدا ، مريض الجسم ، مضطرب العقل ، ولكنه يريد المثل الأعلى لاميل . يريد الصورة التى صورها لطفل سليم الجسم ، سليم العقل ، قوى البأس ، قوى الارادة والعزيمة ، يحيا حياة طاهرة منظمة، فى بيئة طاهرة ، ومجتمع طاهر ، كى لايشعر بما كان يشعر روســو به ، ولا يحيا الحياة التى كان يحياها ، ولا يقاسى ما قاساه من ألم وحزن وتعس وشقاء ، فيكون انسانا حيا يحيا حياة سعيدة كاملة ، فى جسمه وعقله وخلقه ووجدانه وحواسه وذوقه وقلبه .

لقد قرأ روســو كثيرا ، فقد قرأ مكتبة بأكملهــا من الروايات والقصص قبل أن يبلغ من العمر عشر سنوات ، لهذا يكره الكتب ، ويحرمها كل التحريم على (اميل) وهو طفل . ولقد قال (برونيتير) (١): « لقد كان أحد العظماء من كتابنا فى حاجة كبيرة الى من يقوده ويرشده فى طفولته وشبابه » يقصد بذلك الكاتب روسو .

حقا أن روسو لم يجد من يقوده ويرشده وهو طفل ، ولم يجد من يهديه وهو شاب ، فروسو قد حرم الأسرة النافعة وهو طفل ، فقد ماتت أمه بعد ولادته بأيام ، ثم هجره أبوه بعد أن رباه تربية فاسدة ، لذلك يريد أن يعنى باميل العناية التى لم يرها هو ، يريد أن يربيه التربية الحق التى حرمها ، فأعد له مدرسا خاصا يلحظه عن كثب ، ويرافقه فى كل مكان ، ويرشده اذا أخطأ ، ويقيه الوقوع فى الأخطاء والهفوات ، ويصونه من الرذائل حتى يصل الى سن الزواج .

---

(١) M. Brunetiere

لقد شعر روسو بما فقده من النبل والشرف والوقار والاحترام فى البيئة الفاسدة التى كان يتصل بها ، والمجتمع الضال الذى كان يعيش فيه ، فهو لا يريد أن يرى (اميل) تلك البيئة ، ولا يريد أن يتصل بذلك المجتمع ، لكى يربى تربية كاملة ، كلها طهارة وشرف ، تتمثل فيها الفضيلة والكمال ، لهذا نادى بأن يعيش (اميل) وحده بين أحضان الطبيعة بعيدا عن المجتمع الانسانى الفاسد .

لقد عاش روسو وهو شاب عيشة كلها خمول وكسل ، ولهو وضلال ، فقد أضلته المدنية ، وأغوته مظاهر باريس ، وغوايات المجتمع التى تحول دون الوصول الى المثل الأعلى من الرجال ، لذلك يريد أن يتنحى باميل عن تلك البيئة الفاسدة ، كى لا يتأثر بها جسمه أو عقله أو خلقه . ولم يجد أصلح من أن يربى فى الريف ، حيث الطبيعة الهادئة ، والهواء العليل ، والحب الطاهر ، وسهولة العيش ، والبعد عن رذائل المدنية وسمومها ، فيعيش نائيا عن الرذيلة ، بعيدا عن الشر ، فى جو الطبيعة الطاهرة ، تلك البيئة التى لم تلوث بما تلوث به الحياة المدنية فلا عجب اذا قال :

« وداعا ياباريس ! يامدينة الصخب والضوضاء ، والدخان والضباب ، فقد أصبحت المرأة فيك لا تعتقد عفة ولا طهارة ، وأصبح الرجل لا يعرف الفضيلة ولا الكمال . وداعا ياباريس ! فان غايتنا هى الحب الطاهر ، والسعادة الحق ، والعفة والطهارة . »

روسو يضاد نفسه :

لقد كانت حياة روسو غريبة ، ففى الوقت الذى كان فيه يطالب وينادى بالمثل الأعلى كان يرتكب أعمالا تناقض أفكاره كل التناقض ، فقد كان نبيلا فى آرائه ، عظيما فى آماله ، دنيئا فى حياته وأعماله ! لذلك كان هناك عراك داخلى دائم بينه وبين نفسه ، فضميره كان يؤنبه دائما على ما كان يرتكبه من رذائل تخالف الفضيلة التى كان يفكر فى الوصول اليها ـ كل المخالفة ، فلا عجب اذا قلنا : انه كان يحيا حياة شقية مؤلمة . شعر فيها بكثير من محاسبة النفس ، وتأنيب الضمير ، شعر فيها وهو يقوم بتأليف (اميل) بأنه فى طريقه الى الموت ، وأنه قاب قوسين أو أدنى . ولاضطرابه العقلى ، وأمراض الخيالية ـ كان جسمه فى نقص مستمر ، وكانت حياته مرة قاسية ، حتى كاد يجن ، وفكر فى الانتحار لمالحقه من اضطراب وظلم واضطهاد .

لذلك كان ساخطا على المجتمع ، متبرما بالحياة ورذائلها ، تلك الرذائل التى اشترك فيها ، وكان على علم بها . اشـــترك فيها وهو شاب ، فشعر بالذلة النفسية ، والضعة من الناحية الخلقية ، حتى كان يخجل من نفسه ، فقد كان يسكن فى فندق مع خادم ، خسيس الطبع ، دنىء النفس ، يميل الى الرذيلة ، و لايعرف الفضيلة ، فأفسد أخلاق روسو وهو غلام ، وكان عبئا ثقيلا عليه ، حتى كانت حياته مأساة، ورواية مؤلمة محزنة ، لهذا كله أراد أن يعوض ما فقده من المثل الأعلى للفضيلة فى الحياة ، لكنه لم يصل فى حياته العملية الى الفضيلة التى ينشدها ، والى المثل الأعلى الذى يفكر فيه ، انما استطاع أن يصـــل الى الآمال التى يتخيلها بما أبداه من الآراء والأفكار ، والمثل العليا فى التربية والاخلاق والاجتماع فى كتابه (اميل) ، وفى رسائله .

وقد ظهر روحه القوى ووعظه المؤثر ، وأسلوبه العذب فى أجزاء خاصة من (اميل) ، حتى ان القارىء لهذا الكتاب الثمين يحس كأنه يقرأ شعرا عذب اللفظ ، قوى التأثير ، كله روعة وجمال . وقد قال : « لقد عجزت عن الوصول الى المثل الكامل بين المجتمع الانســـانى ، فاضطرنى هذا الى أن ألقى بنفسى فى عالم الخيالات والأوهام ،وأكون الانسان الكامل فى المجتمع الكامل ! » .

وان المطلع على كتاب (اميل) يجد فيه كثيرا من المبالغات ، وقد اعترف روسو بهذه الحقيقة حينما كتب رسالته سنة ١٧٦٣م الى أمير « وريمبرج » (١) عن مشروع التربية الذى أرسله اليه ، كى يعمل به فى تربية ابنته (صوفى) (٢) ، وهو مشروع لا يختلف عما نادى به من الآراء فى تربية المرأة فى كتاب (اميل) حيث قال : « ان هذه الرسالة ما هى الا تخيلات تخيلها رجل يهذى : فان الموازنة بين ما هو واقع وحادث بالفعل فى الحياة ، وما ينبغى أن يكون ــ قد جعلتنى خياليا فى تفكيرى ، وأبعدتنى كثيرا عما هو سائر » فى الحياة العملية .

فروسو فى آرائه وأفكاره كان فى واد ، والعالم الذى يعيش فيه كان فى واد آخر ، ولذا كان يتمنى ألا ينشأ اميل كما نشأ هو من قبل .

---

(١) Wirtemberg.

(٢) Sophie

القواعد الأساسية لاميل وآثارها .

يقول روسو : « عفوا أيها القارىء اذا وجدت شيئا من التناقض فى الظاهر لا فى الحقيقة فيما أقول . »

واننا نرى أن أحسن وسيلة للعفو عنه فيما يبديه من التناقض بين أقواله وأعماله ، وبين ما يقول وما يفعل ـ أن نتغاضى عن هفواته ، ونعمل على أن نستخلص تلك الجواهر التى وصفها روسو فى كتابه (اميل) ، ونستخلص منها الحقائق الجوهرية التى لا يشك أحد مطلقا فى صحتها ، والتى تؤسس عليها التربية الحديثة فى العصر الحاضر ، منها :

١ ـ « خلق الانسان حرا ، وهو الآن مقيد بقيود فى كل مكان » : (١)

بهذا القول النفيس بدأ روسو ينقد الأحوال الاجتماعية فى المجتمع الانسانى ، حيث توضع قيود فى كل مكان وفى كل زمان يستعبد بها الانسان ، وقد خلق حرا من القيود والأغلال :

ففى حياته الاولى يجد نفسه خاضعا لكثير من الاوامر والنواهى فى البيت والمدرسة ، المنطقية منها وغير المنطقية ، المتفقة مع العقل والمخالفة له .

وفى حياته الاجتماعية تلقى على عاتقه التبعة ، ويحاسب على ما يقول وما يكتب وما يفعل ، فهو مقيد فى كل أمر من أمور الحياة . وهذا يخالف ما فطر عليه الانسان من حب الحرية ، فلاعجب اذا طالب بالحرية ، وقاتل فى سبيل الحرية ، واستمات من أجل الحرية ، فالحرية حق وهبته له الطبيعة ، ولكن المجتمع سلبه هذا الحق الطبيعى ، حق الحرية فى الحياة .

٢ ـ « ولد الانسان طاهرا ، فاصبح فى العالم فاسدا » :

هذا ما ذكره روسو فى مقدمة كتابه (اميل) ومنه نستنبط أن روسو كان مولعا بوضع مبادئه فى أقوال موجزة ، وحكم مؤثرة قاطعة ، تستدعى كل انتباه واصغاء ، كما نستنبط رأيه فى أن الانسان طاهر

---

(١) ارجع الى كتابه Contrat Social حيث يقول :
« Man is born free, and is everywhere enslaved.»

بفطرته ، خير بطبيعته ، لكن العالم هو الذى يقوده الى الرذيلة والشر والضلال !

فروسو يعتقد أن الطبيعة حسنة فى جوهرها ، وفى أساسها ، ويتفاءل كل التفاؤل من جهتها ، ويتشاءم كل التشاؤم من المجتمع وأثر المجتمع . يريد بذلك أن يرجع بالانسان الى الفطرة والطبيعة ، وأن يقول : ان الطبيعة حسنة فى نظره ، فالشىء الطبيعى طاهر اذا لم تغيره يد المدنية الكاذبة بالافساد والتشويه ، والتغيير والتبديل .

هذه هى نظرية روسو من جهة الطبيعة ، وهو فى هذه النظرية يتفق مع كثير من معاصريه ، فقد قال « دى هو لباك » (١) : « الانسان شرير ، لأن العالم هو الذى جعله شريرا . » وقال (ديدرو) (٢) : « كان هناك رجل طبيعى ، ولكن هذا الرجل قد أصبح صناعيا . » وهذا مارمى اليه روسو وقصده بقوله الذى يصر عليه ، ويثق به كل الثقة : « دعنا نضع قاعدة لاجدال فيها : هى أن الحركات الاولى للطبيعة صواب دائما ، وقلب الانسان خال بفطرته من العناد أو التمرد ... كل الاخلاق طيبة حسنة فى ذاتها ... الطبيعة لا تخطىء .. »

ومما لا شك فيه أن لنا الحق أن نمهل روسو قليلا ، ونسأله أن يشرح لنا بعض تلك الاقوال المتناقضة . دعنا نناقشه فى قوله : «الانسان طاهر بطبيعته ، والمجتمع فاسد لأنه من عمل الانسان . » : فاذا كان الانسان طاهرا فكيف يكون عمله مفسدا ؟ ولكن روسو لا يبالى هذا التناقض ، وهو يؤمن بهذا الرأى ، ويتمسك به كل التمسك . ولا عجب ، فقد كان خياليا يفكر فى المثل الأعلى الذى لا وجود له . وكثيرا ما كان يكرر بعبارات مختلفة أن المجتمع فاسد ، مملوء بالمساوى ، والرذائل المقوتة ، وأن من الواجب اصلاح هذا المجتمع بتطهيره مما فيه من عيوب . ونحن لا ننكر عليه وجوب العمل لاصلاح ما فى المجتمع من شرور وآثام .

ولاصلاح هذا المجتمع الفاسد يرى روسو أن نجعل السلطة للطبيعة بدلا من التقاليد العتيقة ، وأن تلغى القسوة فى التأديب ، والشدة فى الضغط ، كى لا تشوه القوى الانسانية ، ولا تفسد ، وأن نعطى الشبان حرية تساعدهم فى نمو مواهبهم ، وقواهم الانسانية .

---

(١) D'Halback

(٢) Diderot

يمثل هذه الأقوال والمبادىء كان روسو يعلن ثورة اجتماعية على المجتمع ، وعلى معاهد التربية والتعليم ، ولذا كان يعده «كومبير(١)» حقا أبا للثـــائرين ، وبطـــلا لهم ، ويجب ألا ننسى أن « مارات » (٢) قرأ كتاب (العقد الاجتماعى) (٣) لروسو سنة ١٧٨٨م أمام مجتمع من الناس ، فكانوا يصفقون له تصفيق الحماسة والاستحسان والاعجاب .

واذا نظرنا من الوجهة التعليمية الى النظرية التى وضعها روسو وجدنا أننا نحتاج فى النهاية الى الرجوع الى الطبيعة لتكوين رجل طبيعى ، تربى تربية طبيعية ، ولم يتأثر بسموم المدنية ، ولم يتغير عما كان عليه من الطهارة منذ وجوده فى هذا العالم ، تلك الطهـارة التى أوجدتها فيه الطبيعة بارادة الله . فروسو فى فلسفته الدينية يعتقد أن وراء الطبيعة قوة الهية ، وعناية الهية ، وحكمة الهية تجعل الطبيعة طاهرة ، فالانسان يعد طبيعيا فى نظر روسو اذا لم يفسده المجتمع ، ولم تضله موبقات البيئة !

ولنا الآن أن نسأل روسو : هل الطبيعة منبع للخير وحده ؟ ان روسو لا يمكنه أن ينكر أن الطبيعـة كما تكون منبعا للخير تكون منبعا للشر ، وكما تكون فى الطبيعة بذور الخير تكون فيها بذور الشر ؛ فالطبيعة ليست مصدرا للطهارة أو الفضـيلة أو الخير فقط كما يزعم روســو . وبالتربية الحق نستطيع أن نساعد الطبيعة فى اصلاح هفوات المجتمع ، وفى وقاية الانسان من الخطأ ، ومنعـه من ارتكاب الرذيلة ، حتى يكون كاملا ، فالتربية ينبغى أن تؤدى الى الفضيلة والكمال ، حتى تقوم بواجبها الذى ينتظر منها .

وهنا يجب أن نذكر أن هناك رأيا آخر يخالف مبـدأ روســو كل المخالفة ؟ هذا الرأى هو أن الطبيعة شريرة فى جوهرها ، وبعبارة أخرى الانسان شرير ومنبع للشر والرذيلة بفطرته ! ويعلل أصحاب هذا الرأى أن الانسان منذ أن حكم على آدم بالخروج من الجنة فسدت طبيعته ، وحكم عليه بالادانة . ولتهذيب تلك الطبيعة الانسانية وضعت قيود صارمة فى التربية والتعليم ، أساسها الضغط والقسوة والشـدة ، والأمر والنهى والعقاب ، وغير ذلك من الوسائل التى لا تسمح للطفل بشىء من الحرية

---

(١) Compyre

(٢) Marat : هو (جون بول مارات) : من قادة الثورة الفرنسية، ولد فى ٢٤ من مايو سنة ١٧٤٣ ، وقتل فى ١٣ من يولية سنة ١٧٩٣ .

(٣) Contrat Social

الطبيعية التى منحه الله اياها منذ خلقه ، واننا لا نتفق طبعا مع أصحاب هذه النظرية ٠

وقد حاول المربون قديما كل الوسائل التأديبية والتهذيبية الا وسيلة واحدة ؛ تلك الوسيلة التى لا يمكن أن ينجح غيرها من الوسائل ، وهى فى نظرنا الحرية المنظمة المبنية على قواعد خاصة ، ونظام خاص ، ولكن مع الأسف نرى أن معظم علماء التربية يبالغون فى آرائهم ، فيرى بعضهم أن يعطى الطفل الحرية المطلقة ،ويرى آخرون أن يقيد الطفل تقييدا تاما بكل الوسائل ، ولم يقل أحد بالتوسط بين الرأيين الا القليل : بأن نعطى الطفل الحرية بشرط أن تكون حرية منظمة ؛ فانه يجب أن يعطى الطفل حرية مطلقة ، ولا يحرمها كل الحرمان ٠ ولكن روسو قام بثورة ضد الرأى القائل بان الانسان شرير بفطرته ، ونادى بقوله : « الانسان طاهر بطبيعته ، وأن من الواجب أن يعطى الحرية الكاملة » ٠ فروسو كان على طرفى نقيض مع النظرية القائلة بأن الانسان بخس بفطرته ، ولا يمكن تطهيره الا بقيود ٠

والحق أن الانسان ليس بطاهر بفطرته ، وليس بشرير بطبيعته ، ولكنه يولد قابلا للخير أو الشر ، والحسن أو القبح ، والفضيلة أو الرذيلة، والبيئة هى التى تؤثر فيه ، فى البيت والمدرسة والمجتمع ، فمن الممكن أن يكون خيرا اذا عود الخير ، ومن السهل أن يكون شريرا اذا عود الشر ٠ وهذا ما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، وانما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ٠

على أننا لا نستطيع أن ننكر ما كان لروسو من فضل فى المناداة بحقوق الطفل والطفولة ، والمناداة بالحرية وأثرها فى التربية والتعليم ؛ فمن الخطأ أن نقسو على الطفل ونضغط عليه كل الضغط ، ونحرمه حقه فى الحرية ٠ وليس من العدل أن نتكلم مع الأطفال عن واجباتهم ، ولانتكلم معهم عن حقوقهم الشخصية والانسانية ، فكما يجب أن يعرفوا ما عليهم من الواجبات ، كذلك يجب أن يعرفوا ما لهم من الحقوق ٠

٣ ـ « ارادة الشعب حق دائما » : (١)

هذا رأى من آرائه السياسية فى الشعب وارادة الشعب ؛ فهو

---

(١) The universal will of the people is always right.

يعتقد ، وصوابا يعتقد أن ارادة الشـــعب حق على الدوام - وهى قوة دونهـا كل قوة • ويتمثل فى هذا الرأى روح الديمقـراطية فى عصرنا الحاضر • فهو يفكر فى الشعب كما يفكر فى الانسانية ، فارادة الشعب فى نظره لا تخطىء اذا كانت تلك الارادة بالاجماع • واننا نقـول : ان الحكومة هى الأمة والأمة هى الحكومة • وأن الحكومة يجب أن تكون من الشعب ، وأن تعمل للشعب ، ولمصلحة الشعب •

٤ ـ اميل صالح للتعليم عند بلوغه من العمر اثنتى عشرة سنة :

عندما يبلغ اميل من العمر اثنتى عشرة سنة يمكن أن يقال : انه الآن صالح للتعليم : يقول روسو : « الآن هو وقت العمل ، وقت التعليم والارشاد والدراسة ، لكن يجب أن يعرف أنى لن أستبد فى العمل ، ولن استبد فى الاختيار ، فان الطبيعة نفسها هى التى عينت العمل وبينته لنا » • فروسو يرى أنه لا تعليم حتى سن اثنتى عشرة سنة •

وان من الأخطاء الرئيسية لروسو قوله بالتربية السلبية حتى يبلغ الغلام من العمر اثنتى عشرة سنة ، فروسو يرى أنه لا تعليم ولا تأديب حتى هذه السن ، فالطفل لن يعلم شيئا فى طفولته ، ولن يعطى أوامر ، ولن يبدأ بتعليم (اميل) الا بعد كسل عقلى طويل • وهو بهذا المبدأ يرى أن يترك الطفل للطبيعة ، يترك لنفسه ، يترك وحده بحيث لا يتعرض له أحد ، ولا يطالبه أحد بعمل شىء مطلقا • وأننا نعتقد أن روسو قد أخطأ فى هذه المبالغة ، وليس لدينا ما يمنع أن نترك الطفل ليشبع رغباته وميوله ، وأن نتعرض له كى لا يقع فى الخطأ مرة أخرى • ومن الذى يستطيع من الآباء والأمهات أن يهمل الطفل علميا وخلقيا حتى يبلغ من العمر اثنتى عشرة سنة ؟

وفى اعتقادنا أنه يجب على المربى ألا يتدخل الا قليلا عند الضرورة لازالة العوائق التى تعوق الطفل عن العمل النافع ، واللعب الحر •

وفى اعتقادنا أنه لو ترك عقل (اميل) مدة اثنتى عشرة سنة بغير تعليم وتهذيب كان كحقل تركه الفلاح بغير زراعة أو حـرث مدة اثنتى عشرة سنة ، فتكثر فى الأرض الحشائش والنبـاتات غير الصالحة كثرة بشكل مخيف • وحينما يفكر الفلاح فى التخلص منها يجد كل الصعوبة فى ذلك ، فقد فات الوقت المناسب للقضاء على تلك الحشائش !

٥ ـ « لا سلطة فى التربية الخلقية » (١) :

يرى روسو ألا تكون هناك سلطة ولا عقاب ولا ثواب ، ولا أمر ولا نهى فى تربية الطفل تربية خلقية ؛ ولا عجب فهو ممن نادوا بالعقوبة الطبيعية ، وترك الطفل للطبيعة لتعاقبه عن الهفوة التى ارتكبها ، والخطأ الذى أخطأه • وقد قام « هربرت سبنسر » من بعده بتهذيب هذه النظرية، نظرية العقوبة الطبيعية (٢) ، فروسو يرى ان (اميل) يجب أن يبقى وحده ، وليس معه سوى الطبيعة ، وقوة الطبيعة ، وهى وحدها كافية لتربيته وتهذيبه وعقوبته ان ارتكب شيئا يستحق العقاب • ولنا أن نسأل : هل يستطيع الطفل أن يميز الخير من الشر ، والفضيلة من الرذيلة؛ فيقدم على الخير والفضيلة ، ويتنحى عن الشر والرذيلة ؟

ان الطفل فى طفولته لا يستطيع تمييز هذه الأشياء بعضها من بعض ؛ ولذا يحتاج الى من يوجهه ويرشده حتى يعرف الحسن من القبيح ، والخير من الشر ، وبدلا من أن يأمره المدرس أو ينهاه يستطيع أن يوحى اليه بما يريد أن يوحى به اليه من الأخلاق والآداب ، فيوجهه الى الأخلاق الكاملة بطريقة عملية حتى تصبح عادة له •

فاميل روسو لم يطع قط ، لأنه لم يؤمر بما يستلزم الطاعة • ولم تراقبه أسرة ، ولم تؤدبه مدرسة ؛ فهو لا يعرف معنى الطاعة أو العصيان، لأنه لم يسمع من الأوامر أو النواهى ، ولم يشعر بسلطة غير سلطة الطبيعة ، ولم يدر أن هناك ارادة فوق ارادته ، وسلطة فوق سلطته ، هى سلطة الآباء والمربين ؛ فهو خاضع لقانون واحد هو قانون الطبيعة ، ولا يعرف سلطة أخرى سوى سلطة الطبيعة ، ولا يدرى أن هناك علاقة أخرى بين الأشياء غير علاقة الحاجة الملحة الى هذه الأشياء •

وهل نحن فى حاجة الى أن نخطىء روسو فى مبدئه ورأيه فى منع سلطة المربين من آباء ومدرسين ، وأمهات ومعلمات ؟ اننا نعتقد أن سلطة هؤلاء المربين سلطة طبيعية لابد منها ، كى يربى الطفل التربية التى ترمى اليها • ومن الواجب ألا يحرم الطفل هذه السلطة ، سلطة الأب الحازم ، والأم المهذبة ، والمدرس الحكيم ، والمدرسة الحكيمة ، ولكن روسو يريد أن يخالف فى كل شىء ، ويعارض فى البدهيات ، يريد ألا تكون هناك

---

(١) No moral authority

(٢) ارجع الى ما كتبناه عنها فى كتابنا (الاتجاهات الحديثة فى التربية) •

سلطة مطلقة للآباء والمدرسين ، مهما يكن هؤلاء الآباء والمدرسون من الحزم وسداد الرأى والحكمة والتفكير • فماذا يريد روسو ؟

انه يريد ألا يتدخل المربون والمربيات فى ارشاد الطفل من الناحية الخلقية ، وهو لا ينتظر منهم شيئا مطلقا فى التربية الخلقية ، انه لاينتظر من الأم المحبة لطفلها أن تفكر فى تربيته ، ولا يود أن يتدخل المدرس القوى الملاحظة فى أن يحث الطفل على القيام بأى عمل ينفعه • وهو بهذه النظرية ينادى أن يترك الطفل للطبيعة ، لا للمربين والمربيات ، مهما أوتوا من الحكمة والعطف • وهنا يبدو خطأ روسو ؛ فقد كان من الواجب أن يفرق بين أب وآخر ، وأم وأخرى •

كان من الواجب أن يفرق بين مرب حسن البصيرة ، ومرب طائش لا يدرى شيئا عن الطفل وتربيته ، ويفرق بين أم تعطف على ابنها ، وتفكر فى النهوض به وفى تربيته ، وأم حمقاء قد تضره ولا تنفعه ، فلم لا ينتفع الطفل بنصح أبيه وارشاد مدرسه ، وعطف أمه ومعلمته اذا عرفوا جميعا بالحكمة والحزم وحسن المعاملة ، والتفكير فى تربية الطفل تربية كاملة ؟

وليس لدينا ما يمنع من موافقة روسو على ابعاد الآباء والأمهات عن التدخل فى تربية الطفل اذا عرفوا بالطيش والحمق ، والقسوة وتقلب الخواطر ، كأن يأمروا الطفل بأشياء ويفعلوا ضدها ، ويأمروه بأوامر ثم يلغوها بغير سبب أو مقتض ، فيحار الطفل ولا يدرى ماذا يفعل ؟ وكأن يعاملوه اليوم باللطف واللين ، وغدا بالقسوة والشدة ! فالمربى الأحمق المتقلب الذى يتغير من وقت لآخر ، وينقلب من انسان الى وحش ، ومن التساهل الى الشدة ، ومن العدل الى الظلم بغير سبب — يجب ألا يتدخل فى تربية الطفل ، ولا يكون له أية سلطة عليه ، فنحن نوافق روسو فى هذه الناحية وحدها • وليس من الحكمة أن نحرم الطفل التربية الخلقية التى يكسبها من سلطة حازمة معروفة بالحزم ، تستخدم تلك السلطة بكل حكمة وحيطة • ولم نحرم الطفل سلطة مربيه ومربيته ما دام المربيان يتخذان الحكمة والحزم فى معاملته وتربيته ؟

هب طفلا أخطأ واغتصب لعبة أخيه الأصغر ، فهل هناك ضرر اذا أرشد بالحسنى الى خطئه ، وفهم أنه لا يحسن أن يغتصب لعبة أخيه ويعامله بهذه الطريقة ؟

هل هناك ضرر اذا سئل : ماذا يكون الشعور اذا أتى طفل أكبر

منه سنا وأخذ منه ما فى يده قسرا ، حتى يشعر الطفل بما فعل ، ولا يعود الى خطئه مرة أخرى ؟

فمثل هذا التدخل فى نظرنا ضرورى لارشاد الطفل وتربيته ؛ فكثيرا ما يرتكب الخطأ ويهفو الهفوة ، وهو لا يدرى نتيجة ما قام به من عمل • وفى هذه الحال يجب أن نفهمه الضرر والنتيجة ، ونرشده الى الصواب ؛ كى لا يقع فى الخطأ مرة ثانية •

ان روسو لا يوافقنا على هذا التدخل ، وهو ـ وان كان ينادى بعدم التدخل ـ يقول لنا فى موضع آخر من (اميل) :

« امنع حدوث الرذيلة ، وبهذا تكون قد فعلت ما يكفى القيام بالفضيلة » • وبهذا يريد أن يقول لنا : امنع الأسباب التى تؤدى الى ارتكاب الرذيلة ، وبمنع السبب يمنع المسبب • وقد قلنا فى كتابنا (روح التربية والتعليم) : « كما أن الوقاية خير من العلاج فى عالم الطب ـ فالمحافظة على الأخلاق خير من اصلاحها فى عالم الأخلاق » •

وفى موضع ثالث يقول : « اجتهد ألا يجد الشر والرذيلة سبيلا الى عقل (اميل) ، وبذلك تكون قد فعلت ما يكفى العلم والمعرفة » •

وهنا نعترض على روسو ونقول : هل منع الشر يكفى عدم ارتكاب الشر ؟ طبعا ان منع الشر لا يكفى ، ومن الواجب أن يعود الطفل العادات الحسنة ، والأخلاق الفاضلة ، حتى يعتادها ، فكما يجب أن تمنعه عن الشر والرذيلة يجب أن تعوده الخير والفضيلة • ويسرنا أن نقول : ان روسو رجع الى الصواب ، وهذب رأيه فى التربية الخلقية حينما قال فى كتابه الجديد هلويز (١) : « يجب أن تهذب الطبيعة •• يجب أن يعلم الأطفال أن يطيعوا أمهاتهم » • وبهذا الرأى الأخير عاد روسو الى الصواب، وقال بتهذيب الطبيعة ، وتعويد الطفل الطاعة ؛ اطاعة المربين •

والحق أن مناداة روسو بترك السلطة والتدخل فى تربية الطفل نقطة ضعف جوهرى فى طريقته فى التربية ، فاننا اذا قلنا بمراعاة ميول الطفل ورغباته ، وعدم القسوة عليه فى المعاملة ـ لا نقول بترك الحبل له على الغارب ، ولا نقول بعدم تدخل الآباء والمدرسين حينما يخطىء الطفل ؛ فالآباء والأمهات والمدرسات ـ عناصر من الطبيعة التى ينادى بها روسو • ولم نحرم على الطفل أن ينتفع بارشادات غيره من المربين ـ

---

(١) La Nouvelle Héloïse

حينما يحتاج الى ارشاد ـ كما ينتفع بارشاد نفسه بنفسه ؟ فى اعتقادنا أن الطفل يجب أن ينتفع بمواهبه وميوله ، كما ينتفع بآراء غيره ، ويفيد من تجارب أبيه وأمه كما يفيد من تجاربه ، ويفكر فى شعور غيره كما يفكر فى شعور نفسه ٠

بحوث كتاب (اميل)

ظهر كتاب (اميل) كما قلنا عام ١٧٦٢ م ، وكان له أثر كبير فى التربيـة ، أثر ليس لغيره من الكتب ، وسرعان ما انتشر فى أوربـا ، وترجم الى معظم اللغات الأوربية ، لأن روسو قد عد فى نظر المربين علما لعصر جديد فى التربية ٠ وقد ترجمـه المرحـوم عادل زعيتر الى اللغة العربية ٠ ولقد خرج روسو فى هذا الكتـاب عن الأنظمـة المألوفة فى عصره ، فبدأ النـاس فى فرنسـا يتشككون فى آرائه وأفكاره ، ورأت السلطة الحاكمة أنه خرج على المألوف من الأنظمة والتقاليد ، فأرادت أن تعتقله ، فخرج من فرنسا هاربا خوفا من الاعتقال والسجن ، خرج بعد أن أيقظ العقول من سباتها ، وشرح العيوب الشائعة فى التربية والتعليم بأسلوبه القوى المؤثر ؛ حتى شعر المفكرون فيما بعد بتلك العيوب التى نادى باصلاحها ، وأخـذوا يؤمنون بوجوب تغيير الأنظمـة التعليميـة والاجتماعية ؛ حتى تثمر التربية الثمرة المطلوبة ٠

وقد كان لتلك الآراء أثر كبير فى نفس «كانت» الفيلسوف الألمانى ؛ فأخذ يدرس (اميل) دراسة تعمق واعجاب ، حتى ترك رياضته اليومية المعتادة فى المشى ، ومكث فى بيته ليشبع رغبته ونفسه من آراء روسـو فى كتابة (اميل) ٠ وكان لكتابته أثر فى التربية والتعليم بألمانيا ، فقد انتفع المربون من الألمان بتلك المبادىء ، ونشروها فى بلادهم ، وخاصـة « كانت » و « بزداو » من فلاسفة الألمان ٠

وليس من السـهل أن نستخرج من (اميل) ما فيـه من نظـريات فى التربية ، فكثيرا ما يناقض روسو نفسه ، ولكنه كان ماهرا فى عرض آلام الطفولة ، وعيوب التربية بأسلوبه الجذاب ، وعباراته العذبة القوية ؛ فكان لهذا الأسلوب أثر كبير فى تشويق المربين والمفكرين الى دراسـة (اميل) روسو ٠

التحليل العام لكتاب اميل :

يتقسم هذا الكتاب خمسة أقسام :

الأول : يبحث عن الطفل والطفولة منذ الولادة الى الخامسة من العمر

الثانى : يبحث فى تربية الطفل من الخامسة الى الثانية عشرة من عمره ٠

الثالث : يبحث فى تربية (اميل) من الثانية عشرة الى الخامسة عشرة ٠

الرابع : يبحث فى تربيته من الخامسة عشرة الى العشرين ٠

الخامس : تنـاول زواج (اميل) وتربيـة البنت التى تصلح لأن تكون زوجا صالحة لاميل ٠

ولنتكلم عن كل قسم من هذه الأقسام الخمسة :

الفصل الخامس

الجزء الأول من كتاب (اميل)

تربية الطفل من ولادته الى الخامسة من عمره :

١ ــ لقد بين روسو فى هذا الجزء كيف يربى الطفل فى السنوات الأولى من حياته ، وقد عاب على الأمهات الضغط على جسم الطفل بالملابس المتنوعة بشكل يعوقه عن الحركة ، ويقيده فى حركاته ، ويحرمه الحرية فيها

٢ ــ رأى أن يؤخذ الطفل بعد أن يولد الى الريف ؛ ليعيش بين أحضان الطبيعة متمتعا بشمسها الجميلة ، وهوائها العليل ، وسمائها الصافية ، بعيدا عن المعامل والمصانع ، بعيدا عن المدينة المملوءة بالشرور والآثام ، وقد نصح بعدم تجمع الناس فى مكان واحد حتى لا يفسد الهواء ، فتنفس الانسان فيه جراثيم تضر غيره ممن معه ، وهو من بين جميع الحيوانات لا يمكنه أن يعيش كما تعيش قطعان الغنم ، فسكان المدن ضعاف الأجسام ، وسكان الريف أقوياء أصحاء ، يرى المدن قبورا للنوع الانسانى (Cities are the graves of mankind.) فأرسلوا أطفالكم الى الريف ، لتجددوا قواهم ، وليستعيدوا صحتهم التى ضعفت من الهواء الفاسد فى المدن المزدحمة بالسكان .

٣ ــ ان التربية الأولى التى يحتاج اليها الطفل تربية جسمية ؛ فعلى الأم أن تقوم بما يحتاج اليه الابن بفطرته من الملابس والغذاء ، وتدرك الفرق بين بكائه لأنه جائع ، وبكائه لأنه فى حاجة الى النظافة والاستحمام، وبكائه من غير سبب ؛ كى تستطيع أن تعالج كل حالة بما يلائمها ، فترضعه اذا كان جائعا ، وتنظفه اذا كان فى حاجة الى النظافة ، ولا تعيره التفاتا اذا كان يبكى بغير سبب !

وقد حث روسو فى الجزء الأول من اميل على العناية بالجسم والتربية الجسمية ، والرياضة البدنية ، فالعقل السليم فى الجسم السليم ، والعقل المريض فى الجسم المريض ؛ فالطفل الصحيح البدن طفل مطيع ، أما الطفل

النحيف العليل الجسم فعصبى ، كثير العناد ، سيىء الخلق • واننا نقول بما ينادى به روسو من العناية بالتربية الجسمية فى هذه المرحلة المبكرة من الطفولة ، حتى ينشأ الطفل قوى الجسم ، معتدل القامة ، سليما من الأمراض • فضعف الجسم يؤثر فى العقل ، كما أن قوته تؤثر فى العقل•

٤ ــ (الانسان حسن بفطرته) •

فعلى المربى أن يبعد كل شىء يقف فى سبيل رقى الطبيعة الانسانية، فالتربية فى نظره يجب أن تكون سلبية ، تمنع الأشياء التى تعوق نمو الطفل ، والأمور التى تؤثر فيه تأثيرا سيئا من أية ناحية •

٥ ــ يكسب الطفل فى هذه المرحلة لغة أبويه بالمحاكاة والمعاشرة ، فهو يحاكى ما يسمع وما يقال له ؛ وقد يعرف كثيرا من الألفاظ ولايدرك لها معنى ، وهذا ما يعيبه روسو ، وفى اعتقادنا أنه سيعرف المعانى والمراد من الألفاظ بالتدريج •

ويرى روسو أن الطفولة أهم أدوار الحياة فى التربية ، فكما يكون الطفل يكون الرجل ؛ فاذا عنينا بأطفال اليوم كونا منهم أقوى الرجال غدا • وكثيرا مانادى باعطاء الطفل كل حرية فى تحريك جسمه وعضلاته ، وفى ألعابه ، وهو ضد الرياضة البدنية المقيدة بنظم خاصة وحركات معينة فى الطفولة ، واننا نوافقه فى هذا الرأى كل الموافقة •

٦ ــ يرى روسو أن للأعمال اليدوية والرياضية البدنية الحرة أثرا كبيرا فى المحافظة على الصحة وتقوية الجسم ، وهى فكرة لا يجادل فيها أحد ، كما يرى أن معظم المعمرين الذين يعمرون طويلا فى حيـــاتهم هم هؤلاء الذين اعتادوا الحركة والرياضة والعمل ، وقاسوا كثيرا من التعب بعد العمل • وفى اعتقادنا أن الأعمار بيد الله ؛ وأن للنشـــاط والعمـــل والحركة أثرا كبيرا فى حسن الصحة • وقد عارض روسو فى اعطاء الأطفال الأدوية ، وفى الاعتماد على الطب والأطباء ، ونادى بأن الوقاية خير من العلاج ، وأن « الاعتدال والعمل خير طبيبين فى العالم » (١) •

واننا كذلك ننادى بالاعتدال فى كل شىء ، كما ننادى بالعمل ؛ ولكننا لسنا معه فى عدم الرجوع الى الطب والأطباء عند الحاجة ، وقد غلا فى عدم السماح لاميل بتناول شىء من الأدوية !

---

(١) «Temperance and work are the two best physicians in the world.»

٧ ـ تربية الحواس :

لقد ولد الانسان ولديه مواهب فطرية ، بها يستطيع فى يوم ما كسب المعلومات ، وليس لديه معلومات بالفعل حينما يولد ٠

وتبدأ تربية الطفل منذ الولادة قبل أن يقدر على التكلم ، وقبل أن يقدر على الفهم ، وفى الوقت الذى يعرف فيه والدته ويميز مربيته نقول : انه تعلم كثيرا ؛ فالطفل الرضيع يشعر بالسرور كما يشعر بالألم، فينظر بعينيه الى النور دائما ، ويحب النور ؛ وينبغى أن يتعود المكث فى الظلام كما يعود المكث فى النور ؛ كى لا يبكى اذا وجد نفسه فى الظلام ٠

٨ ـ يجب ألا يعتاد الطفل عادة ، فلا يحمل فى ذراعه أكثر مما يحمل فى ذراع آخر ، ولا يستعمل يده اليمنى أكثر من اليسرى ، ولايعتاد الأكل والنوم فى مواعيد خاصة ٠ ومعنى هذا أن نسمح للطفل بأن يأكل متى شاء ، وأن ينام متى رغب ، وأن تكون حياته غير منظمة ٠ ولاعجب ، فروسو ينادى بالرجوع الى الطبيعة ، والتربية الطبيعية ، فهو ضد النظام، وضد المواعيد ، وهو ممن يقولون باعداد الطفل للتمتع بالحرية ٠

وفى الوقت الذى يقول فيه بعدم تعويد الطفل أية عادة ـ يرى أن نعوده المكث وحده ليلا أو نهارا بغير مبالاة أو خوف ٠

وفى الوقت الذى يستطيع فيه تمييز الأشياء بعضها من بعض يجب أن نحسن اختيار الأشياء التى نقدمها له ، فهو بفطرته يحب كل جديد ، ويخاف كل شىء يجهله ، وكل شىء غير مألوف لديه ، فينبغى أن نعوده رؤية الأشياء الجديدة ، وعدم التأثر بها ؛ كى لا يخاف ، ولا يكون جبانا واننا نرى أن أطفال المدن الذين يربون فى بيئة راقية يخافون كل حشرة، وكثيرا ما يضطربون اذا رأوا جرادة تطير فى الحجرة وهم كبار ! أما الأطفال الريفيون فلا يخافون عنكبوتا أو جرادا ، فالرجل الفلاح والمرأة الفلاحة لا يباليان اذا قبضا على أية جرادة أو حشرة ٠

٩ ـ ان الطفل يريد أن يمس كل شىء يراه ، ويود أن يأخذ كل ما تقع عليه عيناه ، فلا تكن عقبة فى سبيله ، فمسه الشىء وأخذه اياه يساعدانه فى التعلم ، حتى يستطيع فيما بعد أن يميز الحرارة من البرودة ، والصلابة من الرخاوة ، والنعومة من الخشونة ، والخفة من الثقل ، ويعرف أحجام الأشياء وصورها ، وأشكالها وألوانها ٠ وهذه كلها دروس يتعلمها بنظره ولمسه الأشياء بيده وأصابعه ، واصغائه ، والموازنة بين الأشياء بعضها وبعض ٠

١٠ ـ ان الطفل فى المرحلة الأولى من حياته مخلوق ضعيف ، لا يمكنه أن يعبر عن نفسه الا بالصياح والبكاء ، وهو يشعر بما يحتاج اليه ، ولكنه لا يستطيع أن يقوم بما يحتاج اليه ؛ فهو فى حاجة الى من يساعده ممن يتصلون به ؛ فاذا ما أراد شيئا بكى حتى يجد من يطعمه أو يسقيه ، أو يقوم بشئونه • فمن دموع الطفل فى أثناء بكائه تبدو العلاقة بين الانسان والبيئة التى تحيط به ، واذا بكى الطفل عرفت أمه أنه غير مستريح ، وعرفت ما يحتاج اليه ، فاذا عجزت عن معرفة مايبكيه استمر يبكى ، وتساقطت الدموع من عينيه ، وأزعج من حوله ، فتحاول أن تسكته بهزه تارة ، والغناء له تارة أخرى ، حتى يسكت أو ينام ، وربما لا يسكت ولا ينام بعد تلك المحاولات الكثيرة ، فيبدو ضيقها ، وقد تهدده • واذا كانت مربيته قاسية فقد تضربه ولا ترحمه ! وربما يكون البكاء ناشئا عن ألم أو مغص فى المعدة ، فالطفل فى حياته الأولى يعتمد على أمه ، ودموعه تعبر عما فى نفسه من رغبات يبكى لتحقيقها والوصول اليها ، فيجب أن نحترس حينما يبكى ، حتى لا يعتاد البكاء بسبب وغير سبب ، وحتى لا يتحكم فينا ، ويجعلنا عبيدا له •

١١ ـ ينصح روسو باعطاء الطفل الحرية الحقة ، ومنحه الفرصة فى أن يعتمد على نفسه فى كل شىء يستطيع القيام به ، ولا يعتمد على غيره الا عند الضرورة •

١٢ ـ وفى تعليم الأطفال الكلام واللغة يرى أن نتسرع فى تعليمهم ، فهم يتعلمون بالمحاكاة ، وتتكون مجموعتهم اللغوية بالتدريج ، فيجب ألا نتعب أنفسنا بالتعمق معهم فى التخاطب والتحادث ، ولا نلقنهم كلمات لا يشعرون بالحاجة اليها ، ولا نتعب أنفسنا باصلاح ما يبدو فى كلامهم من الأخطاء اللغوية ؛ فهم سيتعلمون بالتدريج ، وسينطقون بمايسمعون• وفى الوقت الذى يتعلم فيه الطفل الكلام يتعلم فيه الأكل والمشى ، وهذا أول مظهر من مظاهر حياته •

١٣ ـ « الفقراء (١) ليسوا فى حاجة الى التعليم » •

هكذا قال روسو فى مقدمة كتابه « اميل » • وهو يقصد بهذا أنهم ليسوا فى حاجة الى نوع التعليم الذى يتعلمه الأغنياء ؛ ومع هذا فالتربية الطبيعية التى نادى بها روسو ينبغى أن تعد الانسان لجميع شئون الحياة ، من غير تفرقة بين الأغنياء والفقراء فى التعليم ، فالغنى قد يصبح فقيرا ،

---

(١) The poor have no need of education. : من مقدمة الجزء الأول من كتاب « اميل » •

والفقير قد يصبح غنيا ، فلا معنى لجعل التعليم مقصـورا على طبقة دون أخرى ٠

وقد اختار روسو تلميذه (اميل) من أسرة غنية ليكون منه رجلا ، وفى نظره أن الطفل الفقير يستطيع أن يصير رجلا بنفسه ولنفسه ؛ لهذا قال : « الفقراء ليسوا فى حاجة الى التعليم » ٠ أما نحن فنرى أن نعطى الفقير الفرصـة كما أعطيناها الغنى ، وأن يعلم كل منهما التعليم الذى يميل اليه ، وألا يكون الفقر عقبة فى سبيل تعليم الفقراء ٠ واننا نريد من تعليمهم ان يكونوا رجالا يقدرون قيمة الوقت ، ومعنى العمل ، وأداء الواجب ، وأن نكون منهم أعضاء ينفعون أنفسهم وبلادهم ، فهؤلاء الأطفال المساكين أبناء الأسر الفقيرة ــ من أبنـاء الانسـانية ، وفى حاجة الى من يدافع عنهم ، ويطالب بحقوقهم ، ويعمل لصالحهم ؛ فقد نجد بينهم نفوسا طاهرة ، وعقولا ذكية ، ولكنها مهملة لا تجد من يصلحها ، ويخرج ثمارها ، ويظهر ما يخفى فيها من نبوغ وعبقرية ، ومهارة وحكمة ٠

قد تظهـر فى الطفـل الفقير علامات الذكاء من الطفـولة ، ولكن ما الفائدة من ذكائه اذا أهملناه فى الوقت الذى ظهر فيه الميـل للعلم وحب التعليم ؟ اننى أشبه سد الطريق فى سبيل من يرغب فى التعلم من الفقراء فى الوقت الذى يشعر فيه بحب العلم والدراسة برجل أعطى طفلا قطعة من الخبز أو الحلوى ، فاستلذها الطفل ، فمد اليه يده يستزيده من فضله كى يشـبع نهمته ، فضربه على يده وقال له : اننى أعطيتك لقمة ، ويجب أن تكفيك هذه اللقمة ما حييت ، فاذهب الى حال سبيلك !

وقد أخطأ روسو فى اهمال حق الفقراء فى التعليم ، وقد نسى أن الفقراء أشد حاجة الى التربية والتعليم من الأغنياء ؛ فالأغنياء قد يجدون من وسائل التربية المنزلية ما يغنيهم عن التربية المدرسية ، ويستطيعون الاعتماد على ثروتهم فى تعليمهم وحياتهم ، ولكن الفقراء قد حرموا التربية المنزلية ، وليس لديهم شىء يعتمدون عليه ويساعدهم فى كسب العيش فى حياتهم ٠ لقد حرموا التربيـة المنزلية فيجب ألا يحـرموا التربيـة المدرسية ، لقد حكم عليهم بالفقر فيجب ألا يحكم عليهم أيضا بالجهل ، لقد حرموا المال فيجب ألا يحرموا العلم !

وليست هذه بالهفوة الأولى لروسو ، فله كثير من الهفوات ٠ فاذا لم يستطع الآباء أن ينفقوا على أبنائهم وبناتهم فى سبيل تعليمهم فمن الواجب على الدولة أن تقـوم بنفقاتهم التعليمية ٠ واذا لم نستطع أن نوجد المدارس الكافية لهم ففى الاستطاعة أن نعلمهم ولو فى الخيـام ،

فتعليم الشعب خير وسيلة لترقيته • فاذا أردنا رقى مصر وتقـــدمها والنهوض بها ، وتحسين مستوى المجتمع من كل ناحية من النواحى ـ فليس أمامنا سبيل سوى التربية والتعليم • ولا ينكر أحد الفرق الكبير بين الجاهل والمتعلم ؛ فالتعليم هو الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى الأمة ، وتحسين حال الفقراء منها ، وجعلهم أسعد حالا ، وأقوى صحة ، وأحسن نظاما •

ان التربية واجبة لتنمية عقول الفقراء واسعادهم • وتعميم التعليم هو الأساس القوى الذى يجب أن يفكر فى تنفيذه كل من فى قلبه ذرة من الحب والاخلاص لمصر • وليس من الصعب تحويل الأميين الى متعلمين ، والنهوض بالجهلاء الى طبقة العلماء ، فبالمدارس وتعميمها نستطيع أن نقضى على الأمية السائدة فى البلاد فى بضع سنوات ، وفى بضع سنوات فقط • وان أرقى أمة هى التى تتخذ أحسن الطرق فى التربية والتعليم•

ولا ينكر أحد أن أرقى الأمم هى الأمم المتعلمة التى توجب على كل فرد أن يتعلم ، وتهييء له الفرصة التى بها يتعلم التعليم الذى يلائمه • التعليم الذى يقود الشخص الى عيشة راضية ، وحياة كاملة ، التعليم الذى يؤدى الى الكمال ، فلا خير فى علم لا يؤدى الى الفضيلة •

فالتعليم خير منحة يمكن أن يمنحها الفقراء • والفقير فى حاجة الى العلم ، لأن حياة الجهل حياة الموت ، والعلم وســـيلة الحياة ، وهو الجناح الذى نستطيع أن نطير به الى الســماء • قال (بسمارك) بعد الحرب السبعينية :

« لقد غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة ؟ » وفى هذا العهد السعيد قد جعلنا التعليم عاما ، شـاملا فقـراءها وأغنياءها وصار التعليم الجامعى والعالى بالمجان من غير تفرقة بين هؤلاء وأولئك ، وعنينا بالفقراء ، لأنهم العمود الفقرى الذى تعتمد عليه الأمم • ونحن الآن نعنى بالفقراء لأننا نريد أن تتبوأ مصر مركزها اللائق بها بين الشعوب الراقية ، فان العلم ســبيل الغنى والرقى ، وهو أكبر وســيلة لرفع المســتوى الصحى والاجتماعى ، والخلقى والعملى والاقتصادى ، ولو علمنا الأمة تعليما حقا لارتفع مستواها ، وقضينا على الجهل والفقر والمرض •

يجب أن نعلم الأمة حتى يقل الفقراء منها ، ولا نسـمح للأطفـال بالعمل الا بعد التعليم ، يجب أن نعلمهم حتى نعدهم للكسب ، ولحيـاة أحسن من الحياة التى يعيشونها غير متعلمين •

ويجب أن تعلم الأمة علم اليقين أن كل طفل سواء أكان فقيرا أم غنيا قد حصل على فرصة عادلة ، هى فرصة التعليم الذى يؤدى الى مستقبل سعيد ، وحياة طيبة ، وفى اعتقادنا أنه اذا صح أن نقول للرجل الغنى الذى لا أطفال له : « يجب أن تدفع ضريبة للتعليم المجانى » فمما لاريب فيه أن تقول للأب الفقير الذى لديه أطفال : « يجب أن ترسل أبناءك وبناتك الى المدرسة » ٠

ان العالم سائر بنجاح نحو التفكير فى الانسانية ، ولا وسيلة لانقاذ الناس من شر الجهل والرذيلة الا بالعلم ، فالعلم هو السبيل الوحيد لسعادة الشعوب والأمم ، ولم يكتب « توماس جيفرسون » الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية أثمن من هذه الكلمات :

« ان التعليم الذى سيعم كل طبقة من أبناء شعبنا من أغناهم الى أفقرهم سيكون أول شىء يتعلق بالجمهور الذى أحبه ، وأفكر فيه ، ان الشعب الذى ينتظر أن يكون حرا وجاهلا فى وقت واحد شعب ينتظر مالم يحدث ولن يحدث ! فحيثما تكن الصحافة حرة ويكن كل انسان قادرا على القراءة والكتابة تكن الديمقراطية آمنة ! » ٠

وان نظرة واحدة الى تاريخ العالم تبرهن لنا على أن كثيرا من العظماء والأدباء والعلماء والأبطال ، من قادة الفكر والعمل كانوا فقراء ، فتعلموا وثابروا حتى وصلوا الى أوج العظمة والرفعة ٠ وقد ذكرنا فى كتابنا : « التربية والحياة أو كيف نصلح التعليم فى مصر ؟ » ـ الكثير عن العظماء من أبناء الفقراء ومنهم : أبو نصر الفارابى والشيخ محمد عبده ، وعلى باشا مبارك ، وصمويل جونسون ، واللورد ماكولى ، وشارلز دكنز ، وابراهام لنكولن ، ورمزى مكدونالد ، واللورد بركنهد ، والمستر روبرت هوفر ٠

ان التعليم حق توجبه الانسانية ؛ فكما أن من حقوق الانسان الحياة والحرية ـ فكذلك التعليم حق من حقوق الانسانية ، يجب ألا يختص به فرد دون آخر ، وأن يعم الأغنياء والفقراء ٠ بنين وبنات ، مدنيين وقرويين ، بحيث تتاح فرصة التعليم لكل مصرى ومصرية ؛ فالتعليم هو الحق الأول الذى توجبه الانسانية ، وتستدعيه المدنية ، ويتطلبه حق المساواة بين الأفراد فى الفرص والتعليم ؛ فليس من الانسانية أن يعلم هؤلاء الأفراد فى عصر الاحتلال لأنهم أغنياء ، ويحرم هؤلاء التعليم لأنهم فقراء ، ولو اقتدينا ببعض الامم الراقية فى اتاحة الفرصة للأذكياء من الفقراء فى التعليم بأن تتولى الدولة الانفاق عليهم فى جميع مراحل

التعليم (١) ، على أن يردوا لها ما أنفقته عليهم مدة دراستهم بعد الابتداء في الحياة العملية بخصم ٥٪ من رواتبهم مثلا كل شهر ـ لقمنا بأكبر عمل تقتضيه الانسانية ، وتحتاج اليه مصر فى العصر الحاضر ، فان مصر وان كانت فى حاجة فهى فى حـاجة كبيرة الى تعميم التعليم ، فى أقل وقت ممكن ، فبالتعليم والتعليم وحده يمكن اصلاح مصر من جميع وجوه الحياة، فنحن لا نقول فى فتح مدرسة اغلاق سجون فحسب بل فى فتحها تتطلب حياة كاملة بأجلى معانيها ، فى الحياة المصرية ، والمجتمع المصرى ، وفى سنة ١٩٦٢ قرر الرئيس المصلح جمال عبد الناصر أن يكون التعليم الجامعى والعالى بالمجان فى جميع الكليات والمعاهد العـالية ، كى يستطيع أبنـاء الفقراء أن ينتفعوا بذكائهم ومواهبهم ، ويصلوا الى أعلى الدرجات العلمية والأدبية والفنية بمجهودهم ، وتنتفع الأمة بهم ٠

حقا سيبارك الله الشـعب الذى يزين أوديتـه وقراه بالمدارس ، سيبارك الله الجيل المثقف ، وسيبارك الله الأغنياء الذين يخصصون شيئا من ثروتهم للتعليم ، فيحيون به أرواحا أماتها الجهل ، وقتلتها الأمية ، وقضى عليها الفقر ٠ ولا ضريبة أكثر شرعية من الضريبـة التى توضع وتجبى لازالة الجهل ، وانارة العقول ، واحياء الأرواح ، وتكوين رجال ونساء يخدمون بلادهم وأنفسهم ٠

ان مصر قد مضى عليها سـنوات ، وسـنوات كثيرة وهى تصرخ وتستغيث بمن يعمم التعليم فيها ؛ ولكن هل تجد من يغيثها وينقذها ، ويداويها من دائها ، داء الجهل الذى طالما اشتكت منه ، وكثيرا ما تألمت منه ؟ نعم ستجد أبناء بررة ، أوفياء مخلصين ، يتألمون لألمها ، ويشعرون بشعورها ، ويحققون رغبتها ، وينقذون الفقراء بها من شر الجهل المنتشر فيها ٠ اذهب الى القرى والأحياء الوطنيـة فى كل مدينـة من المدن ، ثم انظر فى كل طريق تجد بعض الأطفال الفقـراء فى سـن التعليم أهملوا ليتربوا فى الطرق ، أو يسـألوا النـاس ، فاذا ما كبروا وبلغوا مبلغ الرجال اتخذوا النشـل والسرقة والاجـرام حـرفة لهم ، وفى النهـاية يسجنون ! ولو قمنا بتعليمهم تعليما حقا لأنقذناهم من الفقر وذل السؤال واقتصدنا كثيرا من الأموال التى تنفق على المحاكم والسجون ! لو علمناهم

---

(١) هذا ماكتبته قبل الثورة ، أما اليوم فبفضل الرئيس المحبوب جمال عبد الناصر يجد أبناء الفقراء وبناتهم كل فرصة للتعلم فى جميع مراحل التعلم بالمجان ، ويعطى المتازون فى الجامعة مكافآت شهرية تساعدهم فى معيشتهم ٠ وهذه حسـنة كبيرة من حسنات رئيسنا البطل العظيم ٠

لقلت السجون ، وقل عـدد المحاكم ، فهل نلومهم أو نلوم أنفسـنا لأننا أهملناهم ، ولم نعلمهم التعليم الذى يلائمهم ، ويعدهم لأن يعيشوا عيشة راضية ؟

يجب أن يأخذ التعليم قسطه من العناية فى نظر الشـعب ، وأن يتيقن كل منا أن التعليم يحل أرفع مكان وأكبر مركز فى عقـول الأمة يجب أن يعمل كل وطنى على أن ينال كل فقير نصيبه الوافر من التعليم ؛ فعلى الأغنياء واجب مقدس هو التبرع بنفس راضية لتعميم التعليم ، وعلى الفقراء من الآباء واجب آخر لا يقل عن واجب الأغنياء ، هو أن يرسلوا أبنـاءهم الى المدارس ليتعلمـوا ، وأن يحملوهم على المواظبـة لينتفعوا بالدراسة ٠

ان مصر تنتظر من كل مصرى أن يقوم بالواجب عليه للقضاء على الأمية ، ولنشر العلم ، وتعميم التعليم ، بين الأغنياء والفقراء على السواء ٠

وقد جاهد الشعب كثيرا فى سبيل انشاء المدارس ، وجعل التعليم فيها بالمجان ، حتى تحققت رغبته ، وتقرر فى هذا العهد السعيد أن يكون التعليم فى جميع مراحله بالمجان ، حتى التعليم العالى والجامعى ٠

ولما كانت الكثرة فى القرى والأرياف لا تقدر قيمة التعليم وجب أن نجبرهم على تعليم أولادهم ، ومن حيث ان روح حب الخير والاحسان التى كانت منتشرة فيما مضى بين الأغنياء فى مصر يوم أن كان كثير من محبى العـلم والدين يقفـون أوقافا لنشر العلم والتعليم بالأزهـر ، ومدارس الأوقاف ـ قد أصبحت معدومة تقريبا فلا وسـيلة للحصـول على المال الكافى لنشر التعليم الا فرض الضرائب ٠ ونحن على ثقة بأن الأمة متطلعة الى التعليم ، وهى تقابل هذا الأمر بالثناء والتشجيع ٠

واذا قلنا بتعليم الفقراء التعليم الابتدائى بالمجان ـ فاننا نقـول يجب أن يعلم الأذكياء منهم التعليم الثانوى ، ثم التعليم العالى ولو بالدين على أنفسـهم ، حتى ننتفع بذكائهم ومواهبهم ٠ ولقـد اعترف الراحـل « المستر تشرشل » فى كتابه « المعاصرون العظماء » (١) بأن من الواجب اعطاء الفرصة للأذكياء من أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة ، فى كل سبيل من سبل التعليم والحياة ٠ وانه يقول : « اننا لا ندرى ماذا كنا نفعل لو لم يظهر من بيننا أمثال هؤلاء العظماء من أبناء الفقراء : كاللورد بركنهد ، والمستر رمزى مكدونالد وغيرهما من عظماء انجلترا ؟ » ٠

---

(١) Great Contemporaries

اننا لا نؤيد الرأى القائل بأن التعليم العالى للفقراء خطر على المجتمع ، ولا نؤمن بمبدأ أولئك المحبين لأنفسهم ، القائلين بحرمان الأمة مجهود العنصر العامل المثابر فيها ، ان كان هناك من يقول بحرمانهم التعليم العالى

ان الأمة بأفرادها ، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء ؛ فاذا وقفنا بالأذكياء من أبناء الفقراء عند باب التعليم الثانوى أو العالى كنا حجر عثرة فى سبيل تقدم الأمة ورقيها. ان المجتمع يحكم عليه بالمدنية أو التأخر بالنظر الى مستوى الفقراء فيه . ولا يعد المجتمع راقيا الا اذا فكر فى حقوق هذه الطبقات الفقيرة من المصريين .

ان الفقراء يشعرون بما يشعر الأغنياء ، ويحسون ما يحسون ، ولهم من الحقوق ما لهم ، وعليهم ما عليهم . فاذا شجعنا الأغنياء على التعليم العالى وجب أن نشجع الأذكياء من الفقراء عليه ، ولا فرق بين الغنى والفقير الا أن ذاك غنى وهذا فقير . ولا عيب فى الفقير الا أنه فقير ، ان كان الفقر يعد عيبا !

يجب أن نحل لهم ما أحل لغيرهم ، ولا نحرم عليهم ما أحل الله لغيرهم ، فالناس سواسية كاسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

اننا لا نريد أن نغلق أبواب التعليم العالى فى وجوه الطبقات الفقيرة، ونفتحها فى وجوه قوم ربما لا يفكرون فى العمل ، لأنهم لا يشعرون بالحاجة اليه ، ولا ينظرون الى أن الحياة هى العمل ، والعمل هو الحياة .

ان الأمة التى تريد النهوض لا يمكنها أن تعتمد على الطلبة الأغنياء الذين يرسبون العام بعد العام ، ولا ينتفعون بأوقاتهم ، ولا يتعظون اذا قلت لهم : ان الوقت هو الحياة ، والحياة قصيرة ، ويجب أن تملأ بالأعمال الجليلة ، والآثار الخالدة . قد يهزون أكتافهم اذا أرشدتهم وقلت لهم : أفيدوا من أوقات فراغكم ، وحافظوا على دروسكم ، وقوموا بأداء واجباتكم، وواظبوا فى حضوركم ؛ فان النظام هو الحياة ! انهم قد يسخرون فى أنفسهم اذا قلت للمهمل منهم : انك لم تخلق عبثا ؛ بل خلقت لتعمل ، وتقوم بعمل جليل تتركه أثرا حسنا ، وذكرا جميلا من بعدك .

أما الفقير فيلاحظ عليه فى التعليم العالى أنه مثل للمواظبة وأداء الواجب ، والعمل والنشاط ، يتقبل كل نصيحة أو ارشاد مع الشكر والتقدير بلسانه ، وعلى صفحات قلبه. اذا قرأنا التاريخ وجدنا أن العظمة

كثيرا ما تنمو فى الأكواخ ، وتجد تربة صالحة بين الطبقات الفقيرة والمتوسطة ٠

يجب أن نعلم الأذكياء من الفقراء التعليم العالى كى لا يقبر ذكاء طفل مصرى ، فقد نجد من بينهم رجلا عظيما كابراهام لنكولن ، أو مصلحا مثل الشيخ محمد عبده أو (دكنز) ، أو مثلا للعظمة العقلية مثل سعد زغلول و (اللورد ماكولى) أو مثلا للأدب مثل المنفلوطى و (صمويل جونسون) ، أو كاتبا عالما مؤرخا مثل (هـ٠ج٠ ويلز) ، أو كاتبا روائيا عظيما مثل (جورج برناردشو) ، أو كاتبا قصصيا مثل (أرنولد بنت)

يجب أن يعطى الأذكياء من أبناء الفقراء الفرصة ليتعلموا التعليم الابتدائى ثم الثانوى ثم الجامعى ، حتى ينالوا نصيبهم من الحياة ، وتنتفع الأمة بمجهودهم وعزيمتهم وصبرهم ٠ لقد حرموا العناية المنزلية فيجب أن نعوضهم ما فقدوه ـ بالتربية المدرسية العلمية اذا سمحت لهم مواهبهم واستعداداتهم ٠ واذا أردنا رقى المجتمع المصرى وتحسين مستواه الصحى والاجتماعى والخلقى ، فليس أمامنا سبيل سوى التربية الحقة ، والتعليم الصحيح ، فان انصاف المتعلمين خطر على أنفسهم وعلى الأمة والنظام الاجتماعى ، ومهما يكلف التعليم من النفقات فهو السلاح الوحيد لتحسين مستوى الشعوب ٠

يجب أن نشجع الأذكياء أينما وجدوا ، ونفتح السبل أمامهم ، ولا نضع أية عقبة فى سبيلهم ٠ واذا وجد منا طائر وابتدأ يطير وجب أن نساعده على الطيران ، ولا نقص أجنحته بالنقد أو عدم التشجيع ٠

ان الفقير الذكى اذا تعلم تعليما جامعيا ارتفع مركزه ومستواه فى الحياة ٠ ومن مصلحة الشعب أن يرتفع مستوى المعيشة والحياة الصحية والمساكن بين الفقراء ٠ فمن حياة الفقراء ومعيشتهم يمكن الحكم على مستوى الأمم ٠ ولا تزال انجلترا تعد من العار عليها أن يكون بين أحياء السكان فى الناحية الشرقية من لندن أحياء قذرة ، ضيقة الطرق !

اننا نريد تشجيع الأذكياء من أبناء الفقراء على التعليم العالى والجامعى ، لكى ننتفع بذكائهم فى النهوض بكل مرفق من مرافق بلادنا ، فعلى أكتاف الفقراء وهم الكثرة تكون نهضة الأمة ٠

ولو استطعنا أن نكلف مفتشى التعليم الابتدائى اختيار أذكى اطفال المدارس الابتدائية بكل امانة واخلاص ، ووجدنا ـ مثلا ـ فى كل مدرسة

طفلا واحدا ذكيا ، لتكون لدينا أطفال أذكياء بعدد المدارس الابتدائية فى جميع أنحاء الجمهورية العربية المتحدة ٠

اننا لو أخذنا هؤلاء الأطفال الأذكياء وألحقناهم بالمدارس الابتدائية بالمجان ، أو أنشأنا مدارس خاصة بهم تدعى مدارس الأذكياء ، وتعهدناهم بالتربية والتعليم الى آخر مرحلة ممكنة من التعليم العالى والجامعى لتكون لدينا ذخيرة كبيرة من شبان تستطيع مصر أن تنتفع بمواهبهم وذكائهم ، ومقدرتهم وكفايتهم فى شق طريق الحياة ، والنهوض بها الى مستوى أرقى الأمم المتحضرة ٠ وعلى أكتاف هؤلاء الذين لا يعتمدون على شىء سوى ذكائهم ومواهبهم الفطرية ، ومقدرتهم العلمية يمكننا أن نعيد مجد آبائنا الأقدمين ٠

وان من يوفقه الله لتنفيذ هذه الفكرة يقوم بأداء أكبر خدمة لترقية الشعب ٠

وبعد ٠ فنرجو أن يأتى اليوم الذى يعمم فيه التعليم بمصر ، وتصير نسبة المتعلمين مائة فى المائة ، لنحافظ على حاضرنا ؛ ونعيد ماضينا المجيد أيام قدماء المصريين ، والحضارة المصرية القديمة ، وننهض بمستقبلنا ٠

ولله در المرحوم شوقى بك حيث يقول فى قصيدة له :

هل علمتم أمة فى جهلها ... ظهرت فى المجد حسناء الرداء ؟
باطن الأمة من ظاهرها ... انما السائل من لون الاناء
فخذوا العلم على أعلامه ... واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقرءوا تاريخكم واحتفظوا ... بفصيح جاءكم من فصحاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما ... خلقت نصرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فان ... هى ضاقت فاطلبوه فى السماء !

وان كلمتى التى بها أرفع الصوت عاليا هى : التعليم هو الوسيلة الوحيدة لرقى الأمة ٠ فعلموا الأمة جميعها : فقيرها وغنيها ، والتقطوا الأذكياء من فقرائها ، وعلموهم فى جميع مراحل التعليم ؛ حتى تتبوأ مصر مكانها اللائق بها تحت الشمس ٠ علموا الأمة ٠ علموا الأمة ٠ علموا الأمة (١)

---

(١) ارجع الى كتاب « التربية والحياة ، أو كيف نصلح التعليم فى مصر ؟ » للمؤلف ٠

الفصل السادس

الجزء الثانى من كتاب (اميل)

تربية اميل من الخامسة الى الثانية عشرة من عمره :

١ ــ فى هذه المرحلة من الطفولة يستطيع (اميل) أن يتكلم مع غيره ، ويتحادث معه ، ويمكنه أن يسأل ، وأن يجيب اذا سئل ، ويعبر عما فى نفسه من الأفكار والمعانى بعبارة محدودة · وحينما يبدأ الطفل التكلم يقل صياحه وبكاؤه ، وهذا شىء فطرى ؛ فالبكاء هو اللغة الأولى للطفل ، وبتعلمه التكلم تحل اللغة الكلامية محل البكاء ·

٢ ــ يجب أن نسمح للطفل باللعب ، والتمتع بلعب الطفولة ؛ حتى يرضى رغباته وميوله بالألعاب الحرة التى يميل اليها ، كى تنمى قواه ، ويتمتع بالحرية · وبدلا من أن يختنق بالهواء الفاسد فى المنزل ينبغى أن يؤخذ كل يوم الى الحقول ليجرى ويمرح ويلعب ·

٣ ــ من الحكمة أن تقلل الأوامر بقدر الاستطاعة ، ولا تعمل للطفل العمل الذى يستطيع القيام به · وفى اعتقادنا أنه من الواجب أن نضغط على الطفل اذا اقتضت الحال ذلك ، وأن نتدخل فى عمله عند الضرورة · وحينما يستطيع أن يعتمد على نفسه يكون فى غنى عن مساعدة غيره له·

٤ ــ يرى روسو أن أهم شىء فى هذه المرحلة أن يعنى المربى بتربية حواس (اميل) ، بتربية سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه ، بأن يستعمل هذه الحواس ، وينتفع بها كل الانتفاع ؛ فان فى تربيتها تربية للعقل كما يقول علماء النفس اليوم : قال روسو : « ان أيدينا وأقدامنا وأعيننا أول من يعلمنا الفلسفة » ·

والحق أننا بالعمل والحركة واستعمال الحواس نربى العقل ، وندرك العلوم والمعارف ، ولقد انتفع المربون من بعده بهذا المبدأ ، فعنوا بتربية الحواس ، وبخاصة الدكتورة منتسورى الطبيبة الايطالية ، فطريقتها

مؤسسة على تربية الحواس ، ولعبها مبنية على تربية الحواس ، ففى تربيتها تربية للعقل ٠

٥ ــ اجتهد أن تحفظ الطفل من الأمور القبيحة ، وتبعد عنه كل شيء يؤدى الى الشر وارتكاب الخطأ ، ومعنى هذا أنه يجب ألا يعطى الطفل فرصة يسمع فيها أو يرى ما لا ينبغى أن يسمعه أو يراه ، فالمحاكاة نزعة فطرية لدى الطفل قد تحمله على أن يحاكى الخطأ ، فيرتكبه من غير قصد ٠

٦ ــ يجب أن تقصر التربية فى هـــذه المرحلة على الاشـياء التى يستطيع الطفل أن يفهمها ويحس بها ٠ وأكثر المواد مناسبة للطفل فى هذا الدور من الحياة القياس ، والرسم ، والتكلم ، والغناء ٠ أما الكتب فى هذا الوقت فيرى روسو أنها تضر الطفل ولا تنفعه ، فالتربية فى هذه المرحلة فى نظر روسو تربية سلبية ٠ ومعنى كونها سلبية ألا يلقن العلوم والمعارف ، والأخلاق والفضائل فى وقت لا يستطيع فيه أن يدرك هـذه العلوم وهذه الفضائل ٠ وليس لدى روسو ما يمنع من تربية حواس الطفل فى هذه المرحلة ، وكسب المعلومات بنفسه عن طريق اسـتعمال الحواس ٠ وبهذا المبدأ خالف روسو من سبقه من المربين الذين يعتمدون على شحن أذهان الأطفال فى الصغر بتلقينهم المواد ، وتحفيظهم العـلوم عن ظهر قلب ، فى وقت لا يستطيعون فيه فهم ما يلقنون أو يحفظون ٠

وقد بلغت به الدرجة الى أن يحرم على (اميل) القراءة وتعلمها بين الخامسة والثانية عشرة خوفا من أن تحرمه اللعب والتمتع بالحرية فى أثناء الطفـولة ٠ ولو توسط روسو وقال بتعليم مبـادىء القراءة والكتابة ، ودراسة المواد التى يميل اليها ، والتى تلائم الطفولة ، من الأشياء المحسة التى تحيط بالطفل وبيئته ــ لتجنب كثيرا من نقد المربين ٠

ولا تأمر تلميذك بأن يفعل أى شيء ، لا تأمره بفعل شيء مطلقا ، ولا تدعه يظن أن لك أية سـلطة عليـه ، دعه يعلم أنه ضعيف ، وأنك قوى ، وأنه فى حاجة اليك ، دعه يعلم هذا جيدا ويشعر به ، دعه يشعر من البدء بأن الطبيعة قد وضعت على عاتقه عبئا ثقيلا هو أنه محتاج الى غيره ٠

٧ ــ فى هذه السن يتعلم (اميل) الأخلاق والآداب بالمحاكاة ، محاكاة من يتصلون به من أب وأم ، وأخ وأخت ، وصديق وصديقة ٠ سيتعلم الأخـلاق والآداب عرضـــا بطريقة عمليـة ، لا بطريق الوعظ والارشاد ، والبحث والدراسة ٠ واننـا نتفق معه على أن تعليم الأخلاق

يكون بالمثل الحسنة التى يراها الطفل أو يسمعها فى الأخلاق والآداب ، أما الدراسة الخلقية النظرية فى الطفولة فلا نقول بها ، لأنها لا تلائمه فى هذه المرحلة ٠

ويرى روسو ألا نعلم الطفل هذه العبارات الجوفاء فى نظره ، وهى « من فضلك » و « أرجوك » الخ ظنا بأننا اذا عودناه هـــذه العبارات استعملها فى ضدها ، فاذا قال « أرجوك » فقد يريد « آمرك » ٠ ولكن من يوافق روسو على هذا ؟ ان الطفل يجب أن يعود الأدب من الصغر ، وأن يقول : « أشكرك » اذا قدمت له ما يوجب الشكر ، ويقول : « أرجوك ومن فضلك » اذا طلب منك شيئا ٠ و « أنا آسف » اذا حدث منه مايوجب الأسف ٠ واذا لم يدرك المراد منها وهو طفل فسيدركه فيما بعد ٠ هذا هو اعتقادنا ٠

يجب أن تحذف من معجم الطفل تلك الكلمات : « أمر ٠ طاعة(١)٠ واجب ٠ اجبـار ٠ ضرورة ٠ عجز ٠ محال » ، فالأطفـال فى الصغر لا يستطيعون ادراك هذه الأشياء ، ولايمكنهم أن يكونوا فكرة عن العلاقات الاجتماعية (٢) ، والشئون الخلقية ، فيجب أن نتجنب بقدر الاستطاعة استعمال الكلمات التى تعبر عن هذه الأشياء خوفا من أن يتأثر بها الأطفال، ولا يمكننا فيما بعد أن نتخلص منها ٠ فالطفـل لا يفهم معنى خطـأ ، ولا يدرك معنى رذيلة ، ولا يفهم معنى جائز أو مستحيل ، فهذه أمور معنوية لا يستطيع ادراكها ولا يتأثر بها ، فدعه ليرى العالم المادى كالعالم المعنـوى حتى يصغى اليك ، فانه لا يتأثر بالمعنـــويات ، ولكنه يتأثر بالمحسات ٠

أتعرف الطريقة التى بها تجعل طفلك شقيا ؟ هى أن تعوده الحصول على كل شىء يريده (٣) ٠ ومعنى هذا أنك اذا أجبته الى كل ما يرغب زادت رغباته ٠ وقد يأتى يوم يطلب فيه المحال ، وتضطر فيما بعد الى رفض رغباته مجبرا ، وهو لا ينتظر منك هذا الرفض ، ويتألم كل الألم ٠ واذا عودته أن تحقق له كل مايطلب فقد يطالبك بهدم البيت ، أو بوقف القطار ، وكلاهما محال ٠ فاذا لم تحقق له رغبته ملأ الجو بكاء وصياحا ، ورفض الاصغاء الى أى مخلوق لأن رغباته لم تنفذ فى الحال !

---

(١) Command, obey, duty, compulsion, necessity, inability and impossibility

(٢) Social relations

(٣) To accustom hm to get everything he wants.

واذا كان الطفل نحيفا سريع التأثر بكى لأقل سبب ، وبغير سبب• فلا تشغل نفسك بهذا البكاء ، ولا تقرب منه مادام يبكى • فاذا ماوقف عن البكاء فاجر اليه فى الحال • واذا وقع على الأرض أو صدم بالحائط ، أو أصابه رعاف أو خدش فى أصبعه فاهدأ ، واضبط شعورك ، ولاتتحرك، فان جريك اليه يخيفه ، وتأثرك يزعجه ، فما حدث قد تم وانتهى ، ويجب أن يحتمله • ولا تظهر له قلقا كى لا ينزعج ويزداد خوفه ، فتألمه من الرعاف أو الجرح أو الخدش أقل ضررا من شدة الخوف والاضطراب ! ففى هذه السن يتعلم الأطفال الدروس الأولى فى الشجاعة ، وبالثبات والهدوء وعدم الاضطراب من الآلام الخفيفة يتعلمون بالتدريج احتمال الآلام الكبيرة •

ان أول درس ينبغى أن نتعلمه هو أن نتعود من الطفولة احتمال الألم ، وبدلا من أن يترك الطفل دائما فى المنزل حيث الهواء الفاسد يجب أن يؤخذ كل يوم للرياضة فى الهواء الطلق فى الحقول أو الحدائق ، حيث يستطيع أن يجرى كما يشاء ، ويلعب ويرمح كما يريد • واذا وقع على الأرض مائة مرة فى اليوم فذلك خير له ، لأنه سرعان ما يتعلم كيف يقوم ويمسح ركبته ، ويجرى ويلعب كما كان ، فان السرور بتركه حرا يعوضه من الألم الذى يشعر به حينما يقع على الأرض •

٨ ــ يجب أن يعد الطفل طفلا :

اذا بحثنا عن الوفيات بين الأطفال وجدنا أن كثيرين منهم يموتون فى طفولتهم ، ولا يصلون الى مرحلة البلوغ أو المراهقة أو الرجولة ، والسبب فى هذا هو الجهل بالطفل والطفولة ، وعد الطفل رجلا ، وسوء معاملته فى اللبس والغذاء • فماذا نقول فى تلك التربية التى تضحى بحاضر الطفل فى سبيل مستقبل غير موثوق به ؟ انها تربية كلها قسوة ووحشية ، اننا نسيطر على الطفل بكل وسيلة ، ونجعل حياته الأولى كلها شقاء ، كى نعده لسعادة موهومة ربما لا يعيش حتى يتمتع بها • وأوقات الطفولة بدلا من أن تقضى فى مرح ولعب وسرور تقضى فى ضغط ومضايقات واستعباد وشدة لا مبرر لها ، وتقضى فى بكاء وعقاب وتهديد ، فالطفل محمل بأحمال ثقيلة ، مقيد بكل القيود ، وهو معذب بالتهديد والاستعباد •

« فيأيها الانسان كن انسانا »(١) أى كن انسانا مع كل انسان ،

---

(١) Man ! be humane.

ومع كل جنسية ، وفى جميع الأحوال • كن انسانا مع من يتصل بك من المخلوقات • ولا خير فى الحكمة التى تتظاهر بها اذا لم تصحب بالانسانية : « فأحب(١) الطفولة ، وشجع(٢) لعبها ، ومسراتها ، وغرائزها المحبوبة » •

ان روسو ينادى بحب الطفولة ، ومعاملة الأطفال بعطف ورحمة ، والتفكير فى لعبهم ومسراتهم ، وغرائزهم وميولهم ، فنسمح لهم باللعب ، ونسمح لهم بالحركة ، ونسمح لهم بالسؤال والقفز والوثب والجرى ، فهذه من ملازمات الطفولة •

وربما تقول : « ان هذا هو الوقت الذى يجب أن تهذب فيه الميول القبيحة فى الطبيعة الانسانية » واننا لا نعترض على تهذيب تلك الميول ، ولكننا نعترض على أن نقف عقبة فى سبيل حركة الطفل ونشاطه وغرائزه ، وكما أن للنوع الانسانى مكانة ممتازة بين جميع المخلوقات ـ فللطفولة مكانة خاصة وأهمية كبيرة فى حياة الطفل • وان أول واجب أن نعد الرجل رجلا ، ونعد الطفل طفلا ، ونضع كلا منهما فى المكان اللائق به ، فلا نعد الرجل طفلا ، ولا الطفل رجلا ، بل نعامل الرجل كما يعامل الرجال ، ونعامل الطفل كما ينبغى أن نعامل الأطفال : يقول روسو : « تتطلب الطبيعة أن يكون الأطفال أطفالا قبل أن يكونوا رجالا (٣) •

هذا ما يجب أن نفعله للنهوض بالانسان • ولكى نقوى جسمه ونساعده فى النمو يجب ألا نعطل الوسائل الطبيعية المختلفة التى زودته بها الطبيعة • وينبغى ألا نجبر طفلا على الوقوف ساكنا اذا أراد المشى ، ولا نجبره على المشى اذا أراد الوقوف ساكنا !

دع الطفل يقفز ويثب ويلعب كما يشاء ، فهذه الحركة تساعد على نمو الجسم وقوته ، وتلائم ما يحتاج اليه الجسم بفطرته ، ففى طفولته يجب أن يتمتع بالحرية والطفولة ، ولا يسمع تحذيرا ولا تهديدا ، ولايحس قسوة أو شدة •

---

(١) Love childhood ; look kindly on its play, its pleasure, and its lovable instincts.

(٢) الترجمة الحرفية ـ اعطف على

(٣) « Nature requires children to be children before being men ».

٩ ـ « لا تعتمد على أحد ٠ »

يجب أن يعود الطفل الاعتماد على نفسه ، والقيام بما يستطيع القيام به ٠ وليس هناك مايمنع الاستعانة بغيره اذا لم يستطع القيام بالشيء ٠ « وينبغى ألا يعامل الطفل كحيوان ، كما ينبغى ألا يعامل كرجل ، بل يعامل كطفل (١) » ٠

يجب أن يسأل الطفل ما يشاء ، ولا يأمر بما يشاء ٠ ويجب أن نعمل على أن يشعر الطفل بضعفه وحاجته الى غيره ، من غير أن يتألم لهـذا الضعف ٠ وليس لأحد الحق فى أن يأمر الطفل بأوامر لا ضرورة اليها ، ولو كان أباه ٠ ولا تعطه شيئا لأنه يرغب فيه ، بل أعطه ذلك الشيء لأنه فى حاجة اليه ، أى لا تعطه مايرغب فيه ، بل أعطه مايحتاج اليه ، واترك له الحرية فى الاختيار ، وأرشده اذا كان فى حاجة الى الارشاد ، وساعده حينما يحتاج الى المساعدة ، من غير أن تتعارض مع حريته ، وعوده الثقة بنفسه ، وفهمه أن الشرف فى أن يخدم نفسه بنفسه ٠ وينبغى أن نفرق بين مايحتاج اليه الطفل وما لا يحتاج اليه ٠

ويجب ألا تظهر بالضعف أمام الطفل ، لأنه اذا شعر بضعفك تحكم ، وكان عنيدا ، أما اذا شعر بقوتك فانه يسير كما ينبغى ٠ واذا أردت أن تمنح الطفل شيئا فامنحه اياه فى الحال ، ولا ترفض ، واجتهد ألا ترفض كثيرا ، ولا ترفض الا ما ليس فى حاجة اليه ٠

١٠ ـ « لا مناقشة مع الأطفال » :

من المبادىء التى نادى بها (جون لوك) الفيلسوف الانجليزى أن نناقش الأطفال ، ونبحث معهم حتى نصل الى الصواب ، ويشعروا به ٠ وهذا ما ننادى به اليوم ، فان من أغراض التربية فى العصر الحاضر أن نفكر فى تربية الطفل تربية عقلية ، بحيث يستطيع فيما بعد أن يفكر بنفسه ، ويحكم حكما صائبا ، ويعلل تعليلا صحيحا ، ويناقش مناقشة منطقية ٠ أما روسو فلا يقول بالمناقشة مع الأطفال ، لأن التفاهم معهم يخالف العقل ، لأنهم فى نظره لا يستطيعون أن يفكروا ٠ واذا استطاعوا التفكير فاننا لا نحتاج الى تعليمهم وتربيتهم مطلقا ٠ وقد يقتنعون بالنقاش خوفا ، وقد نتحادث معهم بلغة لا يفهمونها ٠ ولنذكر نوعا من النقاش الذى ناقش به روسو (أميل) :

---

(١) « He should be treated neither as an animal nor as a man, but as a child. »

المدرس : يجب ألا تفعل كذا .

الطفـل : ولم لا ؟

المدرس : لأنه خطأ ؟

الطفل : خطأ ! وما معنى خطأ ؟

المدرس : هو الشيء الذى منعت منه ، وقيل لك : لاتفعله .

الطفل : وما الضرر الذى يحدث اذا فعلت شيئا حرم على فعله ؟

المدرس : ستعاقب على مخالفتك وعصيانك

الطفل : حينئذ سأعمل الشيء بحيث لا يعرفه احد .

المدرس : ستكون مراقبا .

الطفل : سأفعل ذلك خفية .

المدرس : ستسأل عما تفعل .

الطفل : سأكذب على من يسألنى .

المدرس : لكن يجب ألا تكذب .

الطفل : ولماذا لايجوز أن أكذب ؟

المدرس : لأن الكذب رذيلة .

الطفل : ولم كان رذيلة ؟

فهذه المناقشة فى نظر روسو لا معنى لهـا فى عـالم الأطفال ، والطفل لايدرى منها شيئا ، ولكن اجابته فى اعتقادنا لا تخلو من التفكير ، والتفكير السديد . ولنذكر مثلا آخر من مناقشة غير مجدية بين مربية وطفلتها :

المربية : أتذكرين حينما كانت أمك فتاة صغيرة ؟

الطفلة : لا ، أيتها المربية .

المربية : لم لا إذا كانت ذاكرتك قوية ؟

الطفلة : لأنى لم أكن قد ولدت فى ذلك الوقت .

المربية : أتعيشين الى الأبد ؟

الطفلة : لا ٠

المربية : أصغيرة أنت أم عجوز ؟

الطفلة : أنا مازلت صغيرة ٠

المربية : أعجوز جدتك أم صغيرة ؟

الطفلة : جدتى عجوز ٠

المربية : هل كانت صغيرة فى يوم من الأيام ؟

الطفلة : نعم ٠

المربية : ولم لا تكون صغيرة الآن ؟

الطفلة : لأنها كبرت حتى صارت عجوزا ٠

المربية : هل ستكبرين وتصيرين عجوزا كذلك ؟

الطفلة : لا أدرى !

المربية : أين ملابسك التى كنت تلبسينها فى السنة الماضية ؟

الطفلة : اننى أعطيتها غيرى ٠

المربية : لماذا ؟

الطفلة : لأنها صارت ضيقة على ٠

المربية : لماذا صارت ضيقة عليك ؟

الطفلة : لأنى كبرت ٠

المربية : وماذا يحدث للفتيات الكبيرات ؟

الطفلة : انهن يكبرن حتى يصرن نساء ٠

المربية : وماذا تصير النساء ؟

الطفلة : انهن يصرن أمهات ٠

المربية : وماذا يحدث لكبار السن ؟

الطفلة : لا أدرى !

المربية : ماذا حدث لجدك ؟

الطفلة : انه توفى ٠

المربية : لماذا توفى ؟

الطفلة : لأنه كان هرما جدا ٠

المربية : اذن ماذا يحدث لكبار السن ؟

الطفلة : انهم يموتون ٠

المربية : ماذا يحدث لك حينما تكبرين ؟

الطفلة : انى لا أود أن أموت أيتها المربية ٠

المربية : لا أحد يود أن يموت ياعزيزتى ، وكل انسان يموت ٠

الطفلة : لماذا ؟ هل تموت أمى أيضا ؟

المربية : نعم انها ستموت ككل انسان آخر ، فالنساء يكبرن كالرجال، وكبر السن ينتهى بالموت ٠

الطفلة : ماذا يجب أن أفعل حتى تكبر سنى ببطء ، وببطء شديد ؟

المربية : يجب أن تكونى طيبة حينما تكونين صغيرة ٠

الطفلة : سأكون على الدوام طيبة أيتها المربية ٠

المربية : هذا حسن جدا ، ولكن أتظنين أنك ستعيشين الى الأبد ؟

الطفلة : سأعيش حتى أكون عجوزا جدا ٠

المربية : حسن ٠

الطفلة : انك تقولين : يجب أن نموت حينما نكبر ٠

المربية : نعم ، يجب أن تموتى فى يوم من الأيام ٠

الطفلة : أظن أنه يجب أن أموت فى يوم ما ٠

المربية : من عاش قبلك ؟

الطفلة : أبى وأمى عاشا من قبل ٠

المربية : ومن عاش قبلهما ؟

الطفلة : جدى وجدتى ٠

المربية : ومن سيعيش بعدك ؟

الطفلة : أبنائى ٠

المربية : ومن سيعيش من بعدهم ؟

الطفلة : حفدتى وحفيداتى ٠

فهذه المناقشة وان كانت تدل على أن للنوع الانسانى بدءا ونهاية ككل شىء آخر ـ انما هى فى نظرنا مناقشة مملة غير مجدية فى عالم الطفولة ، ولوكان فيها شىء من التفكير ٠

وفى الأمور التى ينبغى ألا يفعلها الطفل لا تحرمها عليه ، بل امنعه منها ، من غير شرح أو جدل أو مناقشة ٠ وفى تربية الطفل يجب أن تتجنب كل شىء يؤدى الى الغيرة والحسد ، والكبر ، والشره ، والخوف ، وغيرها من الانفعالات التى تحتاج الى تهذيب ٠ واننا نعتقد أن غرض روسو من منع المناقشة ألا نعطى التلاميذ دروسا بالكلام ، بل نترك لهم الفرصة فى أن يتعلموا بالتجربة ٠

١١ ـ الحرية المنظمة (١) :

لقد حاول كثير من المربين الوصول الى كل طريقة من طرق التربية الا طريقة واحدة ، وهى الطريقة الناجحة ، تلك هى طريقة الحرية المنظمة ٠

١٢ ـ دع الطفل يتعلم بالتجربة ولا تعاقبه اذا أخطأ غير متعمد لأنه لا يدرك الخطأ الذى أخطأه ، ولا يشعر بالهفوة التى ارتكبها ، ولا تكلفه أن يطلب منك العفو والمغفرة ، لأنه لا يعرف معنى المغفرة ، فهو لا يستحق عقوبة ولا توبيخا ٠ وبقراءة الوصف ن كان يعامل به الأطفال فى عهد روسو يرى أن الأطفال لم يروا من الحياة الا الجانب المظلم ، ولم يتمتعوا بشىء من الحياة ، فقد كانت حياتهم كلها د ، فاذا تركوا تلك الحياة تركوها غير آسفين عليها ٠ ان من يقرأ هذا الوصف يتذكر تلك الروايات القيمة للكاتب العبقرى الانجليزى ، والمصلح الاجتماعى « شارلز دكنز » ؛ ففى كل رواية من رواياته ترى كيف كان الأطفال

---

(١) « Well-regulated liberty »ارجع الى ما كتبناه عن الحرية فى التربية والتعليم فى الفصل الأول من كتابنا : « الاتجاهات الحديثة فى التربية » ٠

المساكين يعاملون ؟ وكيف كانوا يحرمون الحرية ، وما يحتاجون اليه من الهواء النقى ، وحسن المعـاملة ، والعطف والشـــفقة ؟ واذا قرأت روايات (دافيد كبرفيلد ، وأوقات الشدة ، ونيفولاس نيقولبى ،ودومبى وابنه ، واوليفرتوست ، ودرت الصغيرة) وجدت فيها ما يضحك وما يبكى !

ومن منا لايذكر مع الأسف السن التى كانت تلازم فيها الابتسامة شفتيه حينما كان طفلا سعيدا هادئا فى طفولته ؟ فلم نحرم هؤلاء الأطفال الأبرياء مسرات الطفولة ، ولعب الطفولة ، فى وقت الطفولة ، وهو وقت صغير ؟ ولم نملأ أوقات الطفولة بالقسوة أو الشدة ، وهى لن تعود اليهم مرة أخرى ؟ هل تعلمون أيها الآباء وقت الموت الذى ينتظر أبناءكم ؟ متعوهم بالطفولة ، ولا تعذبوهم بالقسوة الوحشية ، والاستعباد ! وكما أن القسوة مضرة بالأطفال كذلك المبالغة فى شدة العناية بهم ٠

١٣ ــ قد يعبث الطفل بأشياء فيكسرها أو يتلفها عن غير قصد ، لهذا ينبغى أن يكون الطفل فى بيئة تتمثل فيها البساطة ، فاذا ما كسر شيئا بحسن نية فافرض أنه كسر من نفسه ٠

١٤ ــ هل أجرؤ أن أضع قاعدة هى أهم قاعدة فى عالم التربية ، وهى :

« ألا تكسب وقتا ، بل تضيعه ؟ (١) » هذا ما يقوله روسو ، ثم يرجو القارىء أن يغفر له ، ولا يؤاخذه على هذه الفكرة ٠ فيلوح لنا أنه كان يخالف حتى المبادىء المعروفة ، ففى الوقت الذى نقول فيه ــ « الوقت من ذهب » أو « الوقت هو الحياة » ــ نادى روسو بأن الوقت لاقيمة له، وأن الطفل يجب أن يضيعه ٠ ولا عجب ، فهو يرى أن أصعب مرحلة من مراحل الحياة الانسانية هى مرحلة الطفولة ، من الولادة الى الثانية عشرة من العمر ، فهذه هى المرحلة التى تبذر فيها الرذيلة فى نفس الطفل ٠ واذا مابذرت فى نفسه صعب علينا فيما بعد أن نجد أداة نستأصلها بها ٠ واذا وجدنا الأداة فاننا لانستطيع أن نقضى بها على رذيلة تمكنت كل التمكن من الطفل ٠

ويقصد روسو بذلك ألا يستعمل الأطفال عقولهم قبل ان تنضج ٠ لهذا قال : « ان التربية الأولى يجب أن تكون ســلبية » ، يريد بهذا

---

(١) « Not to gain time, but to lose it ».

ألا نعلم الطفل الفضيلة أو الصـــدق ، بل نحرس قلبه ، ونحفظه من الرذيلة ، كما نحفظ عقله من الخطأ والخطيئة • فاذا لم تستطع أن تفعل شـــيئا للطفل فى طفولته ، وتحفظه من الرذيلة والخطيئة من الناحيتين ـ العقلية والخلقية ـ وأمكنك أن تربيه حتى الثانية عشرة من عمره ، بحيث يكون قويا ، صحيح الجسم ، لا يستطيع أن يعرف يمينه من شماله ـ فانه فى الوقت الذى يتفتق فيه ذهنه ، ويمكنه أن يفهم ، ويميز الحسن من القبيح ، والغث من السمين ، يمكنه بعنايتك وارشادك أن يصير أحكم الحكماء ، وأكبر المفكرين • فهو لم يتأثر بعادات قبيحة ، ولم يلوث بأفكار سيئة ، فمجهودك معه لن يكون عبثا ، بل سيثمر الثمرة المرجوة •

فروسو يريد ألا نحاول التربية الخلقية والعقلية فى الطفولة ،ويرى أن نسير فى الطريق المضاد للطرق المألوفة ، حتى نكون مصيبين دائما • وليس معنى هذا أن نهمل الطفل كل الاهمال فى طفولته ، بل نعنى كل العناية بتربية جسمه ، وتربية حواسه ، وتقوية أعضائه ، وتهذيب قواه ، وأن نترك عقله الى الثانية عشرة ، ولا نتعجـل فى تحميله مالا يطيق •

واحذر أن يتأثر بالعاطفة ويجعل لها تأثيرا فى آرائه وأحكامه ، وأجل تربيته الخلقية والعقلية الى الثانية عشرة ، حتى تنمـــو مواهبه العقلية •

وفى اعتقادنا أن المربى الحازم ينبغى أن يراقب طفله أو تلميذه كل المراقبة ، ويمنحه الحرية ، حتى تظهر ميوله الطبيعية ، ولا يجعله تحت أى ضغط ، كى يظهر بمظهره الحقيقى ، فاذا رأى الفرصة سانحة لتهذيبه من الناحية الخلقية أو العقلية فلينتهزها ، مع مراعاة مســـتوى الطفـل وادراكه •

ويجب أن يكون المربى خير قدوة للطفل ، فكمـا يتأثر بالأمثلة القبيحة التى يشاهدها أو يسمعها ـ كذلك يتأثر بالمبادىء والقـــواعد الضارة التى يلقنها • واذا رأى رجلا منفعلا متأثرا يضرب بيديه ، ويخبط برجليه فقل له : ان هذا الرجل مسكين ، لأنه مريض •

وفى نظرنا يجب ألا نترك الطفل من غير دراسة أو تعليم حتى الثانية عشرة كما قال روسو ، بل ندرس له ما يلائم فطرته ، وما يستميله ، بحيث لانحمله مالا يطيق ، ولا نطالبه بالمحال • ولا ندرس له أمورا معنوية لايستطيع أن يدركها ، أو قضايا خلقية لا يمكنه أن يفهمهـا •

ولن نبالغ كما بالغ روسو فى تركه هذه المدة الطويلة من غير دراسة منظمة • وفى اعتقادنا أن هذا ما يقصده روسو ، أما ترك (اميل) هذه المدة الطويلة من غير دراسة ، مكتفيا بالتجارب التى يجربها فهذا مالا نقول به ، ولكن المهم أن نترك له الفرصة فى أن يلعب ويمرح ، ويتمتع بالطفولة ، ويدرس المواد السهلة بطريقة محسة يستطيع أن يستسيغها بشكل قصصى جذاب •

واننا لانعارض روسو فى أن نعامل الطفل طفلا ، ولا نحمله على أن يستحسن ما يكره ، ونجتهد فى أن يستعمل أعضاءه ، وينتفع بحواسه وقوته الجسمية ، ونشغله دائما باستعمال أعضائه وجسمه وحواسه ، ولكن لن نترك تربيته العقلية كما يقول روسو ، بل سنحاول أن نجعله يفكر تفكير الطفولة ، فى أشياء تلائم سنه وميوله • وسنسمح للطفولة فى أن تأخذ دورها فى النمو • ولن نرهق عقله بأية حال ، ولن تؤجل دروس اليوم الى الغد حتى يبلغ الثانية عشرة ، بل سنعطيه اليوم دروسا يحبها، ويميل اليها بفطرته ، دروسا مشوقة جذابة • وسنفكر فى ميوله الفطرية ، ونراقبه بعناية ، وسنسير مع الطفل ببطء حتى يدرك مايراه من الدروس، وسنعطى الدواء عند المرض • وسنحاول أن يكون العلاج ملائما لطبيعة المريض ومزاجه ، وسنذكر دائما الطفولة وما تتطلبه من الحرية والصبر ، وحسن الاختيار •

وأحيانا يبدو ذكاء الطفل ، فتظن أنه عبقرى ، وآونة لايبدو فتحسبه غبيا ، فأنت مخطىء فى كلتا الحالتين ، فذكاؤه محدود وهو طفل ، فهو كالنسر يحرك أجنحته فى لحظة ، فتحسبه ذكيا ، ويوقفها فى لحظة أخرى، فتظنه غبيا • فيجب أن نعامل الطفل على حسب سنه ، ولا نرهقه مطلقا فى استعمال قواه العقلية ، ولا نتسرع فى الحكم عليه ، كى لانخطىء فى أحكامنا •

يقول روسو : قد تتألم حينما ترى الطفل يقضى سنواته الأولى من حياته وهو لايعمل شيئا ، وكيف لايعمل ؟ ألا يكفى أنه سعيد ؟ أليس جريه عملا ؟ أليس لعبه وقفزه ووثبه طوال النهار عملا ؟ انه يكفى أن يكون سعيدا • واذا تركت له الفرصة فى أن يلعب ويقفز ، ويثب ويجرى ــ فثق بأن لديه عملا كثيرا •

وليس لدينا اعتراض على روسو فى العناية بالناحية الجسمية ، وفى تقوية الجسم بقدر الاستطاعة ، بكل وسيلة من وسائل الرياضة واللعب الحر ، والحركة الحرة ، ولكن لايمكننا أن نقضى كل الوقت من

الخامسة الى الثانية عشرة فى اللعب والجرى ، والتفكير فى الجسم فحسب. وليس لدينا أيضا أى اعتراض على أن تتخذ كل وسيلة تؤدى الى سعادة الطفل ، وتمتعه فى طفولته . ولكن هذا كله لايمنعنا أن نختار له بعض المواد الدراسية السهلة المشوقة التى تلائم سنه وميوله وبيئته ، فنشغله بها ونعلمه اياها بطريقة اللعب ، من حيث لايشعر بسآمة أو ملل ، أو جفاف أو ألغاز فى المواد الدراسية ، وأن نتخير له من طرق التربية والتدريس الطرق التى تلائمه والتى بها نستغل نشاطه فى العمل والافادة ولدينا اليوم الكثير من الطرق التنقيبية التى تشجع الطفل على البحث والاعتماد على النفس .

وقد نصح أفلاطون فى كتابه (الجمهورية) بألا نقسو على الطفل فى العمل ، وأن نعوده من الطفولة اللعب والغناء والتمتع بأوقات الفراغ .

لا تخف على الأطفال اذا قضوا بعض أوقاتهم فى اللعب والحركة ؛ ولا تظن انهم كسالى ، ودعهم يتمتعوا بالطفولة . وعلمهم بطريقة اللعب فى أثناء اللعب . ولا تشغلهم طوال الوقت ؛ كى لا تضايقهم . ولا تكثر عليهم الواجبات المنزلية والمدرسية ، كى لا يسأموا تلك الواجبات .

فروسو لا يعد وقت الطفولة ضائعا ، كما أن وقت النوم ليس بضائع ؛ فالرجل الذى يريد أن يحرم نفسه النوم كى ينتفع بكل لحظة فى حياته رجل مجنون حقا ، فقد حرم نفسه التمتع بالحياة ، وحرم نفسه الحياة ، وقادها الى الموت والهلاك ، فنحن لا نود أن نحرم الطفل التمتع بالطفولة ، كما لا نود أن يحرم هذا الرجل نفسه النوم ، بل نود أن يقسم وقت الطفل بين اللعب الحر ، والعمل السار ، فيلعب حينا ، ويعمل حينا ، فلا نغلو كما غلا روسو ، ولا نقسو كما قسا غيره من المربين فى ارهاق الطفل ، واساءة معاملته ، ومطالبته بالمحال ، واستعمال القسوة والشدة معه ، وتقييده بكل القيود قبل عهد روسو ؛ فنحن نريد أن يعمل حيث يجب العمل ، يعمل ما يريد ، ويدرس مايلائمه ، بحيث لا يشعر بالسآمة والملل ، وصعوبة العمل .

١٥ ـ التربية بطريقة عملية :

ليس من الممكن تربية طفل بلغ من العمر اثنتى عشرة سنة من غير أن نعطيه فكرة عن العلاقة بين الانسان والانسان . وكما يجب أن نعطى الطفل فكرة عن الحرية كذلك يجب أن نعطيه فكرة عن الملكية ؛ بأن يملك

شيئا من الأشياء • وان (اميل) يعيش فى الريف ، وقد ربى فى الريف ولديه فكرة عن الملكية • وله عينان يرى بهما • ولديه فراغ يجب أن ينتفع به • وهو كأى طفل لديه القوة والنشاط ، ويمكنه ان يحاكى ويبتكر وينتج • وقد شاهد كيف تعد الحديقة ، وكيف تزرع ، وكيف ينمو نبات الفول • فتمنى أن يكون بستانيا • وليس لدينا ما يمنع أن يكون بستانيا • ولن نعارضه فى رغبته • وقد شجعه روسو على أن يكون بستانيا ، وشاركه فى ذوقه وميوله ، واشترك معه فى العمل بالحديقة لا ليسره ، بل ليسر نفسه • فأخذ (اميل) لنفسه قطعة من الارض ليزرعها فولا ، وأعدها وزرعها ، ومعه مربيه • وكان يذهب كل يوم هو وروسو لارواء الفول ، والتمتع برؤيته ، وملاحظة نموه • وقد فاض سرورا وفرحا حينما أخبره روسو بأن تلك القطعة من الارض ملك له • وأدرك معنى الملكية ، وشعر بأنه قضى وقتا فى اعدادها وزرعها ، وارواثها ، والعناية بها والمحافظة عليها من المارين ، فهى تنسب اليه وهى زراعته •

وفى ذات يوم جاء (اميل) مسرعا وابريق الماء فى يده ، ليروى الفول فوجد منظرا مروعا ؛ وجد الفول مقتلعا من جذوره ، والارض محروثة ، ومعالمها ضائعة ، فقال : آه ! ماذا حدث لعملى وزراعتى وفولى ، وثمرة مجهودى ومثابرتى ؟ من الذى اغتصب منى ماكنت أملك؟ ومن قلع الفول؟ ومن أخذه ؟ وأخذ قلبه ينبض ودمه يغلى وشعر بالظلم ، وأخذ الشعور بألم الظلم يحز فى نفسه ، ونزلت الدموع من عينيه ، وبدأ يبكى وشاركه روسو فى ألمه ، وحاول أن يعرف من ارتكب هذا الاثم ، وهذا الاعتداء الشنيع •

أخذا يبحثان عن الجانى ، وأخيرا عرفا أن البستانى هو الذى ارتكب هذه الجريمة ، وهو الذى قلع الفول من الارض ، فبعث اليه روسو ليحضر فحضر ، فوجد ألمهما يبدو على وجهيهما وشعر بأنهما متألمان لابادة الفول ولكنه أظهر لهما أنه متألم اكثر منهما ، ثم جأر بشكواه قائلا : « أيها الرجلان المهذبان ! لقد أتلفتما عملى ، فقد زرعت بطيخا ملطيا جميلا فى تلك القطعة من الارض ، وكانت بذوره قد أهديت الى وكنت آمل أن أهدى اليكما شيئا منه حينما يتم نضجه ، ولكن فى الوقت الذى امتدت فيه أشجار البطيخ على الأرض قطعتماه ، وحرثتما الارض لزراعتها فولا • ومحال أن أجد تلك البذور ثانية ، وقد حرمتما أنفسكما التمتع بالأكل من هذا البطيخ الشهى اللذيذ • » •

فقال المربى : عفوا أيها البستانى المسكين روبرت Robert فقد تعبت كثيرا ، وأضعنا عليك تعبك ، وأتلفنا زراعتك ، وسنرسل لاستحضار شىء من تلك البذور لك ، ولن نأخذ ثانية قطعة من الارض حتى نتيقن تمام التيقن أنهـا خالية من الزراعة ، وليســت ملكا لاحد مطلقا ٠

فقال البستانى : اذن خذا ما عندكما من عدد وآلات ، فليس هنـا أرض تصلح لكما ٠ فأنا أعمل فى هذه الأرض التى أصلحها أبى من قبلى ونحن جميعا نفعل كما فعل ، وكل الأرض التى تريانها هنا ملك لنا منذ أمد طويل ٠

فسأل (اميل) ٠ هل بذور البطيخ تتلف بسرعة يا (مستر روبرت)؟

البستانى : لا تؤاخذنى أيهـا الرجل المهذب الصغير ، فاننا لم نر مطلقا بستانيا صغيرا متوحشا مثلك ! اننا لا نتعرض لحدائق أحد ، ونحن نحترم عمل غيرنا ما دام لا يتعارض مع عملنا ٠

اميل : ولكن ليس لى حديقة !

البستانى : وما شأنى بذلك ؟ انك اذا أتلفت حديقتى مرة أخرى فلن أسمح لك بالقرب منها أو السير فيها ، وأنت تعلم حق العلم أننى لا أود أن أضيع وقتى سدى ، لأن الوقت نفيس ٠

المربى : أيمكننا أن نعمل ترتيبا مع (المستر روبرت) ، بأن يعطينا جزءا من حديقته ، على أن نعطيه نصف ما تنتجه الأرض ؟

البستانى : سأعطيكما قطعة من الأرض بدون أى مقابل ، ولـكن تذكرا أنى سأقتلع زراعتكما اذا تعرضتما لاتلاف أى شىء من بطيخى ٠

ومن هذا الحديث يدرك (اميل) بطريقة عملية معنى الملكية ، كما يدرك أن الجزاء من جنس العمل ، وأن من الواجب عدم التعرض لملك غيره بالايذاء أو الضرر ، ويشعر بتبادل المنفعة ، فهذا يعطى وذاك يأخذ ٠ وان مثل هذا الدرس درس عملى ، وأثره فى النفس أكثر من تأثير القول ، فالأطفال كثيرا ما ينسون ما يقال لهم ، وما يقولونه هم أنفسهم ، ولكنهم لا ينسون ما يقومون به من عمل أو ما يعمل لهم ٠

١٦ ـ للطفولة مكانتها فى الحياة الانسانية :

ان للطفولة مكانتها فى الحياة الانسانية • ولكى نحكم على الطفولة حكما سديدا يجب أن نفكر فى الطفل وميوله الفطرية ، ونعامله كما ينبغى أن يعامل • وكما ينبغى ألا نعامل الرجل كما يعامل الطفل • ينبغى ألا نعامل الطفل كما يعامل الرجل ، ولا نضع أحدهما فى مكان الآخر ، بل نضع كلا منهما فى المكان اللائق به ، ونعطيه الحرية حتى تظهر ميوله الطبيعية على حقيقتها ، فنهذب ما يجب تهذيبه ، ونربى ما ينبغى أن يربى •

ولا تنتظر من الطفل أن يستمر فى مكانه مدة طويلة بغير حركة • وليس من السهل أن تبقيه ساكنا الا اذا استعملت معه الشدة والضغط، وهذا ما لا نريده • وليس للمربى الحق فى أن يأمر طفلا بأن يفعل شيئا لا فائدة له منه •

ولا تعط الطفل شيئا لأنه يطلبه ، بل أعطه ذلك الشىء لأنه فى حاجة اليه • وحاول أن تكون أعماله دائما ناشئة عن الرغبة والميل، ودعه يشعر بأنه حر فى عمله ، كما أنك حر فى عملك بشرط أن تكون تلك الحرية منظمة •

وليس من الحكمة أن تحكم على الطفل بالخروج اذا كان يرغب فى البقاء ، وكما ينبغى أن نتجنب الضغط على الطفل ينبغى أن نتجنب التساهل معه ، ونتخذ الحكمة فى معاملته ، فلا نستعمل الشدة حيث يجب اللين ، ولا اللين حيث تجب الشدة • ولقد قلنا مرارا : ان الطبيعة تتطلب أن يكون الأطفال أطفالا قبل أن يكونوا رجالا، فاذا تسرعنا وحاولنا أن نجعل الأطفال رجالا حصلنا على ثمرة غير ناضجة ، ثمرة معرضة للفناء والفساد ، لا طعم لها ولا لذة ، ولا عجب ، فللطفولة طرقها الخاصة فى رؤية الأشياء ، والتفكير فيها والحكم عليها •

عامل تلميذك معاملة تلائم سنه ، وضعه فى المكان الذى يلائمه كى لا يحاول مغادرته • واذا أمرت الطفل بشىء فوضح له السبب فيما تقول ، فليس الغرض اظهار القوة والسلطة ،ولكن الغرض أن يكون الأمر لحكمة معينة يقبلها العقل والمنطق • واذا منعت الطفل أمرا من الأمور فأخبره بسبب ذلك المنع • وان أسوأ تربية يرباها الطفل أن تتركه يتردد بين تنفيذ ما تريد وتنفيذ ما يريد ، وأن تكون معه فى شقاق دائم ، ونزاع مستمر •

ومن الحكمة ألا نتدخل في شئون الطفل وتربيته الا اذا عرفنا كيف نقوده ونرشده ، وعرفنا ما ينبغي أن يفعل ، وما ينبغي أن يترك ، وفي الطفولة قد يخطىء الطفل عن غير قصد ، فلا تعاقبه في هذه الحال ، ولا تحمله على الاعتذار ، لأنه لم يدرك خطأه ، ويكفي أن تبين له هذا الخطأ بسهولة ، حتى يدرك الصواب ، ويميز الحسن من القبيح ٠

وقبل أن تفكر في تكوين رجل يجب أن تكون رجلا ، وأن تكون خير قدوة لأبنائك وتلاميذك ، واجتهد أن تكون محبوبا محترما ، حتى يحاول المتعلم ارضاءك ٠ وتذكر أن هناك أطفالا أشقياء معذبين يحتاجون الى كلمة عطف ، وأن هناك كثيرين من المغبونين المظلومين يحتاجون الى شيء من الرعاية والحماية ، فاعطف على البائس من الأطفال ، واياك أن تظلم أحدا منهم ، ودافع عن الفقراء والمساكين ، وأحسن اليهم وكن انسانا٠ ولا تكتف بأن تتصدق عليهم ، بل اجتهد في أن يشعروا بعطفك ، فان العطف يؤثر في نفوسهم أكثر من المال ٠ احترم التلاميذ يحترموك ٠ وكن أخا لهم ، حتى يكونوا لك من الأبناء البررة ٠ ولا توبخ أحدا منهم على خطأ ارتكبه اذا كنت مرتكبا ذلك الخطأ ، ولا تكثر الوعظ والتكلم حول الفضيلة ٠ ولا تتظاهر بما ليس فيك ٠ واذا أراد الطفل أن يقول لك شيئا فاصغ اليه ، حتى ينتهي من كلامه ، واسمح له بأن يسألك ما يشاء٠ واذا أخطأ اليوم فسيصيب غدا ٠ وقد يخلط الأمور بعضها ببعض ٠ وقد يقلبها رأسا على عقب ، وقد يضايقك بكثرة اعتراضاته فاصبر ، وكن حازما بصيرا ، ولا تتسرع في الحكم عليه ٠ ولا تعطه دروسا في الفضيلة أو الرذيلة ، فهو يفيد من القدوة الحسنة أكثر مما يفيد من كلام لا يدركه اجتهد أن تعطيه الكلمة الصائبة ، في اللحظة المناسبة ٠

واننا نعتقد أن الخطأ في التربية اليوم ناشيء عن أننا كثيرا مانتكلم مع الأطفال عن الواجب عليهم ، ولا نكلمهم مطلقا فيما لهم من الحقوق ، فنحن نطالبهم بكثير من الواجبات ، ونهمل كل ما لهم من الحقوق ، ونخبرهم بأشياء لا يستطيعون ادراكها ، ولايجدون فيها شيئا من السرور أو اللذة ٠

يجب أن نعود الأطفال أن يحترموا من هم أكبر منهم سنا ، وأن يحبوا لغيرهم ما يحبونه لأنفسهم ، وأن نحبب اليهم العمل والابتكار والانتاج ، حتى تظهر قوتهم ونشاطهم ٠ يجب أن نفكر في الأعمال أكثر من تفكيرنا في الأقوال ، لأن الاطفال ينسون ما يقال أو يعمل لهم ٠

الفصل السابع

تكملة الجزء الثانى من كتاب (اميل)

١٧ ـ الجزاء الطبيعى (١) أو العقوبة الطبيعية فى نظر روسو :

اذا كسر (اميل) نوافذ حجرته فدع الهواء يهب فيها ليلا ونهارا • ولا تبال اذا أصابه برد ، فلأن يصيبه برد خير من أن يرتكب أمرا من الأمور القبيحة ، ولا تشك مطلقا من التعب الذى يسببه لك ، وحاول أن يشعر هوبهذا التعب أولا• وبعد أن يشعربالضرر أصلح النوافذ من غيرأن تقول له شيئا • واذا كسرها ثانية فغير طريقتك معه ، وقل له بهدوء وأنت ضابط شعورك: « ان هذه النوافذ ملك لى ، وقد وضعتها فى الحجرة وأريد أن أتحقق أنها لن تكسر مرة أخرى » • ثم ضعه فى تلك الحجرة وهى مظلمة ، وأغلقها عليه ، واتركها بغير نوافذ ، ولما كان هذا شيئا جديدا بالنسبة اليه فانه سيبدأ يبكى ويصيح ، فلا تصغ اليه وهو يبكى، حتى يسأم البكاء ، ويغير نغمته ، ويتأوه ويتذمر • واذا مر الخادم عرضا فى هذا الوقت وطلب منه أن يخرجه من الحجرة المظلمة فأشر اليه بألا يحقق رغبته ، وأن يقول له : ان لدى أيضا نوافذ أود المحافظة عليها ، ثم يتركه ويذهب •

وبعد أن يمكث الطفل بالحجرة بضع ساعات بحيث تكفى اتعاب (اميل) حقا ، وتوبيخه نفسه ، وجعله يتذكر ما فعل ، يحسن أن يتقدم أحد أفراد الأسرة ، ويعرض حلا لاخراجه من الحجرة المظلمة ، على أن يتعهد (اميل) بألا يكسر نوافذ الحجرة مرة ثانية ، فتذهب أنت وتسمع هذا الحل ، وتقبله فى الحال قائلا : « يا لها من فكرة حسنة ، وا أسفاه ! كان ينبغى أن تفكر فيها من قبل • سيفيد كلانا منها » فتعانق (اميل) وتعيده فى الحال الى مكانه العادى •

---

(١) Natural consequence

لقد وضح روسو رأيه فى ألا يعامل الطفل معاملة يفهم منها أن هذه عقوبة ، بل يعامل معاملة يفهم منها أنها نتيجة طبيعيـة ، وجزاء طبيعى على سوء فعـله ، فاذا كذب الطفل وذكر غير الحقيقـة فاجتهد أن يشعر بالأثر السيىء للكذب ، ولا تصدق ما يقوله ولو كان صدقا ، واتهمه بأشياء هو برىء منها ، حتى يشعر بأثر الكذب ، ويحتج بأن هذا غير الحقيقه ٠

والغرض من العقوبة ايجاد صلة بين سوء السلوك وألم العقوبة ، حتى نصلح ما لدى الأطفال من ميول سيئة ، ونعودهم أحسن العادات ، ونربيهم تربية صحيحة ٠ وهنا ذكر روسو نظريته المشهورة فى العقوبة الطبيعية ، تلك النظرية التى هذبها (هربرت سبنسر) من بعده ، ويراد بها أن تكون العقوبة نتيجة طبيعية للذنب ، فالطبيعة تفرض عقوبتها على من يخالف قوانينهـا ، فتمنع تلك الأعمـال السيئة التى تضر الفرد أو المجتمع ٠ وقد يكذب الطفل فى أشياء حدثت فيما مضى ، وقد يخطىء فى تقدير الأشـياء التى تحدث فى المستقبل ٠ فهو أحيـانا ينطق بما ليس بحق ، وينكر ما فعل ، ويعد بأشياء ولا يقوم بتنفيذها ٠ ولكن لماذا يخبر بغير الحقيقة ؟ ولماذا يخفى الحقيقة عنك ؟ ولماذا لا يخبرك بكل ما فى نفسه بصراحة كما يخبر أصدقاءه من الأطفال ؟

انه اذا ربى تربية طبيعية ، وكانت لديه الحرية الكاملة ، وعلم أنك لن توبخه ، ولن تعاقبـه ــ ذكر لك الحقيقـة كاملة ٠ واذا أخلف الطفل وعده لا يمـكننا أن نقول : انه كاذب ، لأنه لا يدرك معنى الوعـد ، ولا يشعر بنتيجة خلفه لوعده ، ولا يقدر نتيجة عمله ٠

ومن الخطأ أن نحاول تعليم الأطفال الصدق بكثرة التكلم عن الصدق، فهذه الوسيلة تعلمهم كيف يخبرون بغير الحقيقة ٠

واذا حدث شىء يخـالف الأدب أو النظام وأنت غائب ، ولم تعرف الفاعل ، فلا تتهم الطفل ،ولا تسأله : هل أنت فعلت كـذا ؟ فقد يخفى الحقيقة عنك ، وقد ينـكر ، وقد يقول غير الحق ، كى يبعـد الشبهة عن نفسه ، وليس فى استطاعة الطفـل فى مرحلة الطفولة أن يعرف معنى الصدق أو الـكذب ، وقد يستعمل المدرس الضغط على الطفل ، فيجبره على أن يعد بأشياء ، ولا يترك له الفرصة فى اختيار ما يلائمه من الأشياء، فيهمل الطفل الشىء ، وينسى الوعد ، ولا يلام فى ذلك الا مدرسه ! فاذا أردت أن يحافظ الطفل على وعده فـكن حكيما فى معاملته ، ولا تطالبـه بالوعد بأمور لا يميل اليها ٠ وقد قال (هنرى الرابع) : « ان الأطفال كثيرا ما يكذبون ،ولكنهم فى النهاية يصدقون » ٠

رأينا في العقوبة الطبيعية :

هذا النوع من العقوبة الطبيعيـة ـ وهى الشعور بالألم ـ يجر به الطفل قبل أن يبدأ حياته المدرسية ، كما يقاسيه فى بئر حياته العملية : فاذا وخز الطفل اصبعه بالابرة عاقبته الطبيعة بالألم ، واذا وضع يده على موقد النار احترقت يده • واذا أمسك بمبراة حادة باهمال جرح نفسه • وكلما كرر هذا الذنب تكررت العقوبة بالطريقة نفسها •

وقد درسـنا مذهب (روسو وهربرت سبنسر) (١) الفيلسـوف الانجليزى فى الجزاء الطبيعى ، والعقوبة الطبيعية • فاستبان لنا أن هذا المذهب يحل كثيرا من المشكلات التى تعترض الآباء والأمهات فى المنزل، والمدرس وناظر المدرسة فى الحياة المدرسية • فاذا أضاع الطفل لعبتـه وجب الا تشترى له أخرى ، وأن يسير بدونها • واذا أضاع مبراته وجب الا تشترى له مبراة أخرى • واذا لم تلبس الفتـاة الصغيرة ملابسها وتعد نفسها للخروج مع والدتها للرياضة فى الوقت المعين وجب أن تترك فى المنزل ، ولا تؤخذ للرياضة • واذا ضرب الطفل رأسه فى المنضدة شعر بالألم ، ولو أعاد هذه العملية ثانية تجدد الألم وتكرر • وبتكرار العملية يجد أن الألم نتيجة طبيعية لعمـله فيدرك تمام الادراك أن ضرب الرأس بالمنضدة يسبب الألم لا محـالة ، وهذا هو العقاب الطبيعى الذى لا يرحم ، ولا يقبل معذرة • وتلك طريقة الطبيعة فى اصلاح المخطىء ، ومعاقبة من يحاول الاخلال بنظامها •

هذا نوع من التهذيب الذى يتحمله الطفل قبـل دخوله المدرسة • ويقاسيه الطالب عندما يبتدىء حيـاته العملية : فالعامل الـكسلان يفقد عمله ، والتاجر المهمل يفر منه من يعامله • والرجل الذى يغامر بنقوده يفقدها ••• الخ فأمثال هؤلاء يشعرون بالعقاب الطبيعى الذى يتلو الخطأ فى العمل • ويدعو هذا العقـاب الطبيعى من يخطىء الى اصلاح خطئه ، والتدبر فى نتائج عمله • وقد قيل : (نعم المؤدب الدهر • ومن لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار) • ولهربرت سبنسر كثير من الآراء فى هذا الموضوع الذى كتبه عن التربية الخلقية • وليس من الحكمة أن نستعمل هذه الآراء حرفيا ، ونحاكيها محـاكاة من غير تفـكير • فالطفل لا يعرف مضار النار أو المبراة • والطبيعة لا تعاقب المذنب دائما • وربما لا تعادل

---

(١) ارجع الى الفصل العاشر من كتابنا (الاتجاهات الحديثة فى التربية) ص ٢٩٦ ـ ٣٢٧ عن (العقوبة قديما وحديثا) •

العقوبة الطبيعية الذنب فيجميع الأحوال ، فقد يفد الشخص من العقوبة، وقد يكون مآله الموت · وفى الوقت الذى نجد فى الطبيعة التى يدين بها « روسو وسبنسر » عذوبة وجمالا ، وأغانى مشجية ، وزرقة صافية ، وطيورا مغردة ــ نجدفيها العواصف الهائجة، والزلازل المدمرة، والثعابين القاتلة ، والوحوش المفترسة ·

والطبيعة لا تعرف الرحمة ، ولا تفرق بين المجرم والطاهر القلب ، ولا يميز العادل من الظالم· وقد تعاقب من لايجد وسيلة للدفاع، وتحرق جلد الطفل وهو غض ، ولا تفكر فى طفولته ، ومع هذا فالمدرس مطالب بأن يقف بحزم بجانب الطفل ، فيعاقبه عقوبة طبيعية ·

وقد عرف « بستالوتزى » الطبيعة أحسن مما عرفها « روسو وسبنسر » فقال : « ان الطبيعة تعنى بالمجتمع ، وتهمل الفرد ، فهى عمياء بالنسبة للفرد ، واذا كانت عمياء فانها لا تستطيع أن تتفق مع طبيعة الانسان فى الناحية الروحية، ولهذا يجب أن تنتقل تربية الطفل من أيدى تلك الطبيعة لتوضع فى أيدى ذلك الكائن الروحى ، الى أيدى المدرس الحسن البصيرة ، المحب لتلاميذه ، الذى يشعر بشعور الأطفال ويتحلى بمكارم الأخلاق ، وحميد الصفات ·

وفى الحياة المدرسية لا يجد الطفل سبيلا الى عقاب الطبيعة ، بل تحل محله طريقة أخرى غير طبيعية ، فيجد الطفل فى اليوم المدرسى ألوانا من العقاب لا صلة لها بسوء العمل · ولا توافق ما أتاه من الذنب ، كالزجر والتوبيخ ، والنظرات المملوءة غيظا وحمقا ، والضرب ، والحجز فى آخر اليوم المدرسى ، والمعاقبة بأمور لا تتفق والمنطق ، ككتابة قطعة املائية عشرين مرة مثلا ، الى غير ذلك من الطرق التى نجدها بين ظهرانينا فى المدارس ·

اذهب الى مدرسة ما ،واطلب أوراق العقاب · لأى فرقة من الفرق ، فمنها تتبين لك حقيقة مؤلمة ، وهى أن التلميذ المعاقب فى يوم ما قد يتكرر اسمه فى أوراق العقاب · كل يوم ! وكذلك تجد كثيرين من المجرمين اعتادوا الاجرام ، يخرجون من السجن اليوم ليعودوا اليه بعد غد ، وقد تتكرر عودتهم فيقضى بعضهم أكثر حياته بين دخول السجن والخروج منه· ولا شك أن هذه الوسائل من العلاج لا تشفى هؤلاء المرضى ، فالدواء لا يناسب المرض ، والعقاب لا يعادل الذنب ، لأن المذنب لم يجد من يعالجه العلاج النافع ·

فهذا النوع من العقاب ليس بمصلح دائما ، وان كان يحول أحيانا دون الوقوع فى الجريمة ، فهو يمنع الذين لم يخلقوا للاجرام ، والذين يميلون بطبيعتهم الى الفضيلة ، ولكنه لا يمنع هؤلاء الذين يميلون كل الميل الى ارتكاب الخطأ ، ويولعون بالشر والأذى ، لذلك يرى (هربرت سبنسر) الفيلسوف الانجليزى ضرورة تغيير هذه الوسائل بما يصلح لمعالجة هؤلاء المرضى ، وينصح بضرورة تنفيذ العقاب الطبيعى فى البيئة المدرسية والمنزلية ، وفى المجتمع الذى ينتظر الشخص بعد حياته المدرسية : فالذى يتأخر صباحا عن المدرسة نصف ساعة يجب أن يعاقب • بحجزه نصف ساعة فى المدرسة بعد خروج زملائه آخر النهار ، وهكذا •

هذا هو مذهب (سبنسر) فى التربية الخلقية ، والجزاء الطبيعى الذى يراه صالحا لتهذيب المجتمع من الناحية الخلقية •

وجدير بكل مدرس أن يقرأ هذا الفصل الذى كتبه (سبنسر) عن التربية الخلقية ، فهو يرى أن الفضيلة فضيلة فى ذاتها ، تثيب من يتحلى بها ، وأن الرذيلة رذيلة فى ذاتها ، تعاقب من يرتكبها ، فالفضيلة نفسها ثواب ، والرذيلة عقاب •

وقد وجد هذا الرأى مجالا كبيرا لدى (امرسون) الكاتب الأمريكى فى موضوع له عن (المكافأة والثواب) • ولنقتبس هنا نبذة صغيرة من هذا الموضوع فنقول :

« والعدالة لا تؤجل ، العدل الكامل دقيق الميزان فى جميع مراحل الحياة ، ان العالم يرى كجدول الضرب أو كمعادلة جبرية ، فاذا أدرتها الى أية جهة أردتها كانت النتيجة واحدة ، وكان التناسب باقيا ، فكما أن كل سر يعرف ويذاع ــ كذلك كل ذنب يعاقب عليه ، وكل فضيلة يثاب عليها ، وكل خطأ يعاقب عليه لا محالة فى السر والعلانية • »

هذا ما يقوله (امرسون) عن المكافأة ، وهو متفائل كل التفاؤل ، ينظر الى العالم نظرة سارة ، لا نظرة المتشائم • ولو أخذنا ذلك القول على ظاهره لأدى الى نتائج غريبة •

وقد قيل : ان شابا كان مولعا بكسر الأشياء عمدا ، فعولج بدعوته مرة لكسر ساعة ثمينة ، فأبى أن يكسرها • وهى حكاية يستطيع الرجل المهذب أن يصدقها •

لم يصل (سـبنسر) بنظريته الى نتيجته الطبيعية • وقد رأى نقصها ، وعدم كمالها • ولكنه وضع مبدأ عاما يشمل كثيرا من الطرق التأديبية الصـالحة المتبعة فى الوقت الحاضر ، فهو يرى أن من واجب المدرس أن يبتعد كل البعد عن العقاب غير الطبيعى ، ويقصر مجهوده على تنفيذ الجزاء الطبيعى لسوء السير أو السلوك • ومن الأمثلة التى ذكرها (سبنسر) هذا المثل :

ان الطفل الذى يخرج اللعب من صندوقها ويتركها مبعثرة ، أو يأتى بطاقة أزهار قطفها صباحا فى أثناء رياضته فى الحديقة ، ثم يبعثرها على المناضد والمقاعد وان البنت الصغيرة التى تصنع الملابس لدميتها فتشوه نظام الحجرة بما يتناثر فيها من قصاصات الثياب ـ ان كلا منهما يجب أن يترك لينال عقابه الطبيعى ، بأن يحمل الطفل على أن يجمع بنفسه قطع اللعب ، ويضعها فى الصـندوق ، ويجمع الأزهار ، ويضعها فى الأصيص ، ويطلب من البنت جمع القصاصات ، واعادة الحجرة الى نظامها وجمال تنسيقها •

هذا ما يقوله « سبنسر » ، فتكليف الطفل اعادة تنسيق الحجرة نتيجة طبيعية ،وجزاء طبيعى لاخلاله بالنظام • أما ما كان متبعا فى العقاب من التأنيب والتوبيخ ، أو قيام الأم أو المربية بتنظيم ما أفسده الطفل فليس بالعلاج الطبيعى ، ولو عود الطفل القيام باصلاح خطئه بنفسه لشعر بنتيجة عمله ، وتجنب الوقوع فى الخطأ •

وفى العقوبة الطبيعية يقول الأستاذ « نورمان مكمان » : انه اعتاد أن يبدأ معاملته للأطفال فى حجرة الدراسة بقوله لهم : « انهم لن يعاقبوا على أى فعل يفعلونه • »

وادعى أن هذه الطريقة نجحت كثيرا فى معاملته لتلاميذه • ويرى كثير من المربين أن التلاميذ حينما يعطون الحرية فى أن يخطئوا ، والحرية فى أن يصيبوا ـ تنزع نفوسهم الى الموازنة بين طريقى الخير والشر ، وسرعان ما يهتدون الى طريق الخير ، لما يلقون فيه من سرور ، وينقطعون عن طريق الشر لما يجدون فيه من ألم ، ويتعلمون الحسن من الأمور ، ويعتادون أحسن العادات •

نقد مذهب العقوبة الطبيعية والجزاء الطبيعى :

يحسن بنا هنا أن نعرض لتلك النظرية بالنقد والاختبار ، كى نتعرف مدى آثارها ، ونشرح الأسباب فى أنها أحيانا لا تنجح عمليا ، وأحيانا لا يمكن تنفيذها :

١ ـ ان « سبنسر » قد صور لنا العالم تصويرا بطريقة اجمالية ، ولكن هذه الصورة ليست حقيقية فى كثير من تفصيلاتها ، فالطبيعة قد أظهرت لنا أن الخير يعقبه السرور ، وأن الشر يؤدى الى الألم، وأن الشعب الذى يجد لذة فى الشر والايذاء سرعان ما يهوى الى الحضيض ، ويفقد وجوده • وان نظرة واحدة الى العقوبة الطبيعية تبين لنا أنها لا تمثل الحكم العادل دائما ، ولا تؤدى الى الاصلاح على الدوام ، فقد تضر : كأن يتسلق الطفل شجرة ، فيتردى من أعلاها ، فتكسر رجله ، أو يدق عنقه ، ويعاقب عقابا لا يناسب الذنب • وقد يفر المذنب من العقوبة ، كأن يتسلق اللص سور الحديقة ، فيسرق منها ما يستطيع حمله ، ثم يخرج ولا يعترض سبيله أحد ، وبهذا ينجو من عقاب الطبيعة • وقد تؤدى الحادثة الصغيرة الى كثير من الألم ، والضرب بالرصاص يؤلم أقل من الضرب بالسوط ، ولكن الأول يؤدى الى فقد الحياة ، فالطبيعة لا تعدل دائما ، وقد تكون عقوبتها غير مناسبة للجريمة أو الجرم •

٢ ـ ان الأمثلة التى ذكرها « سبنسر » فى العقوبة الطبيعية مقصورة على العقاب البدنى ، كشعور الطفل بالألم عندما يضرب رأسه فى المنضدة ، وقلما تتعرض للمسائل الخلقية أو الاجتماعية ، فالنتيجة الطبيعية للكذب فقد الثقة ، ولكن هذه النتيجة لا يشعر بها الكاذب شعوره بالألم حينما يخز نفسه بالابرة ، أو يضرب رأسه فى الحائط • فعقاب الطبيعة غير مؤكد فى الامور الخلقية ، والمسائل الخلقية •

٣ ـ ان الأتقياء أو المصلحين ربما لا يحظون بالسعادة فى الحياة بقدر ماهم عليه من تقوى ، وما قاموا به من اصلاح • وقد نرى رجالا أخلصوا فى خدمة بلادهم الاخلاص كله ، وبذلوا ما استطاعوا من جهد ، ومع ذلك لم يلقوا جزاء ولا شكورا ، فمثلا « صمويل جونسون » ، بدأ حياته بكتابة رواية بذل فيها مجهودا كبيرا ، ولكنه وجد صعوبة كبيرة فى أن يجد ناشرا يقبلها منه ، وأخيرا نجح فى بيع حق طبعها بخمسين جنيها ، فوجدت من الكتاب اقبالا عظيما ، ومن القراء تشجيعا كثيرا ، أثرى منه الناشر ، بيد أن المؤلف لم ينل من الجزاء الا القدر الذى اتفق

عليه مع الناشر وقد حمله هذا النجاح الأول على أن يعد نفسه للحياة من كسب قلمه ، فأخذ يكد ذهنه حتى ألف خمسين رواية لم تجد اقبالا ، فبقى طول حياته فقيرا معدما ، على حين أثرى الناشر من الرواية الأولى ، ونال ثروة كبيرة من عمل ذلك المؤلف المسكين !

وفى الحياة أمثلة كثيرة يتجلى فيها الظلم ، وعدم التشجيع : فمذهب الجزاء الطبيعى فى الثواب والعقاب مفيد فى ذاته ، ولكنه لم ينجح فى اعطائنا شيئا يمكننا أن نعتمد عليه بنجاح دائما فى تهذيب أبنائنا وتلاميذنا .

٤ ـ ان طريقة الجزاء الطبيعى التى ذكرها « سبنسر » انما هى بدل من الطريقة العادية فى العقاب البدنى ، والتوبيخ والزجر ، ومع هذا فالعصا والتوبيخ نتيجتان طبيعيتان للذنب كأية عقوبة أخرى ، فلو أهمل الطفل اناءه فكسر فما النتيجة الطبيعية التى تلائم هذاالاهمال ؟

أتوبخه أم تضربه ، أم تكلفه شراء اناء آخر من نقوده ، أم تتركه يأكل فى غير اناء ، فيلوث غطاء المائدة ؟

ان « سبنسر » نفسه يعلم هذا الاعتراض حق العلم ، ويسلم بأن المدح أو اللوم جزاء طبيعى للذنب، ويتوقف أثرهما على مبلغ حب التلاميذ للمدرس ، واحترامهم له . وليس فى استطاعة المدرس أن يحتفظ بشخصيته ومنزلته الا اذا ضبط شعوره ، وملك نفسه عند العقاب . كى يكون لمدحه ولومه ، واستحسانه واستهجانه أثر فى نفوس تلاميذه، فاذا تهاون فى ذلك فقد شخصيته ، وذهبت هيبته، وقل اكتراث التلاميذ له ، وضاعت من نفوسهم قوته الأدبية التى كانوا يشعرون بها ، وسواء عليهم أرضى أم سخط .

وان أكبر وسيلة يملك بها المدرس نفوس تلاميذه أن يشعروا دائما بأنه محب لهم يعمل لمنفعتهم ، ويخلص فى سبيل اسعادهم وتقدمهم،ولو شعر التلاميذ بهذا الحب لأخلصوا فى اطاعة المدرس ، واتباع نصحه ، فيسود النظام ، ويسلك الجميع سبيل النجاح ، من غير حاجة الى ضرب أو كثرة لوم ، أو تعنيف ، فينبغى أن يأخذهم المدرس بالحسنى ، ويعاملهم بلين ورفق مع الحزم والحكمة ، حتى يشعر المخطىء بخطئه ، ويعترف المذنب بذنبه .

ويكفى (سبنسر) فخرا أنه وضع للمدرسين الطريقة المثلى التى بها

يستولون على أفئدة التلاميذ ، ويسيطرون على قلوبهم • وبين لهم كيف يبثون فى نفوسهم حب النظام ، والتحلى بالآداب والاخلاق ، واتباع الأنظمة والتقاليد •

١٨ ـ ذاكرة الطفل :

ان لدى الطفل ذاكرة قوية ، ولكننا لا نريد ارهاق تلك الذاكرة بحفظ أشياء عن ظهر قلب لا يدرك لها معنى • ولن يكلف (اميل) حفظ « خرافات لافونتين (١) » مهما تكن مشوقة جذابة ، فروسو ضد الحفظ عن ظهر قلب ، وخاصة اذا كانت القطعة غير مفهومة ، وفى نظرنا أنه ليس هناك ما يمنع من الانتفاع بتلك الذاكرة القوية التى لدى الطفل فى حفظ شعر الطفولة ، وأناشيد الطفولة ، تلك الاناشيد الموسيقية السهلة التى تلائم ميول الطفل ، ولا يجد صعوبة فى فهمها ، ولكن قبل البدء بمطالبته بالحفظ يجب أن نتحقق أنه يفهم القطعة كل الفهم ، أما حفظ الشىء وترديده كما تردده الببغاء فلا يقول به أحد من المربين اليوم •

انك تدعى أن الوقت ثمين ، ولا تود أن تضيعه ، ونحن نعلم أن الوقت ثمين حقا ولهذا ننادى بحسن استخدامه والانتفاع به فيما يفيد• فلا تحاول تعليم الطفل أشياء بعيدة عن ادراكه وفهمه ؛ فخير للطفل ألا يفهم شيئا مطلقا من أن يفهمه خطأ •

وفى استطاعة الطفل أن يفهم اذا وجد المادة التى تلائمه ، المادة التى تتصل به فى الحاضر وتلذ له ، وقد نخطىء فنظن أن الطفل فاهم مع أنه لم يفهم شيئا • وقد نطالبه بالتفكير فى أمور لا يستطيع أن يدركها أمور بعيدة عن المحسات ، أمور معنوية لا يمكنه ادراكها ، وهذا هو الخطأ كل الخطأ فالمادة التى نطالب الطفل المسكين بها يجب أن تكون سهلة واضحة حتى لا تكون غريبة على عقله ، بعيدة عن ادراكه ، فاذا كانت المادة ملائمة انتبه اليها ، وان كانت الأخرى انصرف عنها بالعبث واللهو •

ماذا يعلم بعض المدرسين تلاميذهم ؟ انهم يعلمونهم كلمات ، وكلمات فقط ، ولم يحسنوا اختيار المواد الدراسية لهم ؛ فهم يختارون لهم حقائق

---

(١) La Fontaine's Fables

جافة بعيدة عن عالم الأطفال ، لاصلة لها بالحياة فى أى وقت من أوقات الحياة ، فالجغرافية التى يدرسونها مملة ، والتاريخ كله حقائق جافة ، واللغة كلها فلسفة ، يستحيل عليهم ادراكها فى طفولتهم الأولى • وهل يمكن أن تعلم اللغة بحفظ كلمات ، وتهجية مفردات ، وترديد ألفاظ ؟ وما الفائدة من مطالبة الطفل بحفظ كلمات لا يستطيع استعمالها فى كتابته أو محادثته ؟ وما الفائدة من مطالبة طفل بحفظ مئات من الكلمات المهجورة التى لايراها الا فى دروسه الجافة ، وكتبه المملة ؟ ولماذا نرهق الأطفال فى طفولتهم بتعلم تلك الأشياء ؟ هل اللغة كلمات فحسب ؟ ولماذا نثقل على الطفل بمسائل رياضية معقدة ، وألغـــاز هندسية ، ومعادلات جبرية ، وهو لم يبلغ الثانية عشرة من عمره بعد ؟

فالطفل قوى الذاكرة ، وفى استطاعته أن يتذكر ، ولكننا نطالبه بما لا يدرك ، وهو مطالبته بالمحال ، وبما هو بعيد عن العقل والمنطق هذا ما لم يذكره روسو فى كتابته حرفيا ، ولكن هذا مايقصده فى نظرنا واعتقادنا ؛ فالطفل يرى ويسمع ، ويتأثر بما يرى وما يسمع ، ويتذكر ما قاله أخوه ، وما فعلته أخته ، وما يحيط به ؛ لأن هذه الأشياء تتصل ببيئته ، وتلائم ميوله ، فهو يتعلم كلمات جديدة ولا يشعر بأنه يتعلم ويفيد آراء حديثه ولا يجد صعوبة فى قبولها • فاذا أردنا أن نربى الطفل تربية حقا وجب أن نختار له المواد التى يدرسها ، المواد التى تلائمه ، وتناسب سنه وادراكه ، وبيئته التى يعيش فيها ، ولو أننـــا فى ذلك نخالف روسو كل المخالفة ؛ فهو لا يريد أن نعلمه شيئا قبل الثانية عشرة أى لا نعلمه تعليما منظما قبـل تلك السن ، ولكننا نخالفه ، وننـادى بتعليمه بطريقة مشوقة جذابة فى بيئة سارة ــ المواد التى تتصل بفطرته وطبيعته ، من غير ارهاق او اجهاد •

اننا لا نود أن نحشو ذاكرة الطفل بكلمات منفردة لا يدركهـــا ، ولكننا نريد أن نعلمه ما يحتاج اليه ، وما ينتفع به فى حيـــاته العملية والعلمية •

نريد أن نعنى بجسمه كمـا نعنى بحواسه وعقله وقلبـه ووجدانه وذوقه ؛ لنكون منه رجلا كاملا ، سليم العقل والجسم والوجدان ، محترما بين غيره من الرجال •

وفى دراسة الجغرافية نعطى الأطفـال وصفا للأرض ، ونظن أننـا علمناهم كل الحقـائق الجغرافية بمعرفة الكرة الأرضـية • والحق أنهم لم

يدركوا من الجغرافية أكثر من ذلك المصور الجغرافى الذى رأوه ! اننا نعلمهم أسماء الاقطار والممالك والبلاد والبحار ، والأنهار والبحيرات ، ونطالبهم بحفظها ، فى حين أنهم لا يدركون لها وجودا فى مكان آخر غير المصور الجغرافى ؛ فالعالم فى نظرهم هو الكرة الأرضية التى يأخذونها . وهذه هى الجغرافية التى يتعلمونها ؛ فالطفل الذى انتهى لدينا من المدرسة الابتدائية لا يعرف كيف يسافر : من القاهرة الى المنصورة أو السويس ! ولا يمكنه فى نظر روسو أن يسافر من باريس الى (سانت دنيس (١)) واننا نلحظ أن المصور الجغرافى الذى يراه فى المدرسة الابتدائية هو الذى يراه فى المدرسة الثانوية ، وهو الذى يدرسه فى الجامعة ؛ كأن مستوى التلميذ واحد فى جميع مراحل التعليم ، وهو رأى لم يقل به أحد مطلقا !

وفى دراسة التاريخ نحسب أن التاريخ ملائم للأطفال ؛ لأنه مجموعة من الحقائق التاريخية ، ولكن هل يستطيع الطفل أن يدرك تلك الحقائق ؟ ان الطبيعة قد وهبت له مخا يتأثر بالمؤثرات المختلفة التى ترسلها اليه أعصاب الحس ، ولكن ليس معنى هذا أن نحشو ذاكرته بأسماء الملوك وتاريخ ميلاد كل منهم ووفاته ، ونحكم عليه بحفظ هذه الأسماء والتواريخ كما نحكم عليه باستظهار الاصطلاحات الجغرافية والفلكية ؛ فهذه الكلمات والاصطلاحات كلها لا معنى لها فى نظر الأطفال ولا فائدة منها للرجال ، فلم نكلف الأطفال أشياء لا يدركونها ، ونحملهم مالا طاقة لهم به ، ونثقلهم بأعمال لا حاجة اليها ، ونجعل طفولتهم مملوءة بالحزن والشقاء فى حين أننا نترك الأشياء التى يجدون فيها رغبة ولذة وشوقا ، ونهمل البيئة التى تحيط بهم كل الاهمال .

فالبيئة الطبيعية التى تحيط بالأطفال هى الكتاب الذى يجب أن يتعلموه أولا . وقد حمل روسو حملة شعواء على سوء اختيار القصص التى يسمعها الاطفال ، وأخذ يحلل تحليلا منطقيا كل عبارة من قصة (الغراب والثعلب (٢)) للكاتب الفرنسى القدير (لافونتين (٣)) ، مع سهولتها وجمالها ، مناديا أن يعيش (اميل) فى عالم الحقيقة لا عالم الخيال ناسيا أن الخيال مبنى على الحقيقة، وأن لتربيته أثرا كبيرا فى عالم الابتكار والاختراع ، فما كان يعد خيالا بالأمس أصبح حقيقة اليوم : فقد حاكى

---

(١) St. Denis

(٢) The Raven and The Fox

(٣) La Fontaine

العلماء والمخترعون السمكة فى غوصهـــا ، فابتكروا الغواصة ، وحاكوا الطيور فى طيرانها ، فاخترعوا الطائرة ، وبالخيال الابتكارى قد وصـل العلماء الى عالم الفضاء وسيصلون الى كثير من المخترعات والمبتكرات ٠

اقرأ ماكتبناه عن « التخيل » فى الجزء الثانى من كتابنا « فى علم النفس » ٠

١٩ ـ المحاكاة والعادة لدى الطفل :

اننا بالتكلم كثيرا مع الطفل عن الفضـــيلة نوحى اليه بالرذيلة ، وبنهيه كثيرا عن الرذيلة نوحى اليه بارتكابها ٠ وبالتكلم كثيرا عن الصدق نوحى اليه بالكذب ؛ لهـــذا يحسن ألا نلجأ فى التربية الى كثرة القول والوعظ والارشاد ، بل نلجأ الى القدوة الحســـنة ، والمثل الكاملة التى يراها الطفل فيحاكيها ٠

ولتعويد الطفل التصدق والاحسان الى الفقراء والمســـاكين لا يرى روسو أن نعطى (اميل) قطعة من النقود ليعطيها الفقير ؛ لأن الطفل فى نظره لا يعرف معنى الاحسان ، ولا يدرك معنى الصدقة ، ولا يقدر قيمة ما يعطيه ، واذا أردت أن تعرف ما يدركه الطفل عند اعطائه الفقير شيئا فكلفه أن يعطيه الكعكة التى فى يده ، أو اللعبة التى يلعب بها ، أو مائة جنيه تضعها أمامه ، تجد أنه يفضل اعطاء الفقير ما فى يده من الجنيهات ، ولا يحب أن يعطيه قطعة من الكعك ، أو لعبة من اللعب ! ولهذا ينصح روسو ـ لتعويد الطفل الصدقة والاحســـان ـ أن نحسن نحن أمامه ، ونتصدق على مرأى منه ، ونفهمه أن هذا شىء عظيم لا يقوم به الا الكبار ، كى يحاكينا فيما بعد فى التصدق على الفقراء والمساكين ، بطريق القدوة والمحاكاة ٠

أما (جون لوك) الفيلسوف الانجليزى فيرى أن نعود الأطفال من الطفولة السخاء والكرم والتصدق والاحسان ، حتى يعتادوا هذه الاشياء من الصغر ، وتتمكن منهم فى الكبر ، ولو لم يدركوا معنى السخاء والكرم أو الصدقة والاحسان ٠ فروســـو يريد أن يعوده الفضـــيلة بالمحاكاة والقدوة ، أما (جون لوك) فيريد أن يعوده بالعمل والطريقة العملية ٠ وهى فى نظرنا أشد أثرا فى النفس من طريق المحـــاكاة ؛ فاذا اعتـــاد الأطفال الفضـــيلة بطريقة عمليـــة فى الطفولة أمكنهم فى المســـتقبل أن يحسنوا حبـــا للاحسان ، وأن يصدقوا حبـــا للصـــدق ، وأن يتمســـكوا

بالفضيلة للفضيلة ذاتها . ويرى روسو أن الانسان حيوان محاك ، وأن كل انسان يعمل الخير بفطرته ، لا فرق فى ذلك بين الرجل الخير والرجل الشرير الا فى الدرجة ، فالشرير قد يعمل الخير وقد يسعد فردا فى سبيل اشقاء جماعة وهذا هو السبب فى شقاء المجتمع .

٢٠ ـ لا قراءة ولا كتابة :

لقد بلغ (اميل) الآن من العمر اثنتى عشرة سنة ، وهو لا يعرف القراءة والكتابة وربما لا يعرف معنى (كتاب) . وقد تقول : « ينبغى أن يتعلم القراءة على الأقل » نعم سيتعلم القراءة حينما يشعر بفائدتها . وقد بذل روسو كثيرا من المجهود فى سبيل معرفة أحسن الطرق لتعليم الأطفال القراءة ، وابتكر لهم بطاقات ليتعلموا بها وكون لهم مطبعة ليتعلموا منها الحروف ، وجمعها وقراءتها . وقد سبقه (جون لوك) في اختراع حروف محفورة على قطع خشبية ؛ ليتعلم منها الأطفال القراءة فى الصغر ، ولم يحدد سن التعلم كما فعل روسو ، ولم يعتقد أن الوقت الذى يقضى فى تعليمهم القراءة قبل هذه السن وقت ضائع ، ولم يقل ان هذا النشاط ضائع كما قال روسو . وقد أراد روسو بهذا الانتظار الطويل أن نرغب الطفل فى القراءة ، ونشوقه اليها . فاذا وجدت الرغبة والشوق لدى الطفل كان من السهل أن يتعلم القراءة بأية طريقة من غير حروف مطبوعة ، على ورق مقوى أو خشب . فأهم باعث على تعلم القراءة بسهولة أن نرغب الطفل فى القراءة ، ونشوقه الى تعلمها ، حتى يجد فى ذلك لذة وسرورا .

ولتشويق (اميل) الى القراءة كان روسو يبعث اليه من حين الى آخر دعوة يزعم أنها من أبيه او أحد أقاربه او أصدقائه ، لتناول الغداء أو العشاء ، أو للاشتراك فى نزهة فى حقل من الحقول ، أو نزهة فى قارب فى النهر أو لحضور حفلة ، وكانت رسائل الدعوة تكتب بلغة سهلة موجزة واضحة كل الوضوح ، بحروف مكبرة ، فكان (اميل) اذا تسلم الرسالة أخذ يبحث عمن يقرؤها له ، فلا يجد أحدا يتلوها له فى الوقت الملائم ، فتضيع عليه فرصة الذهاب الى الغداء أو العشاء ، أو الرحلة أو النزهة أو الحفلة ولا يجد من يقرأ له الدعوة الا بعد فوات الفرصة ، وذهاب الوقت ، فيتمنى أن يتعلم القراءة ليكون قادرا على قراءة ما يتسلمه من الرسائل من غير احتياج الى أحد ، ثم ترسل اليه رسائل ثانية مختصرة مشوقة ، فيها أخبار سارة ، فيحاول أن يقرأها ، وقد يساعده غيره فى

قراءتها ؛ وربما لا يجد من يساعده في تلاوتها أحيانا ، فيحاول مرارا ، ثم يحاول ، حتى يستطيع فى النهاية أن يقرأ نصف الرسالة أو يقرأها بصعوبة ٠

ثم ترسل اليه دعوة ثالثة للذهاب غدا ليأكل القشدة التى يحبها ، ويميل اليها ، ولكنه لا يدرى الى أين يذهب ، أو مع من يذهب ؟ فيحاول أن يعرف المكان الذي دعى اليه ، ومن دعاه لأكل القشدة ، وبهذه الوسيلة وسيلة الترغيب والتشويق لا يحتاج الطفل الى ضغط أو شدة ؛ فهو يتعلم بميل ورغبة ، ويجد في نفسه شوقا الى التعلم ، ويجد فى التعلم لذة ومسرة ، فيقبل على التعلم بشوق حتى يستطيع أن يقرأ بنفسه ما يصله من الرسائل والمكاتبات ٠

وبالمثل يتعلم الكتابة ، يتعلمها بالترغيب والتشويق ، بأن تشوقه الى الرد على الرسائل التي يتسلمها ، فيعجز عن الرد ، فيبحث عمن يكتب له الجواب ، فلا يجد ، فيحاول أن يتعلم الكتابة بنفسه ، ويعمل بشوق ورغبة ، حتى يستطيع أن يكتب بنفسه ٠

فالطفل يتعلم بسهولة اذا كانت لديه الرغبة في التعلم ٠ واذا لم تكن لديه الرغبة وجب أن نشوقه الى التعلم ، ونرغبه فيه حتى يقبل عليه بكل قلبه ، ونتخذ معه الترغيب والتشويق ، لا الضغط والتهديد ، كى يتعلم فى أقل وقت ممكن ٠

ويرى روسو أن (اميل) سيتعلم القراءة والكتابة بطريقة التشويق والترغيب ، قبل أن يبلغ العاشرة من العمر ، ويعلل ذلك بعدم اهتمامه كثيرا بتعلمه قبل أن يبلغ الثانية عشرة من عمره ٠

وفى نظرنا أنه يجب أن نشوقه الى القراءة والكتابة كى يتعلمها بسهولة وهو فى السادسة أو السابعة ، حتى يقرأ ويكتب بسهولة ٠ وليس المهم أن نعلمه القراءة ، ولكن المهم أن نشوقه اليها حتى يكتسب عادة القراءة وحسن اختيار الكتب التى يقرؤها ٠

٢١ ــ أثر التربية الجسمية فى التربية العقلية :

ان للتربية الجسيمة أثرا كبيرا فى التربية العقلية ، فما يؤثر فى الجسم يؤثر فى العقل ، وما يؤثر فى العقل يؤثر فى الجسم ٠ وقد وضحنا ذلك فى كتابنا في علم النفس (١) ٠

---

(١) ارجع الى الجزء الأول منه ٠

فاذا أردت أن تربى ابنك أو تلميذك تربية عقلية صحيحة ففكر فى الناحية الجسمية كما تفكر فى الناحية العقلية · واجعله دائما فى حركة جسمية ، وشجعه على أن يقوم بكثير من التمرينات البدنية ، وربه ليكون قويا شجاعا ، سليم الجسم ، حسن الصحة ، حتى تجعله حكيما مفكرا ، صائب الرأى ، سديد التفكير · شجعه على أن يعمل ويكون نشيطا ، واسمح له بأن يجرى هنا وهناك ، ويصيح ويحدث ضوضاء ، ويكون دائما فى حركة ونشاط · فاذا استطعت أن تكون منه شابا قوى الجسم ، سليم الحواس ـ أمكنك أن تكون منه رجلا مفكرا ، قادرا على التفكير ، مصيبا فى آرائه وأحكامه ·

وهناك نوعان من الرجال يعيشان فى نشاط جسمى دائم ، وحركة مستمرة ، ولا يفكران الا قليلا فى التربية العقلية ، هذان النوعان هما الفلاحون والمتوحشون :

فالفلاح فى نظر روسو غبى أحمق ، أما المتوحش فرجل قوى الملاحظة حاد العقل ، مرهف الحس ، فمن أين أتى هذا الفرق ؟ ان الفلاح ينفذ ما يؤمر به ، أو يحاكى أباه فى فعله ، أو يعمل ما كان يعمله غيره · فهو متأثر بغيره ، يعمل كأنه آلة ، ويعمل العمل نفسه على الدوام متأثرا بما اعتاده ، وما أمر به مهملا ناحية التفكير والتجربة والابتكار ·

أما المتوحش فيختلف عن الفلاح كل الاختلاف ؛ فهو ينتقل من مكان الى آخر وليست له جهة معينة يعيش فيها ، وليس لديه أعمال خاصة يكلفها . وليس مكلفا باطاعة أحد ، ولا يخضع لغير ارادة نفسه · فهو مضطر أن يفكر فى كل عمل يتصل به فى حياته ، ولا يستطيع أن يتحرك حركة أو يخطو خطوة الا اذا فكر أولا فى النتيجة ، نتيجة الحركة التى يتحركها ، أو الخطوة التى يخطوها ، أو العمل الذى يقوم به · فبقدر ما يحرك جسمه ، ويعطيه الفرصة فى التمرن والمرانة يستنير عقله ، ويستقيم تفكيره ، فقواه العقلية والجسمية تسيران جنبا الى جنب ، وتؤثر كل منهما فى الأخرى ؛ فالعقل يؤثر فى الجسم ، كما أن الجسم يؤثر فى العقل · فمن من تلاميذنا يشبه الرجل الفلاح كل الشبه ؟ ومن منهم يشبه الرجل المتوحش ؟

ان تلميذكم خاضع دائما فى كل أمر من الأمور لسلطة أخرى تقوم بارشاده ، ولا يعمل الا ما يؤمر بعمله ، فكيف تنتظر منه أن يفكر اذا كنت تفكر بالنيابة عنه دائما ·

أما تلميذى ، وبعبارة أخرى تلميذ الطبيعة ، فقد اضطر من البدء أن يزود نفسه بكل ما يستطيع أن يزودها به معتمدا على نفسه ، غير مضطر الى الخضوع لغيره دائما ؛ فهو يحكم على الاشياء بنفسه ، وقد اعتاد أن يراها بنفسه ، ويفكر فى كل شىء يتصل به ويميل اليه ولا يحاكى محاكاة الببغاء ، بل يعمل ، ويعرف حق المعرفة كيف يقوم بكل شىء يحتاج اليه • وان كان يجهل ما يفعل فى العالم بعيدا عنه • وقد كان على الدوام فى حركة ، فاضطر أن يلحظ كثيرا ، ويلحظ أنواعا مختلفة من التأثيرات ، فكسب كثيرا من المعلومات بالتجربة من الطفولة ، ولكنه قد تلقى تلك الدروس فى طفولته من الطبيعة ، لا من المدرسين ؛ فهو يتعلم عرضا ، ويتعلم كثيرا ؛ لأنه لا يجد طريقة معينة فى مكان معين لتعليمه •

وفى ذلك يقول روسو : « أيها المعلم الشاب (١) ، انى أعلمك فنا مختلفا كل الاختلاف ؛ أعلمك التنظيم بغير مبادىء ؛ أعلمك أن تعمل كل شىء بعمل لا شىء • »

وقد قال روسو : « فى أول مرة من حياتى خرجت من جنيف حاولت أن أسابق حصانا وهو يجرى مسرعا فضحك منى جميع أطفال القرية ، وحسبوا انى معتوه حقا • وفى الثانية عشرة من عمرى قد تعلمنا من علم (الميكانيكا) فى الريف أشياء لا يفهمها الا علماء الطبيعة فى المجتمع العلمى ؛ فان الدروس التى يتعلمها التلاميذ بعضهم من بعض فى الملعب يفيدون منها أكثر من الدروس التى يتلقونها فى المدرسة مائة مرة • »

أنظر الى القطة حينما تدخل حجرة للمرة الأولى تجدها تنظر هنا وهناك ، تنظر فى كل ناحية وركن من الحجرة ، ولا تقف ساكنة لحظة واحدة ، ولا تستريح حتى تختبر كل شىء فى الحجرة اختبارا بكل دقة وعناية ، هكذا يفعل الطفل حينما يبدأ المشى ؛ فان ميولنا الفطرية الأولى تدفعنا الى دراسة الأشياء المحسة التى تتصل بالبيئة المحيطة بنا ؛ فالدراسة الأولى للانسان ينبغى أن تكون دراسة للطبيعة ، وعلومها التجريبية التى تتعلق بالمحافظة على النفس ؛ ففى الطفولة يجب أن نعنى بتربية الحواس ، وتربية الأعضاء ، وهى بضة غضة تتأثر بسهولة ؛ وفى تربية الحواس تربية للعقل ؛ فيجب أن نعنى أولا بتربيةالحواس ، ودراسة

---

(١) « Young tutor, I am teaching you a very different art, that of regulating without precepts and of doing everything by doing nothing. »

الطبيعة والأشياء المحسة . ويعد الادراك الحسى التفكير الاول للانسان ؛ فهو يدرك الأشياء التى يحسها ويجعلها أساسا للتفكير . وفى ذلك يقول روسو : «ان أقدامنا وأيدينا وأعيننا أول من يعلمنا العلوم أو الفلسفة» .

رأينا فى تربية الحواس :

ان قوة الطفل محدودة ، وليس فى استطاعته أن يحكم على الأشياء حكما سديدا كما يحكم الرجل ، ولكن فى استطاعته أن يرى بعينيه ، ويسمع بأذنيه ، ويشم بأنفه ، ويميز جميل الرائحة من كريهها ، ويذوق الأطعمة ويميز لذيذها من غيره ؛ لهذا يجب أن نعنى بتربية الحواس عناية تامة ، لأنها مهملة منسية . وتتطلب تربيـة الحواس تمرينهـا ، وحسن استعمالها ؛ كى ندرك الاشياء ادراكا تاما . وهناك تمرينات ـ بعضها جسمى وبعضها آلى يستخدم فى تقوية الجسم ، كالسباحة والجرى والقفز واللعب باليد ، وهى تمرينات جيدة ، ولكنها متصلة باليدين والرجلين غالبا ، فهى تمرن الأذرع والأرجل ، فهل لنا أذرع وأرجل فقط ؟ وأين أعيننا وآذاننا ؟ أليست هذه الأعين والآذان ضرورية للأيدى والأرجل ؟ فيجب أن نمرن كل حاسة من الحواس ، وننتفع بكل منها ، ونستعملها بقدر الاستطاعة : يقول روسو مخاطبا الطفل : « أيها الطفل ، قس وعد وزن ووازن . (١) » ونحن نقول أيها المدرس ، شـجع تلميذك على أن يستعمل حواسه، وشوقه الى العمل، ورغبه فى أن يبذل جهده ، ولا تكتف بالاشياء السطحية ، وعوده أن يرى نتيجة حركاته وأعماله وأن يصـلح غلطاته بنفسه ، حتى تكون أحكامه صائبة فى النهاية ؛ فبالتجربة والمرانة يستطيع أن يميز الخطأ من الصواب ، ويعرف الثقيل من الخفيف ، ويميز الطويل من القصير ، ويقدر الاثقال والاوزان ، والحجوم والمكاييل ، ويضع كلا فى مكانه الملائم له، فكلما كثر عمله وكثرت تجاربه تحسنت أحكامه.

ولسنا بدرجة واحدة فى استعمال جميع حواسنا ، ففاقدو البصر مثلا يعتمدون كثيرا على حاستى اللمس والسمع ؛ فلماذا لا نعلم المبصر المشى فى الظلام ، والعمل ليلا ، كما علم فاقد البصر العمـل بغير نور ؟ لماذا لا نعنى بحاسة اللمس كى ننتفع بها كما ينتفع الأكفاء ؟

قد تظن أن تعليم الطفل المشى فى الظلام سهل ، والحق أن الليل

---

(١) « Measure, count, weigh, and compare ».

مخيف للأطفال ، مخيف لبعض الرجال ، والخوف غريزي في الانسان ، ولكنه يزداد بالقصص المزعجة التي تذكرها المربيات للأطفال في صغرهم فاذا أردت تعالج طفلا يخاف الظلمة ويتخيل أشيئا مخيفة في الظلام فلا تناقشه ، ولا تلجأ الى البرهنة والتفكير ، بل سر معه في الظلام ، ودعه يمكث معك ، ويسر معك في الأمكنة المظلمة حتى يعتاد الظلام . دعه يضحك حينما يمكث أو يسير في مكان مظلم ؛ كي لا يتأثر بالظلمة ولا يخافها . وثق بأن هذا التمرين يؤثر في نفسه أكثر من تأثير المناقشة الفلسفية حول الظلام ، وعدم الخوف من الظلام . ولا يرى روسو ـ كما لا نرى ـ اخافة الأطفال أو ازعاجهم في الظلام .

اننا نقدر ارتفاع الأشياء وعمقها ، والمسافات بينهـــا ، تقديرا تنقصه الدقة . والسبب في هذا قلة التجربة ، وقلة استعمال الحواس : فالمهندسون والبنـــاءون والمساحون والمصـورون والرسـامون لهم أعين يبصرون بها ، وهم يحسنون تقدير الأشياء أكثر من غيرهم بمجرد النظر اليها ؛ فمن السهل تمرين الأطفال على استخدام حواسهم ، وتشـجيعهم على القيام بعمل يحتاج الى الحركة الحرة ، واللعب الحر .

وهناك كثير من الوسائل لتشـويق الأطفال الى قياس المســافات وتقديرها . وفي الريف تجد بعض الفلاحين ماهرين في تقدير المنتجـات الزراعية ، فاذا مر الفـلاح المصري الذكي بحقـل من القمح أو الذرة أو القطن أو الفـول اســتطاع أن يقدر لك ما ينتجه الفدان من الاردب أو القناطير تقديرا دقيقا . واذا مر بجرن من أجران القمح أمكنه أن يقدر عرمة القمح تقـديرا متفقا مع الحقيقـة . وفي استطاعة بائع الجواهر أن يقدر ما تقدمه له منها تقديرا لازيادة فيه ولا نقص . فهـو يعرف الشيء بمجرد النظر اليه ، ويحكم عليه حكمـا صائبا بمجرد رؤيته . ولهـــذا لا نستطيع أن نغشه .

قد يكون لديك طفل كسلان لا يميل الى الجرى ؛ فلكي تحبب اليه الحركة والجرى خذه معك للرياضة بعد الغداء . وخذ معك كعكتين من الكعك الذي تحبه ، ثم أعطه كعكة وخذ لنفسك أخرى ، فيأكلها بنفس راضية ، ثم عودا كما ذهبتمـا ، وفي يوم آخر خذ كعكات وأعط واحدة منها ، وخذ لنفسك واحدة وأبق الثالثة ؛ فاذا أكل كعكة وطلب الكعكة الباقية فارفض اعطاءه اياها ، وقل له : ان من السهل أن آكلها أنا أو أقسمها بيننا ، أو تعمل سباقا في الجرى بين غلامين وتعطيها الفائز منهما

فاذا رضى الغلامان بالسباق عينت مسافة للسباق من مبدئه الى نهايته. ثم تذهب لانتظار المتسابقين وتعطى الاشارة فيجريان ، وتسلم الفائز أمام الرائين الكعكة وبرؤية هذه التجربة يبدأ الطفل الكسلان يدرك أن للجرى فائدة ، ويشعر بأن له رجلين يستطيع أن يجرى بهما كغيره من الغلمان ، فيتمرن على الجرى لينجح فى السباق فيما بعد ٠

وفى الوقت الذى يشعر فيه بأنه قادر على أن يتسابق هو وغيره فى الجرى لينال جائزة السباق قدر مسافة السباق ، وشجعه على أن يسابق فانك سترى أنه ينزل الى السباق ، ويبذل كل ما أوتى من نشـــاط ، وينال الجائزة ٠ ولـكى تنشطه وتشجعه على الجرى اجعل المسافة قصيرة وأبعد المهرة فى الجرى عن السباق ، حتى يفوز وينال الكعكة أو الجائزة ٠ ولكثرة فوزه فى الجرى يصبح حكما ، ويقسم الكعكة بينه وبين المهزوم من زملائه ويتعلم الكرم ٠

ويمكنك أن تعود المتسابقين الجرى من أمكنة مختلفة الى مسافات مختلفة ، واترك لتلميذك الحرية فى الاختيار تجد أنه يختار دائما الطريق السهل المعبد وبالمرانة يستطيع الجرىوالسباق وتقدير المسافة ، ويقدرها بمجرد النظر بغير حاجة الى أن يقيسها ، يقدرها بنظرة واحدة ــ تقديرا صحيحا ــ كأنه كان يقيسـها بسلسلة ٠ فبـالمشى واللمس والاحصـاء والقياس يتعلم تقدير الأشياء ، واننا لو عودنا أنفسنا قياس تلك الأشياء بالمقاييس لاعتادت الحواس الاتكال على المقاييس فى تقـــديرها تقديرا مضبوطا وبالتدريج والمرانة يمكنه أن يتعلم تقديرها بالنظر أولا ؛ وليس هناك ما يمنع من تقديرها ثانية بالقياس ليصحح خطأه ٠

الرسم :

ان الأطفال يميلون كثيرا الى المحاكاة ، وكلهم يحاولون الرسم ، وسيدرس (اميل) فن الرسم لا من أجل الرسم نفسه ، ولكن لنربى يديه وعينيه ٠ فالمهم تربية حواسه ٠ ولم يرسل (اميل) الى مدرس رسم ليعلمه ، لأنه سيترك الأصل ويعلمه الرسم من صـور تقليدية ، تحاكى صورا أخرى ، فى الوقت الذى ينبغى أن يحاكى الطبيعة ، ويتعلم من الطبيعة ذاتها ، ويحاكى ذوات الأشياء نفسها لا صورها المقلدة ، ذلك بأن يضع الشىء أمام عينيه ، ويرسمه بنفسه لا الصـــورة التى تمثله ٠ انه يرسم المنزل الذى يراه ، ويرسم الشجرة من الشجرة ،

ويرسم الرجل من الرجل ، لا من صورة للمنزل أو الشجرة أو الرجل ، كى يعتاد الدقة فى ملاحظة الأشكال والأجسام ذاتها ٠

وليل روسو لتصوير الحقيقة كما هى ، والرسم من الطبيعة كما هى ، لايشجع الرسم من الذاكرة ، بل يشجع الرسم من الطبيعة ، ليكسب ذوقا من جمال الطبيعة ٠ ولا يشجع الرسم من الذاكرة خوفا من أن تكون بعيدة عن الحقيقة ، بعيدة عن الطبيعة ٠

وبالرسم من الطبيعة لذوات الأشياء يكسب الطفل فى النهاية مرونة فى اليد ، ومهارة فى الرسم ، ودقة فى النظر ٠ ويدرك العلاقة بين حجم الحيوان والنبات والمواد الطبيعية الأخرى وأشكالها ، فالغرض من الرسم معرفة ذوات الأشياء لامحاكاتها ٠ ولن ينافس أحدا من التلاميذ ولن يناقشه أحد ، بل سينافس المدرس ، كى لا يكون هناك أثر سيىء للمناقشة ، كالحقد والضغينة والغيرة ٠ وسأمسك بقلم الرصاص ، وأرسم فى الوقت الذى يرسم فيه ، وأجعل الرسم تقريبيا فى البدء ، حتى يمكنه السير معى ٠ ولن أنتظر منه فى الدرس الأول أن يرسم كما أرسم ، وسأرسم الرجل فى البدء كما يرسمها الأطفال عادة ٠ وقد يرسم الذراع خطا ، وقد يرسم الرجل خطا ، وقد يجعل الاصابع أكبر من الأذرع ٠ وبعد قليل سيبدى أحدنا ما يلحظه على هذا الرسم ، وسيرى أن من الواجب أن نراعى النسبة فى الرسم ، وأن يرسم الاصبع أصغر من الذراع ، والذراع أصغر من الرجل ٠ وسيلحظ الطول والقصر والعرض والارتفاع والغلظ ، وسأسير معه خطوة خطوة ، أو أتقدم عليه قليلا ، ليستطيع أن يصل الى ويدركنى ، أو يسبقنى ويغلبنى ٠ وسيكون لدينا « فرش » وأقلام للتلوين ، ونحاول أن نحاكى الطبيعة فى أشكالها وألوانها وصورها ، ونلون الرسم ونزخرفه ولو بالتقريب ، ونلاحظ الطبيعة دائما فى رسمنا وتلويننا ، تحت رقابة مدرسنا ٠

لقد كان لدينا صعوبة فى تزيين حجرتنا ، أما اليوم ففى استطاعتنا أن نزينها بما يرسمه (اميل) من الصور الطبيعية ، وسنضع الرسم فى أطر خاصة مغطاة بالزجاج ، كى لايمسها أحد ، ولتبقى كما وضعناها، لهذا سنرسم بعناية ، ولن نهمل الرسم ٠ وسننظم تلك الرسوم حول الحجرة ، وسيكرر (اميل) كل رسم عشرين مرة أو ثلاثين ، حتى يجيده كل الاجادة ٠

واذا أردت أن تعرف مقدار نجاحه فى الرسم فوازن بين رسمه

الأول ورسمه الأخير تجد الفرق بينهما واضحا • فاذا أراد أن يرسم منزلا فقد يرسمه رسما تقريبيا على شكل مربع ، ولكنه فى النهاية يرسم منزلا بمدخله وجوانبه وحديقته ، ويظلله الظل الملائم ، مع مراعاة النسب بين الحجر بعضها وبعض ، بحيث يمثل هذا الرسم المنزل الطبيعى الذى يراه ويحاكيه •

هذه هى المراحل التى يسير فيها • وبهذه الوسيلة يمدنا (اميل) بصور جميلة يعجب بها كل من يراها • وبالموازنة بين كل صورة وأخرى يبدو مقدار تقدمه ومهارته فى الرسم • وحينما ينتهى من رسم الصورة ويجيدها نضعها فى اطار مذهب ، وربما نكتفى باطار ساذج أسود ، ولن تحتاج الرسوم بعد ذلك الى كثير من الزخرفة ، فهى رسوم طبيعية تتمثل فيها الطبيعة •

وحينما يلعب الطفل بالنحلة أو بكرة المضرب يمرن عينيه ويديه ، ويكسب جسمه قوة ، ويتعلم كثيرا من هذا اللعب الحر • وقد سئل روسو مرارا : لماذا لانشجع الأطفال على الألعاب التى تتطلب مهارة الرجل مثل كرة المضرب ، وكرة المائدة ، وكرة القدم ؟ ولماذا لانشجعهم على اللعب على الآلات الموسيقية ؟ فكان جوابه دائما : ان هذا اللعب فوق طاقة الأطفال ، وان بعضها يتطلب أعضاء قوية نامية •

وفى نظرنا أن اجابة روسو غير مرضية ولا مقنعة ، فنحن نعلم حق العلم أن الطفل صغير الجسم ، ليس كالرجل فى قوته أو نموه ، ومع هذا نلبسه حلة صغيرة تلائم جسمه ، وتشبه حلة الرجال • ونحن لانتطلب أن يلعب الطفل بكرة المضرب ، أو كرة القدم ، أو كرة المنضدة التى يلعب بها الرجل ، ولا ننتظر أن يلعب على منضدة مرتفعة كالمنضدة التى يلعب عليها ، ولا أن يكون ملعبه كملعب الرجل ، بل نتطلب أن نأتى له بمضرب صغير ، وكرات صغيرة ، ومنضدة صغيرة تلائم طوله وقامته ، ويده وسنه ، وملعبا صغيرا ، وحجرة مخصوصة بلعبه خالية من الزجاج ، كى يتمتع باللعب الحر ، فيلعب متى شاء ، ويمرن نظره ويده وأعضاءه كما يريد •

وهناك ألعاب تصلح للبنين ولا تصلح للبنات ، وألعاب تصلح للبنات ولا تصلح للبنين ، فينبغى أن نختار لكل نوع ما يناسبه من اللعب والألعاب •

ولكى نجعل الطفل رجلا قويا ، صحيح الجسم ، قادرا على الدفاع

عن نفسه يجب أن نعطيه الفرصة فى أن يلعب ويبذل مجهودا جسميا ، يهجم ويهجم عليه . فاللعب يقوى النظر واليد والعضلات ، فقفزه من جانب الى آخر فى ملعب الكرة يجعله نشيطا قويا ، يستطيع أن يحكم على الكرة ، ويدرك موضع نزولها ، ويعيدها بضربة قوية ، برجله أو مضربه . وليس الغرض من هذه الألعاب المسرة واللذة فحسب ، ولكن الغرض تكوين رجال أقوياء الجسم شديدى الملاحظة ، فاللعب طبيعى يميل اليه الانسان بفطرته ، ويحتاج اليه الجسم . وكل طفل ينبغى أن يشجع على أن يلعب حتى يشبع ميوله ورغبته ، يلعب اللعب الذى يميل اليه من غير ضغط عليه ، كى لا يشعر بسآمة أو ملل أو تعب .

الهندسة :

يرى روسو أن الهندسة فوق مستوى الأطفال ، وأن المدرسين يختارون لهم من الهندسة مالا يلائمهم ، وهذا هو الخطأ كل الخطأ ، فما يلائم الأطفال لا يلائم الكبار ، وما يلائم هؤلاء لا يلائم أولئك ، فاذا كانت الأمور المعنوية تلائم الكبار فالأمور المحسة تلائم الصغار . وبدلا من أن نعلم الأطفال بالطريقة التى تناسب الكبار ينبغى أن نختار للأطفال من الطرق ما يلائمهم . فنحن فى دراسة الهندسة نعطى التلميذ التمرين الهندسى ، ونتخيل الدليل والبرهان ، ونحاول بما عرفناه من الفروض ومن النظريات والنتائج والتمرينات — أن نصل الى النتيجة والمطلوب . هذا كله فوق مستوى الأطفال . وبدلا من أن نتعلم البحث عن الدليل نمليه على الأطفال . وبدلا من أن نعود الطفل التفكير بنفسه ولنفسه نحمله على أن يعتمد على ذاكرته ، ويحفظ ما نمليه عليه من البراهين والأدلة ، مع أن الأطفال لايدركون التعريفات . ولا يستطيعون أن يفهموا النظريات أو النظريات الهندسية . ولا يمكنهم أن يصلوا الى البرهنة والدليل ، ولكن فى استطاعتهم أن يرسموا صورا هندسية دقيقة ، ويرسموا رسوما جميلة ، ويرتبوها ترتيبا منظما ، ويدركوا العلاقة بينها بما يلاحظونه عليها من ملاحظات فنية ، تدل على قوة الملاحظة ، لهذا كله لاينصح روسو بتعليم (اميل) الهندسة النظرية ، ولكن (اميل) سيعلم روسو الهندسة ، وسيسأله مربيه عن العلاقة بين الأشياء ، وسيجتهد (اميل) فى البحث عنها حتى يجدها ويدركها ويصل اليها .

فالمدرسون يهملون الدقة فى الرسم ، ويعنون بمعرفة البرهان ، أما نحن فعلى العكس ، لانهتم مطلقا بالبرهان ، ولكننا نهتم بالأمور المحسة التى تلائم (اميل) ونعنى برسم الخطوط مستقيمة ، ومستقيمة

تماما ، ورسم المربعات والدوائر بدقة ، بحيث يكون المربع مربعا ، وتكون الدائرة دائرة تماما · وللتحقق من الدقة فى الرسم نختبر ما نرسمه ونقيسه · وبهذا نعطى فرصة كل يوم لمعرفة خواص الأشياء · وسيتعلم (اميل) كيف يستعمل المسطرة والفرجار ، وكيف يرسم بغير مسطرة وفرجار ، ولن نسمح باستعمالهما الا قليلا ، حتى يعتمد على أن يرسم بنفسه رسما جيدا ، يبدو فيه الجمال والاتقان ·

الخطابة والموسيقا :

كما أن الرسم يعتمد على حاسة النظر الى ما فى الطبيعة ـ كذلك الخطابة والموسيقا تعتمدان على حاسة السمع · وليس فى استطاعة الأطفال أن يعبروا فى خطابتهم أو غنائهم التعبيرات العاطفية ، لأنهم لايدركون هذا النوع من التعبيرات التى تتعلق بالعواطف ، لهذا يجب أن يكون صوته فى الغناء صوتا طبيعيا مرنا يمثل الحقيقة كل التمثيل ، وان تكون أذناه موسيقيتين تتأثران بما تسمعان ، وتدركان مافى الموسيقا من جمال وتناسق ، أما الموسيقا التى تسمع فى الملاهى ، والتى يحاكى بها الموسيقيون فنون مسوى (اميل) ، ولن أسمح له باستعمال النغمات ، أما الكلمات فلن أسمح له باستعمالها فى الغناء · واذا رغب فى أن يغنى قطعة من القطع ألفت له قطعة موسيقية خاصة به ، سهلة العبارة والفكرة ، تلائم ميوله ورغبته · واننى لم أتسرع فى تعليمه القراءة العادية ، والكتابة المعتادة ، ولن أتسرع فى تعليمه قراءة المذكرات الموسيقية ، فالنغمة الموسيقية من الممكن أن تصل الى الأذن ، فتعيدها الأذن كما سمعتها ، وتتأثر الأذن عادة بما تسمع من النغمات الموسيقية أكثر من تأثر العين بما تقرؤه من المذكرات الموسيقية ، ولكى يفهم (اميل) الموسيقا جيدا لا يكفى أن يكون قادرا على فهم ما وضعه غيره من القطع الموسيقية ، بل يجب أن يتعلم تأليف هذه الأغانى والأناشيد بنفسه ، فتعلمه الغناء من جهة ، وتأليف القطع الموسيقية من جهة أخرى فى الفرص التى تحين ، حتى يكون موسيقيا ماهرا ·

٢٢ ـ اللبس والنوم والرياضة

يقول روسو : « يجب تجنب الملابس الضيقة ، والملابس الغالية للأطفال · »

كثيرا مانرى الأمهات المولعات بأولادهن يلبسنهم ملابس ضيقة ،

ويخترن لهم ملابس غالية . وكثيرا مايهدد المدرس غير الخبير تلاميذه بمعاقبتهم بالاتيان لهم بملابس خشنة عقابا لهم . فكأنك تقول للتلاميذ : ان الانسان يحكم عليه بملابسه، وتقدر قيمته بما يلبس . فليس من الصحة أن تضايق الطفل بالملابس الضيقة . وليس من الحكمة أن تغلو في اختيار الملابس الغالية له ؛ فالطفل حينما يلبس تلك الملابس الثمينة تقيد حريته ، وتحكم عليه أمه بعدم الحركة ، وتضحى بنشاطه وسروره وحريته في سبيل الملابس التي يلبسها . فينبغي أن نلبسه ملابس خفيفة تصلح للهواء الطلق ، تتمثل فيها الفطرة . وليس من الضروري أن نحكم عليه بلبس قلنسوة على رأسه .

ويرى « جون لوك » الفيلسوف الانجليزي اعطاء الطفل حماما باردا في الصيف ، وعدم السماح له بشرب ماء بارد حينما يكون حران. كما لا يسمح له بالجلوس على الأرض الرطبة خوفا من أن يتأثر برطوبتها، وهو بذلك يخالف روسو ، اذ يقول بتدفئة ماء العيون في الصيف عند الاستحمام به .

ومعنى ذلك ألا يستحم الطفل بالماء البارد صيفا ، وفي اعتقادنا أن الأمر يقوم على مايعتاده الطفل ، فمن الممكن التدرج معه حينما يبدأ الصيف ، بأن يستحم بالماء الفاتر أولا ، ثم بالماء المطلق ثانيا .

ان الطفل يحتاج الى كثير من النوم ؛ لأنه يقوم بقسط كبير من الحركة الجسمية ، والرياضة البدنية ؛ وقد حددت الطبيعة وقت الراحة والنوم بدخول الليل . قال جل شأنه : « وجعلنا الليل لباسا . » ومما لاريب فيه أن النوم يكون هادئا وعميقا ليلا ، وخفيفا نهارا . فمن العادات الصحية الهامة أن ينام الطفل عند غروب الشمس ، ويستيقظ عند شروقها . وهو في حاجه الى أن ينام في الشتاء أكثر من الوقت الذي يحتاج اليه صيفا . ولكننا نقول : ان الحياة المدنية ليست من الحرية والطبيعة بحيث يمكن تعويد الطفل نظاما معينا في يوم من الأيام فنحن نرى أن تنظم حياة الطفل من غير شك ، ويسير على مواعيد منظمة ، وينام في أوقات خاصة مدة معينة ، بشرط أن يعود القدرة على مخالفة هذه القواعد عند الضرورة ، فالطفل يجب أن يكون قادرا على السهر عند الحاجة في ليلة من الليالي ، وأن يكون قادرا على الاستيقاظ مبكرا قبل الوقت المعتاد اذا اقتضت الأحوال ذلك ، وعلى أن يوقظ فجأة من النوم ، ويسهر أحيانا طوال الليل ، من غير أن يشعر بضرر أو ضيق اذا تطلبت الأحوال الايقاظ أو السهر ، فنحن في المجتمع لن نترك الطفل لقانون الطبيعة وحدها ، فهو

فى المجتمع مضطر لأن يضع نفسه فوق هذا القانون ، فحياة الانسان يجب أن تكون منظمة ويجب أن يكون قادرا على أن يعيش على حسب الأحوال التى تتصل به فى حياته ، بدون ابداء اضطراب أو ألم ، وينبغى أن يعود الطفل النوم فى كل مكان ، وعلى كل فراش ٠

وقد قلنا فى الجزء الثانى من كتابنا « فى علم النفس » (١) : ان النوم أكبر مجدد للصحة ، ولا يقل فى تأثيره فى حياة الطفل عن الطعام ذاته ؛ فالرضيع يقضى معظم أوقاته نائما ، وفى أثنـاء الطفولة يحتاج الطفل الى مدة طويلة من النوم ٠ وتقل مدة النوم بالتدريج حتى يصل الصبى الى البلوغ ٠ وجميع الأطباء ينادون بضرورة النوم للأطفـال ٠ وينتقد الانجليز منهم مدارس الخاصة ؛ لأن التلاميذ فيها لا ينامون المدة الكافية ٠ وقلة النوم مضرة بصحتهم ، مجهدة لأعصابهم ، ولا يجدون كل الهدوء والسكون فى حجرة النوم ٠ ولا يكفى أن تكون مدة النوم طويلة ، بل يجب أن يعم الهدوء والسكينة غرف النوم متى حان موعده ، بعـد ذهاب التلاميذ الى فراشهم فى الوقت الذى تعينه المدرسة لهم ٠ ويجب ألا يزعج التلاميذ ــ فى المنزل أو المدرسة ــ بمن يأتى متأخرا منهم الى فراشه ٠

أما الأطفال الذين يضطرون الى أن يستيقظوا مبكرين فى الصباح فيجب أن يعودوا النوم مبكرين فى المساء ؛ فاذا ما ذهبوا للنوم فى وقت معين اعتادوا الذهاب الى الفراش والنوم فى ذلك الوقت ٠ أما حجرة النوم فيجب أن يطفأ النور فيها بعـد ذهاب التـلاميذ الى أسرتهم ؛ لأن الذين ينامون نوما خفيفا منهـم ، ويستيقظون لأقل صـوت أو حـركة لايستطيعون فى الغالب أن ينامواالا فى الظلام ٠ وهؤلاء الذين يستطيعون أن يناموافى النور لا يمـكنهم أن ينامواً نوما عميقـا ، فيجب أن نعنى باطفاء الأنوار عند النوم ، ونعود التلاميذ السكون والهدوء فى غرف النوم ٠

وشكوى الأطفال قلة الراحة ، والاجهاد العصبى ربما لاتظهر نتائجه السيئة فى الحال ، ولكنها ترى فيما بعد ٠ وقد لحظ كثير من المربين أن الأذكياء والمهرة من الأطفال اذا ارهقوا فى المدرسـة فى أثناء الطفولة ارهاقا كبيرا قضى على نشاطهم بعد الطفولة ٠

---

(١) ارجع الى الفصل العاشر من الجزء الثانى من كتاب (فى علم النفس) للأسـتاذين حامد عبد القادر ومحمد عطية الأبراشى صفحة ٣٣٤ من الطبعة الثانية ٠

ولنقتبس فيمـــا يلى جدول الدكتور ديوكز Dukes عن مدة النوم التى يحتاج اليها تلاميذ المدارس فى الأسنان المختلفة : ـ

تلاميذ عمرهم أقل من ست سنوات يحتاجون الى ١٣ ساعة ٠

« « ست سنوات يحتاجون الى ١٢½ ساعة ٠
« « ٧ سنوات يحتاجون الى ١٢ ساعة ٠
« « ٨ سنوات يحتاجون الى ١١½ ساعة ٠
« « ٩ سنوات يحتاجون الى ١١ ساعة ٠
« « ١٢ سنة يحتاجون الى ١٠½ ساعة ٠
« « ١٣ ـ ١٤ سنة يحتاجون الى ١٠ ساعات ٠
« « ١٥ ـ ١٦ سنة يحتاجون الى ٩½ ساعة ٠
« « من ١٧ الى ١٩ سنة يحتاجون الى ٩ ساعات ٠

اميل وعمره ١٢ سنة

ان الساعة تدق ، وقد بلغ (اميل) الثانية عشرة من عمره ، وتغير نظره الى الأشياء وتفكيره فيها ٠ وهو سليم الجسم ، حسن الصحة، نما نموا يلائم سنه ٠ ويسرنى أن أفكر فيه وهو طفل ، وأن أفكر فيه وهو رجل ٠ وفى استطاعته أن يستعمل حواسه وعقله وقوته ، ونشاطه الجسمى ٠ ويدل شكله ومظهره على أنه سعيد واثق بنفســـه ، تتلألأ الصحة فى وجهه ، وخطواته ثابتة تدل على القوة والنشاط ٠ لا طراوة فيه ، ولا اصفرار فى لونه ، ولا ضعف ولا نحافة ٠ فى عينيه رصانة، وفى نظراته رزانة ٠ لم يتأثر بالحزن الطـويل ، ولم يتجعد خداه بمتـاعب الحياة ٠ ترى فيه نشاطا ، وفى حركاته ثباتا ، وفى مشيه حياة ، وفى أعماله استقلالا تاما ، اكتسب الخبرة والتجربة من التمرينات المتنوعة ٠ ويدل منظره على الحرية والصراحة الخاليتين من العجب والوقاحة ٠ انه مرفوع الرأس ، ولا يخاف شيئا : فهو جرىء ، لكنه لم يفعل مايخجل ، أو مايجعله يطأطىء رأسه ٠

ضعه فى مجتمع ثم اسأله ماتشاء من الأسئلة تجده يجيبك أجوبة سديدة باخلاص وشجاعة ٠ لايردد ما يردد غيره من الأجوبة كالببغاء ، ولا تنتظر منه الا الحقيقة المجردة التى لازخرفة فيهـا ولا تصنع ٠ اذا سألته عما يفكر فيه ، أو ما يقوم به من عمل ـ أجابك بالحقيقة ، سواء أكانت أفكاره حسنة أم قبيحة ، غثة أم سمينة ؛ واستعمل ماأوتى من مواهب فى خطابته باساليبها الفطرية ٠

ان (اميل) لن ينطق بكلمة الا اذا كان لها فائدة • ولن يذكر لك شيئا يؤلمك حينما تسمعه • ولن يتكلم الا اذا وجد من يحسن الاصغاء اليه • أفكاره محدودة ، ولكنها واضحة كل الوضوح • انه لم يحفظ شيئا عن ظهر قلب ، ولكنه تعلم كثيرا بالتجربة ، لاتنتظر منه الا الحقيقة البريئة الخالصة التى لا كذب فيها ولا رياء ؛ فهو يستعمل الكلمات والعبارات فى معناها الأصلى •

لقد قرأ من الكتب المعتادة أقل من غيره من الأطفال ، ولكنه قرأ أكثر منهم فى كتاب الطبيعة (١) • يفهم بعقله ولا ينطق الا بعد تفكير • فأحكامه سديدة ، وآراؤه صائبة انه لا يعرف الا لغة واحدة ، ولا يستطيع أن يتكلم الا بلغة واحدة • ولكنه يفهم مايقول ، ويقول ما يفهم • واذا لم يستطع أن يجيد الكلام كغيره من الأطفال فهو يستطيع القيام بأشياء كثيرة لا يستطيع غيره أن يقوم بها •

لقد انقضى وقت السرور واللعب ، وبدأ وقت العمل ، فوداعا أيها السرور ! وداعا أيها اللعب ! ان العمل واللعب لديه سيان ، فلعبه عمل، وعمله لعب ، ولا فرق فى نظره بين العمـل واللعب • وان رغبته فى العمل الذى يعمله تجعله يعمل راضيا مسرورا • وان الأعمال التى يقوم بها تدل على مقدار ذوقه وعلمه • أليس من المناظر الجميلة السارة أن ترى غلاما حسن المنظر ، براق العينين ، نشيطا فى عمله ، راضيا بما قدر له ، سعيدا فى حياته ــ يعمل مسرورا كأنه فى لعب •

لقد بدأ وقت التعلم ، فأخذه شـخص من يده قائلا له : تعال يا سيدى • وذهب به بعيدا ، ثم دخلا معا حجرة مملوءة من الكتب ، حجرة كلهـا كتب ، فيهـا أثاث غير معتنى به • فيدخـل (اميل) تلك المكتبة ، وينظر الى كل شىء حوله ، ولا ينطق بكلمة • تعال يا تلميذى المحبوب فيأتى (اميل) وهو يشعر بكثير من السرور حينما يقرب منى ، وأشعر بكثير من الفرح حينما أقرب منه •فكلانا يتبادل المحبة ، وهو يحبنى وأنا أحبه • أنا صديقه ورفيقه ، وشريكه فى عمله ولعبه • وهو يعلم حق العلم أنى لا أتركه طويلا من دون أن أبعث السرور فى نفسه • واننا على وفاق دائم ، وتعـاون مسـتمر ، ولا يتكل أحدنا على الآخر ؛ فكلانا يعتمد على نفسه •

انه لا يعرف معنى العمل المعتاد ، أو النظام المعتاد ، ولا يتقيد بزمن

---

(١) In the book of nature

معين ، أو عادة معينة ؛ فما فعله بالأمس لا يؤثر مطلقا فيما يعمله اليوم؛ فهو لا يخضع لعادات معينة ، أو أساليب وأنظمة خاصة لا يحيد عنها ، لهذا يتكلم بما يمليه عليه عقله ، ويحكم كما يرى بفكره ، ويعمل بما يشير به ضميره • فلا تنتظر منه حديثا معادا ، أو خطابة مكررة استعملها غيره من قبل ، ولكن انتظر منه أن يعبر بصراحة وأمانة واخلاص عن أفكاره انتظر منه أعمالا تلائم ميوله الخاصة .

تكلم معه عن الحرية والملكية تجده يفهم ما تقول ، لأنه يعلم لم تنسب هذه الأشياء له ، ولاتنسب الى غيره ؟ واذا تكلمت معه عن الواجب والطاعة وجدت أنه لايدرى ماذا تقول ؟ لأنه لايعرف الا قليلا من الأفكار الخلقية التى تتصل بعالم الأخلاق واذا أمرته بشىء ما وجدت أنه لن يفهمك ، ولن يكترث لأمرك • ولكن اذا قلت له : (اذا فعلت معى هذا المعروف ، أو هذا الصنيع قابلت المثل بالمثل فى يوما ما) جرى مسرعا ، كى يعمل لارضائك!

واذا نظرت اليه استطعت أن تقول : انه قد تمتع بطفولته كل التمتع ، ولم يحرم شيئا وهبته له الطبيعة • ولايدرك هذه التربية المبكرة على حقيقتها سوى البعيد النظر من المربين •

واذا احتاج (اميل) الى مساعدة طلبها من أول شخص يقابله ، سواء أكان ذلك الشخص عظيما أم حقيرا ، رفيعا أم وضيعا ؟ فالناس فى نظره سواسية . وهو يعلم أنه يطلب معروفا ومعونة من غيره ، كما يعلم أنه من الانسانية أن تحقق له رغبته • وتجيبه الى طلبته • واذا حققت له رغبته فلن يشكر لك ، ولكن سيشعر بأنه مدين لك • واذا رفضت طلبه فلن يتذمر ، ولن يشكو لأحد ، ولن يلح عليك فى الطلب ؛ فهو يعلم أن لافائدة من التذمر أو الشكوى أو الالحاح ، ولن يقول : « لقد رفض طلبى » : بل يقول : « لقد كان من المحال أن يجاب » •

فى كلامه سهولة وصراحة وشجاعة ، وهو طبيعى فى صوته وحركاته ونظراته • لا يتظاهر بمظهر الذليل الخاضع ، ولا يقف موقف السيد المتعـــاظم ، ولكنه متواضع فى غير ذلة ، نبيل فى أعماله ، محبوب من اخوانه ، واثق بغيره ، يحب الحرية ، ويود أن يساعد غيره من أمثاله الأحرار .

اتركه وحده حرا ثم راقبه وهو يعمل ، بغير أن تقول له كلمة ، والحظ ما يفعله فى مثل هذه الحال • وكيف ينتقل هنا وهناك تجد أنه يشعر بما أوتى من حرية ، ولن يفعل شـــيئا يدل على العجب أو التكبر ، أو اظهار ما لديه من قوة • اليس يعلم حق العلم أنه حر فيما يفعل دائما ؟

انه يقظ نشيط ، سريع الحركة ، وفى حركاته حياة • ولكل حركة غرض معين يرمى اليه ! واذا أراد أن يفعل شيئا فلن يقدم على عمل يعتقد أنه فوق طاقته ؛ فهو يعرف نفسه حق المعرفة ، كما يعرف ما فى وسعه جيدا • وقلما يحاول شيئا الا اذا كان واثقا بالنجاح • وهو شديد الانتباه ، دقيق الملاحظة ، لا يميل الى التعطل ، ولا يعتمد على غيره فى تفكيره أو عمله . يحب أن يختبر الشيء بنفسه ، ويجتهد فى معرفة ما يريد أن يعرف قبل أن يسأل غيره • واذا دفع فى مشكلة غير منتظرة ، أو فى مركز حرج — كان أقل من غيره انزعاجا أو اضطرابا . واذا كان فى خطر كان أقل من غيره خوفا ، وأكثر صبرا وضبطا لشعوره ونفسه •

أتريد أن تحكم على (اميل) بالموازنة بينه وبين غيره ؟ دعه يختلط بغيره من الأطفال ، ثم اسمح له بأن يعمل ؛ فانك سترى الفرق بينه وبين غيره • سترى من يفكر فى الحقيقة ، ومن يقرب من الكمال ؛ فاذا اختلط بغيره من المدينين من الأطفال وجدته أكثرهم مهارة ، وأقواهم جسما وأحسنهم صحة • واذا اختلط بغيره من القرويين وجدته مساويا لهم فى القوة ، غير أنه يفوقهم فى المهارة وقوة الابداع والابتكار •

وفى حدود الطاقة للطفولة يحكم ويفكر ، وينظر الى الأشياء نظرة بعيدة أحسن من غيره من الأطفال • وفى الجرى والوثب ، والرياضة البدنية ، وتقدير المسافات ، واختراع الألعاب • وكسب الجوائز تجد أنه يعرف كيف يجعل الظروف والأحوال ملائمة لرغباته ، وتجد الطبيعة كلها تحت تصرفه وأمره • وقد ربى (اميل) ليقود زملته ورفقاءه ، ويسيطر عليهم ، ويشجع على التجربة والابتكار •

كلفه أى عمل تشاؤه تجده فى المقدمة ، وتجده رئيسا على رفقائه. وتجدهم يشعرون على الدوام بتفوقه ونهوضه • وسيكون الرئيس من دون أن يطلب الرياسة أو يرغب فيها ، وسيطيعه رفقاؤه ، وينفذون أوامره وهم لايشعرون أنهم خاضعون له •

فى التربية القديمة كان المربى يفكر فيما يميل اليه أكثر مما يميل اليه تلميذه ، وكان يحاول أن يبرهن على أنه يستحق راتبه ، ولم يضع

وقته ، فكان يزود تلميذه بمعلومات تافهة يمكن كسبها بسهولة ، ولم يفكر الا فى حشو ذاكرته بمواد لا فائدة منها • لم يفكر الا فى المظاهر ، ولم ينظر الى ما يترتب عليها من فائدة ، ولم يعن الا بالأمور الشكلية • وكان الطفل يختبر ليظهر ما لديه من ذخيرة علمية محفوظة ، فيظهر تلك الذخيرة فى الاحتبار ، فنقنع بما يجيب به وينجح فى الامتحان ، ثم يحزم أمتعته ، ويذهب الى حال سبيله ، وينسى كل شىء بعد الامتحان •

ان (اميل) ليس بغنى جدا من الناحية العلمية ، وليس لديه ما يتظاهر به من العلوم • ليس لديه سوى نفسه ، واستعداده للعمل والتفكير ، ولا يمكن أن ترى كل مواهبه فى الحال •

الفصل الثامن

الجزء الثالث من كتاب (اميل)

١ ــ يبحث هذا الجزء فى تربية الشباب من الثانية عشرة الى الخامسة عشرة من العمر ، و « اميل » على أتم ما يكون قوة وصحة ، وتعد هذه المدة أهم مدة فى حياة الشاب ، فهذا وقت العمل والدراسة ، وهو لا يدرس جميع المواد ، ولكنه يدرس المواد التى يشعر فى نفسه بشدة الحاجة اليها ، فالحاجة التى تقود (اميل) الى اختيار المواد التى يدرسها • ويستخدم المربى كل مواهبه فى معرفة ما يحتاج اليه (اميل) حقا ، وما يلائمه ويفيده حقا ، فهو يدرس المظاهر الطبيعية ، لأنها توقظ حب الاطلاع لديه • ويعمل لنفسه الأجهزة ، ويبتكر الآلات التى يحتاج اليها • واذا اعترضته بعض الصعوبات قدمت له بعض الوسائل للتغلب عليها • ويسترشد (اميل) بحواسه فى معرفة الأمور ، ولا يعتمد على أحد فى ارشاده •

فى هذه المرحلة قد نما جسم (اميل) ، ونما عقله ، ويستطيع أن يفكر ويتأمل كما ينبغى ، ويمكنه أن يدرس المادة التى يميل اليها •

فى هذه المرحلة انتهت الطفولة ، وبدأ الشباب ، ولديه قوة جسمية ينبغى أن ينتفع بها ، وفيه نشاط وحيوية يجب أن يستخدمهما فى العمل الذى يفيده فى المستقبل ، ولو أنه فى هذه المرحلة لم ينضج كل النضج •

ان هذا الوقت وقت العمل ، وقت التعلم والدراسة ، وهذا ما تقصده الطبيعة •

٢ ــ ان الذكاء الانسانى محدود ، ولا يستطيع الانسان أن يحيط علما بكل شىء ، ولذا يجب أن تختار مواد الدراسة ، ويحدد الوقت لكل مادة

تدرس • وهناك مواد دراسية تدرس للتظاهر ، ومواد تستحق كل عناية، ومواد لا فائدة فيها من الناحية العملية ، لهذا يقول روسو : « ليس غرضنا العلم ، ولكن غرضنا العلم النافع » (١) •

٣ ــ ومن المواد التى يجب أن تحذف تلك المواد التى فوق مستوى الطفل ، والتى لا يستطيع أن يفهمها ، فليس لدينا اذن الا مواد محدودة، ومحدودة جدا اذا وازنا بينها وبين عالم الحقيقة ، ولكنها تكفى ، وتكفى جدا تلك الطاقة البشرية المحدودة لذلك التلميذ ، فروسو ينصح بتقليل المواد الدراسية ، وترك المواد التى لا يجد المتعلم ميلا طبيعيا اليها ، ولا رغبة فيها ، ويقصر نفسه على دراسة المواد التى تقوده غريزته الى البحث عنها ، ودراستها ، والاطلاع عليها • فهو الآن محب للعمل ، متعطش الى العلم ، الى العلم المثمر الذى يمكن الانتفاع به عمليا ، ويحتاج اليه فى الحياة •

٤ ــ لا تتكلم مع (اميـــل) عن أمور لا يمكنه أن يفهمها ، واياك والمبالغة فى الوصف ، أو المبالغة فى الاستعارات والمجازات والأشعار ، لأن هذه المبالغة تنافى الحقيقة التى نفكر فى الوصول اليها ، واجتهد أن تكون لغتك واضـــحة ، وأســـلوبك طبيعيا ، يمثل الطبيعة والحقيقة ، ولا يبعد عنهما •

٥ ــ انه الآن يعرف لغة واحدة ، وسرعان ما يحين الوقت لاستعمال لغة أخرى غير لغته •

٦ ــ حاول أن تحضر له الأشياء ذاتها فى الوقت الملائم بالطريقـــة الملائمة ، كى تشبع ما لديه من رغبة فى الاطلاع ، وتوحى اليه العمل • وأعتقد أنه الآن يستطيع أن يفكر ، وأنه يفكر كما ينبغى •

٧ ــ دعه يلحظ الشمس عند شروقها ، ويراها عند غروبهـــا ، وكن معه من البداية الى النهاية • ودعه يلحظ المناظر والجبال التى فى تلك الجهة ، واسمح له بأن يمشى فيها كما يشاء ، ثم قل له : لقد رأيت الشمس وهى تشرق من هذه الجهة ، وتغرب من تلك الجهة ، فكيف يمكن أن يكون هذا ؟ فاذا سألك فى هذه الناحية فلا تجبه ، وأظهر أنك تفكر تفكيرا عميقا ، ثم غير المادة وتكلم عن شىء آخر ، واتركه ونفسه حتى يفكر بنفسه فى شروق الشمس وغروبها •

لقد رأى بعينيه الشمس وهى تشرق صيفا ، ولحظها وهى تشرق

---

(١) « Our aim is not knowledge, but useful knowledge.»

شتاء ، ورأى المكان الذى أشرقت فيه أولا ، والمكان الذى أشرقت فيه ثانيا ، وسيلحظ الفرق بين شروقها وغروبها شتاء وصيفا ، ان كان هناك فرق • بهذه الوسيلة يدرس (اميل) الجغرافية الطبيعية ، ويدرس الأشياء ومبادىء العلوم فى بيئتها • ليدرس الشمس الحقيقية لا الشمس الصناعية •

٨ ــ لا تستعمل صورة الشىء الا اذا استحال عليك احضاره ، أو عجزت عن الاتيان به ذاته ، وضع نفسك مكان الطفل دائما ، ففى دراسة الجغرافية يجب فى نظرنا أن يدرس الطفل منزله أولا ، وقريته التى يعيش فيها ، وبيئته التى يتصل بها ، والقرى المجاورة ، والأنهار القريبة ، والجهات الأربع ، ثم دعه يعمل مصورا لنفسه ، مصورا تقريبيا للأشياء التى يراها ويدرسها • وليسر فى المصور بالتدريج ، معتمدا على حواسه وملاحظاته فى معرفة المسافات والمواقع • واذا أخطأ فانتظر حتى يستطيع أن يرى خطأه بنفسه ، ويصلحه بنفسه • واذا لم ينتبه الى غلطته فانتهز الفرصة فى الايعاز اليه باعادة النظر حتى يدرك خطأه • واذا لم يخطىء قط فلن يستطيع أن يتعلم • والمهم أن يقوم هو بعمل المصور الجغرافى ، وتكون لديه فكرة واضحة فى عمله ، حتى يصل الى الحقائق بنفسه كما يراها فى الطبيعة •

واذا أردت أن تعرف الفرق بين تلميذك وتلميذى وجدت أن هذا يعرف كل شىء عن المصورات الجغرافية ، أما تلميذى فيمكنه أن يقوم بعمل المصورات الجغرافية بنفسه ، وسنستخدمها فى تزيين حجرتنا •

٩ ــ تذكر دائما أن روح طريقة روسو فى التربية والتعليم ألا تعلم الطفل كثيرا من الأشياء ، وألا تسمح بأن يدخل عقله الا الأفكار الواضحة ، والآراء الصائبة ، ثم هو لا يبالى اذا كان الطفل لا يعرف شيئا ما دام لا يعرف الشىء خطأ ، فالمهم أن نحفظ المتعلم من أن يتعلم خطأ ، ونمده بالحقائق وحدها ، وينبغى أن نحفظه من الخطأ فى الحكم والتفكير •

واذا فكرت فى العلم ذاته وصلب الى بحر خضم مملوء بالمخاطرات لا حدود له ولا نهاية •

واذا رأيت رجلا يحمله حب الاطلاع على الاسراع والانتقال من علم الى آخر بغير وقوف حكمت عليه بأنه كطفل يجمع الصدف وهو على شاطىء البحر ، ويحمله ثم يرى صدفا آخر فيميل اليه ، فيلقى بالأول بعيدا ، ويجمع غيره ويسير به حتى يشعر بثقل الحمل ولا يدرى ماذا

يختار ؟ وفى النهاية يرميه كله بعيدا ، ويعود خاوى الوفاض ، صفر اليدين من الصدف !

ففى السنوات الأولى المبكرة كان الوقت يمر ببطء ، وحاولنا أن نضيعه خوفا من سوء استعماله ، ولكن الأمر هنا فى هذه المرحلة ضد ذلك ، فالوقت لدينا ضيق ، ولا يكفينا القيام بجميع الأشياء التى نرى أنها مفيدة ٠

تذكر أن هذه المرحلة مرحلة الانفعالات والعواطف ، وسيكون لدى المتعلم أعين لرؤيتها ، وآذان لاستماعها ٠ ومن الحمق أن يتخيل أن هذه المدة طويلة تجعل الغلام عالما ، فليس المهم أن تعلمه العلم ، ولكن المهم أن تحبب اليه العلم ، وتجعله محبا للعلم ، وتفهمه أحسن الطرق لكسب العلوم والمعارف حينما يرغب فيها ٠هذا أهم مبدأ فى التربية ، وهو خير مبدأ فى التربية الحديثة ، فاذا رغبنا المتعلم فى التعلم ، وفتحنا الطرق أمامه استطاع أن يصل بنفسه الى النهاية ان كانت للعلوم نهاية ٠

هذا هو الوقت الذى يجب أن نعود فيه المتعلم بالتدريج أن يحصر انتباهه فى شىء واحد ، وأن ينتبه اليه من تلقاء نفسه عن رغبة وميل ، فينتبه الى المادة من تلقاء نفسه بباعث نفسى اليها ورغبة فيها ، بغير أن يشعر بضغط أو قسر أو اجبار ٠

وفى أثناء التعلم لا تنتظر حتى يتعب المتعلم ، بل اترك المادة قبل أن يشعر بالتعب ، وحاول ألا يصل الى درجة السآمة والملل من الدراسة ٠ ولا تضطره الى أن يتعلم شيئا ضد ارادته على غير رغبة منه ٠ واذا سألك سؤالا فلا تعطه كل الجواب ، بل أجبه بطريقة تشجعه على حب الاطلاع ، بحيث تفتح له الباب ، وتتركه يبحث عن البقية ، حتى يصل الى النهاية بنفسه ٠ وفكر دائما فى الباعث الذى يحمله على السؤال فان كان الباعث حسنا فشجعه ، وان كان سيئا فلا تصغ اليه ٠

١٠ ــ دع التلميذ يتعلم ما يحتاج اليه :

حينما ينضج الطفل فى تفكيره يجب أن نفكر فى اختيار الأعمال التى يعملها بدقة وعناية ، ففى الوقت الذى يفهم فيه نفسه يمكنه أن يقدر الفرق بين العمل واللعب ٠٠ ويعد اللعب الحر ترويحا للنفس من تعب العمل ٠ فى هذا الوقت يستطيع أن يتعلم الاشياء التى يحتاج اليها ، والتى تفيده حقا ، فينتبه اليها كل الانتباه ، ويفيد منها الفائدة المرجوة ٠ واننا جميعا نعمل للوصول الى السعادة ٠ ولكى نصل اليها ينبغى أن

نعرف ماهيتها ، وهى فى نظر الرجل الذى يحيا حياة طبيعية ـ سهلة ويسيرة جدا ، كما أن طريقته فى الحياة سهلة ويسيرة ، فالسعادة فى نظر هذا الرجل فى الصحة ، والحرية ، والحصول على مطالب الحياة ، والتخلص من الآلام ٠

فى هذه المرحلة يعرف الغلام قيمة الوقت ، ويحاول أن يستخدمه فيما يفيده ٠ وليس من الحكمة أن نجبر المتعلم فى هذه السن على دراسة أشياء فوق مستواه ، لأنه اذا لم يشعر حقا بنفعها له فلا فائدة من أن نخبره بأنها نافعة له ٠ وليس من الحزم أن نؤكد له أن هذه الأشياء ستفيده فى الكبر ، لأنه لا يجد لذة الا فى الفائدة العاجلة ، أما الفائدة المؤجلة فلا يفكر فيها ٠

ويرى روسو ألا تسمح للطفل بأخذ شىء بمجرد قولك له : انه مفيد ، فالشىء لا يعد مفيدا وحسنا الا اذا كان الطفل نفسه يشعر بأنه مفيد وحسن ٠ وقد تظن أن من المستحسن أن تضغط على المتعلم وتعلمه أشياء فوق طاقته ، فتعد مخطئا فى ظنك ، فاذا أردت أن تسلحه ببعض الأسلحة وجب أن تتحقق أنه يعرف طريقة استعمالها ، ويشعر بالحاجه اليها وبمنفعتها ، أما تسليحه بأسلحة لا يحتاج اليها ، ولا يدرى كيف يستعملها ـ فلا فائدة فيه ، لأنه نوع من التحكم يقضى على مالديه من حسن ذوق وبصيرة ، ويجعله كالآلة فى يدى غيره ٠ فاذا تحكمت فى الطفل وتحكمت فى ارادته وفى دراسته وأعماله صيرته ساذجا ، وجعلته امعة حينما يكون رجلا ، ولا ضرورة لأن تقول له دائما : ان كل شىء أطلبه منك انما هو لمنفعتك ، ولكنك لا تستطيع أن تفهم ذلك الآن ، وانك تفعل ذلك لمصلحتك الخاصة ، فبمثل هذا القول تسيطر على تفكيره ، وتجعله يصدق كل ما يقال له ، ويتأثر بمن يريد أن يصيده بالمصيدة ، أو يسير به فى طريق الحماقة والضلال !

وقد يعرف الرجل الفائدة الدراسية لمادة من المواد ، ولكن الطفل ربما لا يستطيع أن يدرك هذه الفائدة ، فهل من الصواب أن يتعلم الطفل ما ينبغى أن يتعلمه الرجل ؟ لا ٠٠ انه يكفى أن نعلم الطفل فى هذه المرحلة ما يحتاج اليه من المواد ، وهذه المواد ، تكفى جدا جعله فى عمل مستمر طول الوقت ، فمن الحكمة أن نعلمه ما يحتاج اليه الآن ، ونؤجل تلك المواد التى تنفعه فى المستقبل حتى يأتى الوقت الملائم لها ٠

انه يكفى أن يتعلم الغلام المواد الدراسية التى تلائم سنه ومستواه، وتوافق ميوله ورغباته ، فلا تثقل عليه باعطائه المواد التى فوق مستواه،

وربما لا يحتاج اليها فى المستقبل ، ولكنك قد تسأل : هل يكون هناك وقت لأن يتعلم فيه ما ينبغى أن يتعلمه حينما يحين الزمن الذى يريد فيه استعمال هذه الأشياء ؟ نعم سيكون هناك وقت كاف فى المستقبل لتعلم ما يحتاج اليه ، أما تعليمه أشياء لن يحتاج اليها فى المستقبل فمضيعة للوقت ، ومضيعة للحياة !

فلنتعلم ما نحتاج اليه ، ولندرس ما نشعر بفائدته ، ولنجعل الحكم فى اختيار المواد : التجربة والشعور بالحاجة ٠

وليس فى استطاعتنا أن نفهم ما ينفعنا الا من الأحوال التى تتصل بنا ، فليتعلم الطفل ما يلائم الطفولة ، وليتعلم الرجل ما يتعلق بالرجولة، أما الأشياء التى لا يستطيع المتعلم أن يفهمها فمن الواجب أن يستمر جاهلا بها ، فاذا ضاق عقله عن فهم أمر من الأمور فلنؤجله حتى يحين الوقت الذى يستطيع أن يدرك فيه هذا الأمر ، أما تكليفه مالا يطاق فلا يقول به أحد ٠ هذا مبدأ روسو فى التربية ، وقرر هذا المبدأ فى كتابه (اميل) فى عدة مواضع ٠

١١ ـ معرفة الشرق

ان روسو لا يحب استعمال المحاضرات الكلامية مع صغار التلاميذ ، لأنهم لا يستطيعون ادراكها ،ولا يمكنهم أن يتذكروها ٠ وقد يصغون اليها بآذانهم ، ولا يفهمون منها شيئا بعقولهم ٠ فهم لا يتذكرون الا الأشياء المحسة أى الأشياء ذاتها ٠ ويعلق المدرسون فائدة كبيرة على الكلام ، ولا يتركون للأطفال فرصة للتفكير ٠

افرض اننا كنا ندرس موضوع الشمس ، ونريد أن نعرف الشرق، فقد يسألنى (اميل) عن الشرق ، وما الفائدة من معرفة الشرق ؟ ما أجمل هذا السؤال ! الا أنه سيؤدى الى حديث جميل بينه وبين (اميل) ٠ وما أكثر الأشياء التى يستطيع أن يخبره بها للاجابة عن هذا السؤال ! انه يود أن يسألنى ثانية : ما الفائدة من معرفة الشرق أو الجهة الشرقية ، وقد ربى تربية طبيعية ، وعود التفكير ، وقد أخذته فى اليوم السابق الى الغابة ، وعرف موقعها ، ولحظ أنها فى شمال مدينة « مونتمورنسى (١) » ؟ وفى اليوم التالى قد سألنى هذا السؤال أيضا : ما

---

(١) Montmorency

الفائدة من معرفة الشرق ؟ يجب أن نفرغ وقتا لنفكر فيه ، فاذا لم يكن هنـاك فائدة فى معرفة الشرق حقـا فلن نحـاول معرفته مرة أخرى • ولدينا أشياء كثيرة هامة يمكننا أن ندرسها ونعرفها ، ولم يكن هناك فى ذلك اليوم درس جغرافى أكـثر من هذا • وفى الصباح التالى اقترحت على (اميل) أن نذهب فى رحلة مشيا على الأقدام قبـل تناول الفطور ، وما كان أكثر سروره حينما سمع هذا الاقتراح ! فالأطفال دائما يحبون الجرى ، ويميلون الى اللعب ، ولدى (اميل) رجلان قويتان تساعدانه على المشى ، فذهبنا الى الغابة معا ، وأخذنا نجول فيها ، حتى ضللنا الطريق ، ولم نعرف أين نحن ؟ وحينما أردنا العودة الى البيت لم نستطيع معرفة الطريق الموصل ، فجلسنا من شدة التعب ، وقد اشتدت الحرارة وقت الظهيرة ، وشعرنا بشدة الجوع ، فقد حضرنا الى الغابة قبل الفطور ، ثم وجدنا من العبث أن نسير على غير هدى ، وننتقل من مكان الى آخر ، ولم يكن أمامنا سوى الغابة ، ولم نر هنـاك علامة نتخذها دليلا لمعرفة الطريق •

بدأنا نسير ثانية ، وقد زادت درجة الحرارة ارتفاعا ، واشتد بنـا الجوع والتعب ، وأخذنا نجرى هنا وهناك ، فلم نزدد الا ضلالا وجهـلا بالطريق • وأخيرا جلسنا مليا ، لنستعيد قوتنا ، ونفكر فى الأمر ، ولم يعرف (اميل) أن هناك طريقا ضيقا خفيا يوصل الى باب الغابة ، ان غلاما فى سنه وقامته من السهل أن يضل ويتيه بين شعاب الغابة !

وبعد دقائق من الصمت والسكوت قلت له : عزيزى (اميل) ، ماذا نفعل كى نخرج من هنا ؟

فأجاب (اميل) متأثرا : اننى لا أدرى ، فأنا متعب جائع ظمآن ، ولا أستطيع أن أفعل شيئا •

جان جاك : أتظن أننى لست متعبا ظمآن مثلك ، وما الفائدة من الصياح ؟ وهل الصياح يؤدى الى نتيجة ؟ ان المهم أن نجد طريقنا ، ونعرف كيف نخرج من الغابة • أرنى ساعتك • ما الساعة الآن ؟

اميل : الساعة الآن الثانية عشرة ظهرا ، ولم أتناول بعد الفطور •

جان جاك : حقا ان الساعة الآن اثنتا عشرة ظهـرا ، ولم أتناول كذلك الفطور بعد •

اميل : آه • أظن أنك فى شدة الجوع •

جان جاك : نعم • أنا فى شدة الجوع ، ولن يأتى أحد ليبحث عنـا هنا • انك تقول الآن : ان الساعة الثانية عشرة ، وقد كنا هنا بالأمس

فى مثل هذا الوقت حينما لحظت موقع مدينة (مونتمورنسى) بالنسبة الى الغابة ، فهل يمكننا أن نتذكر أين (مونتمورنسى) من الغابة ؟

اميل : نعم يمكننا أن نعرف موقعها من الغابة ، فقد كنا هنـــا بالأمس ، ولكن لا نستطيع أن نراها من هذا المكان ٠

جان جاك : انى أتمنى أن نعرف أين مدينـــة (مونتمورنسى) من الغابة من دون أن نراها ٠

اميل : صديقى العزيز ٠

جان جاك : ألم تقل : ان هذه الغابة ؟

اميل : لقد قلنا : ان الغابة فى شمال (مونتمورنسى) ٠

جان جاك : اذا كان هذا حقا فمدينة (مونتمورنسى) يجب أن تكون

اميل : يجب أن تكون فى الجنوب الغربى ٠

جان جاك : هناك طريقة أخرى لمعرفة الشمال وقت الظهيرة ٠

اميل : ان الطريقة لمعرفة الشمال وقت الظهيرة تكون بالظل ٠

جان جاك : ولكن كيف نعرف الجنوب ؟

اميل : نعم ٠ كيف نستطيع أن نعرف الجنوب ؟

جان جاك : ان الجنوب يقابل الشمال ٠

اميل : هذا حق ، ان كل ما نريد أن نفعله هو أن نعرف الجهـــة المضادة للظل ٠ آه ! هذا هو الجنوب ٠

هذا هو الجنوب ! ان مدينة (مونتمورنسى) يجب أن تكون فى تلك الجهة ٠ فلننظر الى تلك الجهة ٠

جان جاك : قد تكون مصيبا ، فلنسر فى هذا الطريق ، فى هـــذه الغابة ٠

اميل : يصفق بيديه ، ويصيح فرحا وابتهاجا قائلا : آه ! اننى الآن أرى مدينة (مونتمورنسى) بوضوح ٠

ها هى ذى ، انها أمامنا ، ومن الممكن أن ترى بسهولة ٠ فلنذهب الآن ،حتى نستطيع أن نتناول غداءنا ٠ ولنجر مسرعين ، فأنا الآن أدرك الفائدة من دراسة الجغرافية الطبيعية ٠

بهذه الطريقة شوق روسو (اميل) الى دراسة الجغرافية الطبيعية٠ واذا لم ينطق (اميل) بهذه الكلمات الأخيرة ، فانه سيعترف بها بعقله ٠

ويكررها فى نفسه ، والمهم أنه هو الذى نطق بها • وهو الذى استنبطها ، ولم ينس (اميل) طوال حياته هذا الدرس القاسى فى ذلك اليوم ، أما اذا جعلته يتخيل هذا الدرس وهو فى حجرة الدراسة فان محاضرتك كلها أو معظمها تنسى فى اليوم التالى •

بهذه الوسيلة يريد روسو أن نتخذ الطريقة فى الدراسة والتعلم ، وألا نلجأ الى التكلم الا اذا عجزنا عن العمل •

ومن السهل أن تشرح للتلميذ فوائد الرحلات والتجارة ، وتذكر له المحصولات الخاصة بكل منطقة ، وأن تذكر له آداب الشعوب المختلفة ، وأثر الفصول الزراعية ، وفوائد التقويم السنوى ، وتصف له حالة السفر فى البحار ، وتتحدث اليه عن السياسة ، وتدرس له التاريخ الطبيعى ، وعلم الفلك والأخلاق ، والقانون الدولى ، يمكنك أن تذكر له كل هـذا بالكلام ، ولكن ربما لا يفهم شيئا مما تقول • فروسو ينادى بأن تشعر التلميذ بالحاجة الى التعلم ، حتى تبعث فى نفسه الرغبة الشـــديدة فى التعلم ، وتعتمد على الدراسة العملية أكثر من الدراسة النظرية ، وتعتمد على المشاهدة والملاحظة أكثر من الخطابة والمحاضرة ، وهذا ما تنادى به التربية الحديثة اليوم •

١٢ ـ روبنسن كروزو (١)

لقد نادى روسو دائما باستعمال العين واليد فى التربية ، والاستعانة بذوات الأشياء فى التعلم ، وكرر ذلك فى عدة مواضع ، ولا يزال المحدثون من المربين ينادون بتربية الحواس ، لما لها من الأثر فى تربية العقول ، ولكن روسو قد ورط نفسه توريطا لمناداته بكراهية الكتب والتعلم من الكتب ، والاعتماد عليها وحدها فى التعلم • وقد بالغ فى قوله : « انى أكره الكتب ، فهى لا تعلمنا الا التكلم فيما لانفهم » • (٢) ، ولا عجب فى أن يكره روسو الكتب ، فقد كان بطبعه يميل الى التعلم من الطبيعة • ولا ندرى كيف ينادى بكره الكتب مع أنه كان يسهر معظم ليالية فى قراءتها والانتفاع بما فيهـا • واننـــا لا نعترض على التعلم من الطبيعة والرجوع الى الطبيعة فى دراستنا ، والانتفاع بالبيئة فى تعلمنا ، ولكننا نعترض على هذا التصريح الخطر ، وهذا الرأى البعيد عن الصواب ، وهو كراهية الكتب • وقد شعر روسو بخطئه وبعده عن الحقيقة بعد أن عاد

---

(١) Robinson Crusol

(٢) «I hate book, they only teach us to talk about what we do not understand ».

اليه عقله وتفكيره ، ثانية : « من حيث ان من الواجب أن يكون لدينا كتب ، فهناك فى اعتقادى كتاب يعد من أحسن الكتب فى التربية الطبيعية • وسيقرأ تلميذى (اميل) هذا الكتاب قبل كل كتاب آخر ، وسيعتمد عليه مرة غير قصيرة فى قراءته ، وسيوضع دائما فى المكان اللائق من مكتبته ، وسيكون موئلنا دائما فى كل حديث أو مناقشة حول علوم الطبيعة • وسنعتمد عليه فى الشرح والتفسير اذا احتجنا اليهما • وسنجد لذة كبيرة من قراءة هذا الكتاب ما دام ذوقنا جميلا ، ولم يفسد بعده وسيمدنا بكثير من الاحكام والآراء السديدة • وسنجد فى كل صفحة من صفحاته شيئا يبعث السرور فى النفس • فما أجمل هذا الكتاب ! أكتاب أرسطو (١) ؟ أم كتاب بلينى (٢) ، أم كتاب بفون (٣) ؟ لا • انه ليس هذا ولا ذاك • انه « كتاب روبنسن كروزو » فروبنسن كروزو رجل قد قدر له أن يعيش وحده فى جزيرته ، وقد حرم مساعدة غيره من بنى جنسه ، حيث لم يجد أحدا يساعده ، كما حرم العدد والآلات والفنون والصناعات ، ومع هذا قد كان يمد نفسه بما يحتاج اليه فى معيشته ،وما يحفظ عليه حياته ، وما يجعله سعيدا فى وحدته •

هذه القصة قصة لذيذة لكل انسان مهما تكن سنه ، وهى قصة تمثل التربية الاستقلالية الحديثة ، التربية العملية التى تنادى بتعويد المتعلم الاعتماد على نفسه فى كل عمل يستطيع القيام به • وهناك كثير من الطرق لجعل هذه المادة ملائمة للأطفال ، سارة لهم •

وخير طريق للحكم على هذا الرجل أن نضع أنفسنا موضعه فى ذلك المكان الذى يعيش فيه وحده منقطعا عن العالم ، ثم نحكم عليه حكما حقيقيا • وبالمعيشة فى هذه الجزيرة يقدر الانسان المعيشة فى غيرها فهو حينما ينقطع عن العالم يشعر بأثر العالم ، ويدرك العلاقة بينه وبينه ، ويفكر فى أثر كل شىء يحتاج اليه •

وفى هذه القصة الجغرافية من بدئها الى نهايتها معلومات كثيرة، ومخاطرات جريئة ، ومتعة مستحبة ، وتعلم دائم ، وارشاد مستمر فى تلك المرحلة من السن ، وحبذا الأمر لو حمل اميل على أن يسافر على تلك السفينة ذاتها ،وحمل على التفكير فى قلعة كروزو ومسكنه ، وما كان لديه من ماعز ، وما أنبته من نبات ، وما زرعه من مزروعات !

---

(١) Aristotle (٢) Bliny (٣) Buffon

انه بهذه الطريقة سيدعه يتعلم لا من الكتب ، ولكن من ذوات الأشياء، سيتعلم كل ما يحتاج الى معرفته فى مثل هذا المركز الحرج الذى وجد نفسه فيه ، فى تلك الجزيرة الصحراوية المنقطعة • دعه يظن أنه كروزو نفسه ، وشجعه على أن يلعب كما كان يلعب كروزو • دعه يلبس معطفا من الجلد ، وقلنسوة كبيرة على رأسه ، وكوثا (شبشبا) فى رجليه ، ويمسك بمقبض سيفه محاكيا روبنسن كروزو حتى فى المظلة التى لن يحتاج اليها • واذا احتاج الى أى أمر او وقع فى أية مشكلة فاسأله عما يفعل ، واختبر سلوكه ، وشجعه على الابتكار والتفكير فى جميع ما فعله هذا البطل •

دعه يفكر ثم يحكم ان كان هناك شىء يمكن أن يؤدى بطريقة أحسن من الطريقة التى أدى بها ، شجعه على أن يلاحظ الهفوات التى ارتكبها كروزو ، ويفيد من تجنبها بنفسه ، ويفكر فى الأحوال التى كانت تحيط به ، وقد يتخذ لنفسه الطريقة التى اتخذها كروزو ، ويتخذ بيئة كبيئته ويعيش معيشة طبيعية كمعيشته ، معيشة سعيدة حرة يجد فيها كل مطالب الحياة •

ما أجمل هذه المحاكاة ، وهذه التسلية ، وهذا الايحاء ، اذا أوحى به رجل ذكى ، وقام به رجل حاضر البديهة مثل كروزو ! فبالمحاكاة وبالايحاء سيجد المتعلم رغبته فى أن يبنى بيتا يأوى اليه ، ومخزنا يضع فيه ما يحتاج اليه ، وستتولد لديه رغبة فى أن يتعلم أكثر من رغبة مدرسه فى أن يعلمه ، وستتكون لديه رغبة فى تعلم كل شىء يشعر بفائدته والحاجة اليه ، أما الشىء الذى لا منفعة فيه ، ولا فائدة منه ــ فلن يجد وازعا يدفعه الى تعلمه ، ولن تحتاج الى أن ترغبه فى التعلم ، أو تقوده أو ترشده الى التعلم ، لأن رغبته شديدة فى التعلم ، فهو يريد أن يتعلم ، ويجد من تلقاء نفسه باعثا الى التعلم •

١٣ ــ التعليم الاقتصادى :

لا تشغل تلميذك بمعرفة أشياء لا يستطيع أن يدركها ، واذا أخذته الى أى مصنع أو معمل فدعه يشترك فى كل عمل يراه ، ويضع يده فى هذا العمل • ولا تسمح له بالخروج من المصنع أو المعمل قبل أن يفهم الأشياء التى لحظها ، ويعرف السبب الذى دعاه الى القيام بها •

وينبغى أن تكون قدوة له فى كل شىء ، وفى كل طريق ، حتى تصل الى الغاية التى تريدها بنفسك • ولكى تجعله ماهرا مسيطرا على

الصناعة التى يختارها يجب أن يكون لك المام ودراية بكل صناعة من الصناعات . وتذكر دائما أنه اذا اشتغل بيده ساعة واحدة أفاد من هذه الساعة أكثر مما يفيده باصفائه لك ولشرحك يوما كاملا .

ان (اميل) سيربى ليعيش فى العالم ، ويسكن مع العامة ، لا مع الفلاسفة والخاصة . فيجب أن يعرف أخلاق العامة حتى يستطيع أن يبادلهم الفهم ، وأن يتصل بهم . وينبغى أن يدرك (اميل) الأشياء على حقيقتها لا على حسب مظاهرها ، فيعد الحديد أنفع من الذهب ، والزجاج أنفع من الماس ، وصانع الأحذية والبناء أكثر فائدة للمجتمع من تاجر الجواهر ، فالذهب والماس أغلى من الحديد والزجاج ، ولكن حاجة الانسان فى حياته الى الحديد والزجاج أشد من حاجته الى الذهب والماس ، أما غلاؤهما فلقلتهما وندرتهما .

وفى الاستطاعة أن نرتب الفنون على حسب شدة الحاجة اليها . فنضع الزراعة أولا ، والحدادة ثانيا ، والنجارة ثالثا ، فالزراعة ضرورة للحياة ، وكذلك الحدادة ثم النجارة .

ان (اميل) محب الاطلاع ، حسن البصيرة ، قادر على الابتكار ، بعيد النظر ، يريد أن يعرف السبب فى كل شىء ، ويريد أن يدرك كل شىء يراه أو يفعله ، ويتتبع كل آلة من الآلات ، ويوازن بينها وبين غيرها ، ولا يأخذ الشىء كما يملى عليه : فاذا رأى عينا أو منجما أخذ يبحث عما يمكن استخراجه من هذه العين ، أو من هذا المنجم . واذا رأى جوانب صندوق ركبت بعضها على بعض أراد أن يعرف كيف قطعت الشجرة بالقدوم ، وكيف نشرت بالمنشار ، وكيف صنع من خشبها هذا الصندوق . واذا لم يكن لديه عدة من العدد أو آلة من الآلات سأل نفسه . ماذا أفعل لأصنع عدة كهذه العدة ، أو آلة كهذه الآلة ؟ ماذا أفعل لأشتغل من دونها وأعمل بغير حاجة اليها ؟

ينبغى أن نترك للطفل الحرية فى أن يختار بنفسه الحرفة التى يريد أن يحترفها ، والمهنة التى يريد أن يتعلمها ، ولكن يجب أن تكون بجانبه دائما ، وتلاحظه باستمرار ، وترقب حركاته وسكناته ، من دون أن يشعر بتلك الرقابة ، وأن تلحظ ما يبدو فى نفسه من الأفكار ، وتشجع الحسن منها ، وتمنع القبيح .

ومن السهل أن يعرف الطفل فوائد العملة والنقود ، وقيمة كل نوع منها ، وكيف يستبدل بقطعة من النقود غيرها ، ومن الواجب أن يعرف

فوائد الأشياء قبل أن يعرف مضارها ، فالحسنات يجب أن تدرس قبل السيئات ، والفوائد قبل المضار ٠

سنذهب لتناول الغذاء فى قصر أسرة غنية ، فنجد استعدادا تاما ، وجماعة كبيرة من المدعوين ، وعددا من الخدم ، وأنواعا مختلفة من الطعام والشراب ٠ فاذا قدم الطعام الينا نوعا بعد آخر ، وأخذ المدعوون يتجاذبون الحديث الجميل حول المائدة أسررت فى أذن تلميذى : « كم يدا اشتركت فى عمل هذه الوليمة ، وهذه الأصناف المتنوعة التى تراها على المائدة قبل أن يأتى الطعام فوقها ؟ » ٠

سيفكر اميل بعد هذا الســـؤال ! وستتجمع الأفكار فى ذهنه ، وسيتأمل كثيرا ٠ وبالموازنة بين هذا الطعام فى تلك الوليمة وطعام عادى منزلى أعده الانسان بنفسه وأكله وهو حر مسرور شاعر بالجوع ــ يشعر بأن هذه الوليمة الجميلة لا ضرورة اليها ، ولا فائدة فيها ، وأن الجوع الذى كان يحسه قد زال حينما أكل هذا الطعام العادى ، وانه يفضـــل أن يأكل على مائدة رجل فلاح الأكل العادى وهو جائع على أن يأكل مع رجل ثرى ذلك الطعام غير الطبيعى ٠

١٤ ــ تعلم حرفة من الحرف أو صناعة من الصناعات :

فى هذه المرحلة قد عرف (اميل) الحياة وحقيقتها ، وستكون العناية الأولى موجهة لتعليمه المحافظة على هذه الحياة ٠ فى هذه المرحلة ألح روسو فى أن يتعلم (اميل) حرفة من الحرف الهامة ، أو صناعة من الصناعات الأساسية كالزراعة والنجارة والحدادة ، كما أصر على أن يتعلم كل انسان حرفة أو مهنة مهما يكن مركزه ، ومهما تكن درجته فى الحياة، فهو ينادى بأن يتعلم الانسان مهنة من المهن ، سواء أكان غنيا أم فقيرا ، رفيعا أم وضيعا ٠

وفى سنة ١٧٦٢ نادى بهذا الرأى وهو تعلم حرفة أو صناعة ، نادى به قبل الثورة الفرنسية بسنوات ٠ وكان يتكهن بالثورة قبل حدوثها ، وبحاجة كل انسان الى تعلم حرفة من الحرف يعتمد عليها فى كسب عيشه فى كل مكان ، اذا خانه الدهر ، أو ساء حظه فى الحياة ، فالدهر قلب ، كثير التغير ، والحياة لا يمكنك أن تثق بها ، فالرفيع قد يصير وضيعا ، والعظيم قد يصبح حقيرا ، والغنى قد يمسى فقيرا ، والسلطان قد يصبح عبدا ٠ يعز الله من يشاء ، ويذل من يشاء ، انه على كل شىء قدير ٠

تكهن روسو بالثورة الفرنسية قبل حدوثها وقال : « اننا نقترب من عصر الأزمة ، عصر الثورة • ومن يمكنه أن يحقق لك ماذا يكون نصيبه، وكل ما صنعه الانسان يجوز أن يبيده الانسان • » ؟

تكهن روسو بالثورة الفرنسية قبل أن تحدث بعشرات السنين وفكر فى الأزمة عند الثورة ، فكر فى مصير الانسان اذا حدثت هذه الثورة • فكر فى الوسيلة التى بها يستطيع أن يكسب عيشه اذا افتقر ، أو خانه الحظ ، أو عثر به الجد وأخذ ينادى بأن يتعلم كل انسان حرفة ، فاتبع الناس نصحه ، وأخذوا يعلمون أبناءهم صناعة من الصناعات ، وتأثرت الطبقات الحاكمة برأى روسو ، فقد تعلم الملك لويس السادس عشر اصلاح الأقفال وغلق الأبواب ، وكان فخورا بمهارته فى تلك الحرفة •

وحينما حدثت الثورة الفرنسية ونفى فيها من نفى ، وأبعد من أبعد ـ استطاع كثير من المنفيين أن يكسبوا عيشهم بعرق جبينهم ، وانتفعوا بالحرفة التى تعلموها من قبل •

فروسو يريد بهذا الرأى أن يعد الانسان نفسه للحياة ، وكسب عيشه بعرق جبينه اذا عثر جده ، وساء حظه •

يريد أن يربى الانسان للحياة تربية عملية بجانب التربية الثقافية التى ترباها ، مهما يكن مركزه ، ومهما تكن وظيفته ، لا يريد أن يربى الانسان ليملأ مركزا واحدا ، لأن معنى ذلك فى نظره أننا حكمنا عليه بأنه غير صالح للمراكز الأخرى ، فهو يريد أن يكون (اميل) مثل جاك فى معرفة كثير من الحرف والصناعات ، كما يرى الانجليز فى التربية لديهم • ولكننا نسأل : هل فى استطاعة الانسان أن يجيد كثيرا من الحرف ؟ ان فى استطاعته أن يعرف شيئا عن كل شىء ، ثم يختص بمعرفة كل صغيرة وكبيرة عن ناحية من نواحى الحياة ، فالحياة قصيرة ، ولا تتسع لاجادة كثير من الفنون أو العلوم • وليس لدينا ما يمنع أن يتعلم الانسان حرفة من الحرف مع عمله الرئيسى • ولا تزال بعض الطوائف تسير على هذا الرأى حتى يومنا هذا ، فالواحد منا قد يتعلم الصياغة أو الحياكة أو التجـــارة نهارا ، وينتسب الى الجامعة مساء ، فيدرس فى القسم الليلى القانون ، أو الفلسفة ، أو الأدب ، أو علما من العلوم التى يميل اليها •

هل هناك انسان أشقى من (لورد) يصبح سائلا ، أو غنى يمسى معدما فينعى حظه ، ويندد بالأيام التى جعلته غنيا ؟ وفى الحياة كثير من الحوادث والتغيرات التى تحدث للانسان ، وليس فى استطاعة الانسان أن

يمنع هذه التغيرات ، لهذا يجب أن يعد نفسه للأيام السوداء ، والليالى المظلمة ، واننا لا نعترض على روسو فى هذه الناحية ، بل نوافقه كل الموافقة .

ويرى روسو أن الرجل الذى ينفق فى وقت فراغه مالا لم يكسبه بعرق جبينه يعد لصا ،وأن الرجل الذى يتقاضى اعانة من الحكومة ولا يعمل شيئا يستحق به تلك الاعانة لا يختلف عن السارق ، أو قاطع الطريق الذى يعيش من السرقة وقطع الطرق ! وفى اعتقادنا أن الانسان الذى يعيش فى مجتمع مدين لذلك المجتمع بما يناله منه ، وعليه أن يعمل عملا يتفق مع ما يتقاضاه من ذلك المجتمع ، فالعمل واجب من الواجبات ، واجب على الانسان الاجتماعى ، سواء أكان غنيا أم فقيرا ، رفيعا أم وضيعا . وكل رجل متعطل أو كسلان يعد لصا مضللا لأنه عبء على المجتمع .

وتعد الأعمال اليدوية من الضرورات للانسان فى الحياة ، وليس روسو فى حاجة الى أن يأمر (اميل) بتعلم الزراعة ، فقد عرف الزراعة من قبل ، وعرف كثيرا من الأعمال ، ودرس كثيرا من الأشغال اليدوية فى الأيام الماضية من حياته ، وهو الآن يعود اليها ويستمر فى دراستها ، يريد بذلك أن ينتفع بما تركه آباؤه وأجداده من العمل والصناعة . فالصناعة فى نظر روسو من الأمور الضرورية فى الحياة ، ولذلك نصح (اميل) بقوله (١) : « تعلم حرفة » ليكسب عيشه من عرق جبينه ، ويعمل بيده .

قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده . وان نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .

واذا لم يكن (اميل) فى حاجة الى العمل فليعمل ، لأن العمل شريف . ولينزل الى مستوى الصانع أو العامل ، وليتعلم حرفة حقيقية ، كى يعتاد الاستقلال فى الحياة . وليعلم فنا من الفنون الآلية التى تتطلب اعمال اليد أكثر من اعمال العقل ، فنا يمكنه من أن يعيش عيشة العادة ، لا عيشة العظمة والترف . ومن السهل أن ينجح الانسان فى عمله اذا كان ماهرا فى ذلك العمل ، ذا شخصية ومقدرة .

---

(١) « Learn a trade »

لقد نادى روسو بأن يتعلم (اميل) حرفة من الحرف التى تفيد المجتمع ولا يستغنى عنها مطلقا ، كالزراعة والنجارة والحدادة • وقد اختار له النجارة حرفة يتعلمها ، فالنجارة حرفة تحتاج الى دقة ومهارة . ولا يمكن الاستغناء عنها ، وفى استطاعة (اميل) أن يقوم بها فى كل مكان حتى فى البيت ، وفيها تمرين لجسمه وعقله ، وتحتاج الى كثير من الصبر والمثابرة وحسن الذوق والكياسة •

ان روسو لا يود أن يتعلم (اميل) التطريز أو التذهيب أو التلميع، وما الى ذلك من الفنون الجميلة التى نادى بها (جون لوك) الفيلسوف الانجليزى ، لأن روسو يعد تلك الفنون من الأمور الكمالية ، وليست من ضرورات الحياة • ان روسو لا يود أن يكون (اميل) موسيقيا ، أو ممثلا ، أو كاتبا • ولا عجب ، فقد كانروسو يعيش فى القرن الثامن عشر ، فى وقت كانت الأمية فيه منتشرة ، وكان الجهل شائعا ، وكان تقدير الفن قليلا ، فالموسيقى والممثل والكاتب فى عصر روسو كانوا يجدون صعوبة فى كسب عيشهم، ولا يمكننا أن ننسى هنا (صمويل جونسون) الفيلسوف الانجليزى ، الكاتب القدير الذى عاش فقيرا ، ومات فقيرا • ولما توفيت والدته باع جميع حقوق الطبع لكتاب من كتبه الثمينة (١) لأحد الناشرين بخمسين جنيها ، ليكفن بها والدته ، ويقوم بدفنها بعد وفاتها • ولشدة فقره مع عظمته ومقدرته الكتابية كان يضطر الى الاستدانة • وكثيرا ما كان يحكم عليه بالسجن لعجزه عن الوفاء بديونه • وقد كان القانون الانجليزى فى ذلك الوقت يبيح سجن المدين حتى يسدد ما عليه من ديون ، فكان يخرج من السجن ثم يعود اليه مرة أخرى ، لاضطراره للاستدانة • وفى النهاية أمر ملك انجلترة بمنحه اعانة سنوية قدرها ثلثمائة جنيه ليستعين بها على الحياة ، ولا يحتاج الى الاستدانة ، ولا يلقى كاتب عظيم مثل (صمويل جونسون) فى السجن •

أما اليوم ونحن فى القرن العشرين فليس لدينا ما يمنع أن يكون الانسان موسيقيا أو ممثلا أو كاتبا ، اذا كان لديه ميل طبيعى ورغبة طبيعية فى الموسيقا والتمثيل أو قدرة على الكتابة • وفى الأمم الحية اليوم يستطيع الكاتب أن يكون غنيا بقلمه وكتابته • وبعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) تقدم موظف كتابى فى احدى الشركات الانجليزية

---

(١) هو كتاب (توسلاس) ، وقد ربح منه الناشر آلاف الجنيهات ، فى حين أن المؤلف لم ينل منه سوى خمسين جنيها •

برواية له لتمثل فى ملهى وسماها « نهاية الرحلة (١) » ، وكان يتقاضى اذ ذاك ستة جنيهات فى الأسبوع على عمله الكتابى • وقد فكر فى تلك الرواية التمثيلية عن الحرب ، ووصف ما رأى وما سمع وما شاهد من الحوادث الحربية ، حينما كان جنديا ، فرفضت هذه الرواية أولا ، ثم قبلت ثانيا ، ونالت اعجاب الناظرين فأخذت تنتقل من ملهى الى آخر ومن مقاطعة الى أخرى • وبعد أن كانت تمثل فى انجلترة وحدها مثلت فى الولايات المتحدة بأمريكا ، ثم ترجمت الى الفرنسية والألمانية ، ومثلت فى كثير من أنحاء أوروبة • وبعد بضع سنوات كان مؤلف هذه الرواية من أصحاب الملايين ، بما كان يتقاضاه من كل ملهى تمثل فيه روايته من نسبة معينة من الأرباح !

وفى الأمم غير الحية التى لم ينتشر التعليم فيها كل الانتشار قد يجد الموسيقى والممثل والكاتب صعوبة فى كسب عيشة ، فكم سمعنا عن شعراء وكتاب يتضورون جوعا ، لأنهم لا يجدون من يقدر عملهم حق قدره !

فروسو فى عصره أراد أن يختار (اميل) ما يشاء من الحرف والصناعات ما عدا الموسيقا والتمثيل والكتابة والتطريز والتذهيب والتلميع ، وغيرها من الأمور الكمالية التى لا يقدرها الا من يقدر الفن والجمال وهم قليلون •

لقد علق روسو أهمية كبيرة على اختيار حرفة يدوية لاميل ، ولم يكن (اميل) ليحتاج الى التردد ، ففى المدة الماضية من حياته كان يشتغل بكثير من الأعمال اليدوية ، وكان يرى أعمال الطبيعة والفن أمام عينيه ، وشجع فيه روسو غريزة حب الاطلاع ، وتتبع ميوله ورغباته ، وعرف ما لديه من أذواق وميول ، ومرنه على القيام بكثير من الاعمال • فاميل الآن مستعد لأن يضع يده فى كل عمل يحتاج اليه • وفى استطاعته أن يستعمل الفأس والقدوم والمنشار والمسحج والمخرطة وغيرها من العدد والآلات التى تتطلبها الأعمال اليدوية ، ولكنه ليس بماهر فى استعمالها، وهو فى حاجة الى كسب المهارة الكافية فى استعمالها ، حتى يصبح ماهرا يبدى من الحذق والمهارة ما يبديه الصانع الماهر فى صناعته ، المحترف فى حرفته •

ان (لاميل) جسما معتدلا ، وفى أعضائه مرونة ، وفى استطاعته أن

---

(١) The Journey's End

يستمر على كل حركة مدة طويلة ، ويضع نفسه فى كل وضع من الأوضاع وقد عنى روسو بتربية حواسه كل العناية ، فحواسه قد ربيت تربيـة حقا ، وادراكاته الحسية دقيقة واضحة ، وقد تميزت على كثير من الأشغال اليدوية ، ولايحتاج الآن الى أكثر من التدريب والمرانة كى يكون حاذقا ماهرا فى المهنة التى يختارها ، والتى تلائمه وتلائم نوعه وسنه ، وقد فكر روسو فى كل الحرف ، وشجع (اميل) على أن يختـــار النجارة واشتغل معه فى النجارة وشاركه فيها ، فكان (اميل) يشتغل يوما أو أكثر من كل أسبوع فى أعمال النجارة مع روسو تحت اشراف نجار أو مدرس يجيد النجارة ، ويدفع لهما أجورا على أعمال النجارة التى يقومان بها ٠

وقد رأى روسو أن يشترك مع (اميل) فى الحرفة التى يتعلمها ، فقد اقتنع بأن (اميل) لن يجيد تعلم النجارة الا اذا تعلمها معه أستاذه٠ وفى ذلك يقول روسو : « اننا سنتعلم حرفة معا ، وسنكون تلميذين فى مصنع واحد ، ولن ننتظر أن نعامل كما يعـــامل المثقفون المهذبون من الرجال ، ولكننا ننتظر أن نعامل كما يعامل الصناع والعمال ٠ وقد كان القيصر بطرس (١) يشتغل نجارا فى سفنه ، وطبالا فى الجيش ٠ ولن نتعلم النجارة لنكون نجارين فحسب ، ولكننا نتعلمها لنكون رجالا ٠ »

فروسو لا يريد من تعلم (اميل) النجارة أن يكون نجارا فحسب . ولكنه يقصد من تعلمه أن يكون منـــه رجلا عاملا حاذقا ، ماهرا قديرا ، فماذا يفعل روسو ؟ أيستأجر نجارا لاميل ساعة كل يوم ليعلمه النجارة . كما يستأجر مدرسا ليعلمه الرقص ؟ انه لن يستأجر نجارا ، ولكنـه سيرسله الى المصنع ليكون هو وروســـو تلميذين لأحد الماهرين من النجارين ، حتى يصلا الى درجة الحذق والمهارة ، ويعملا لرفع مســـتوى الحرف والصناعات : لهذا سيذهبان الى المعمل أو المصنع مرة أو مرتين فى الأسبوع على الأقل ليقضيا معظم الوقت فيه ٠ وسيستيقظان مبكرين صباحا كما يستيقظ النجار ، وســـيذهبان الى العمل قبل أن يذهب ، وسيأكلان معه على مائدته قبل أن يأكل ، وسيعملان على حسب ما يأمر ، وسيجدان من الشرف أن يتناولا العشاء مع أسرته ، وسيعودان ــ اذا أرادا ــ النوم على سرر غير مريحة ، حتى يعتاد (اميل) الخشونة والتجلد والصبر والعمل ، والحياة المستقلة ، ولا يجد غضاضة فى أن يعيش كما يعيش العامل ٠ ولن يجد معرة فى أن يحيا كما يحيا الصانع ٠ واذا مال

---

(١) Czar Peter

تلميذك الى العلوم الفلسفية فعلمه حرفة تلائم ذوقه وميوله ، وشجعه على صنع الأجهزة الرياضية ، والأدوات التي يحتاج اليها فى دراسة الرياضة ، كالدائرة ونصف الدائرة والمثلث والمنظار المقرب وغيرها ٠

وسيرى القارىء أنه بتعويد التلميذ التمرينات الجسمية ، والأشغال اليدوية ، وتربية حواسه ،وتعويده الاستقلال في العمل ـ قد اكتسب ذوقا فى تأمله وتفكيره ، ومهارة فى أعماله ، ولن يتأثر بآراء غيره، وسيعمل على أن يضبط شعوره وانفعاله ، ولن يتظاهر بالفضيلة ٠

يقول روسو عن (اميل) : « يجب أن يعمل كفلاح ، ويفكر كفيلسوف » (١) أى يجب أن يكون قادرا على العمل بجد واخلاص ، ومثابرة وعزيمة ، كما يعمل الرجل الفلاح فى حقله، وأن يكون قادرا على التفكير الصائب كما يفكر الفلاسفة والعلماء والادباء ، اذا أراد أن يحيا حياة العمل ، وحياة العلم ، حياة العاملين العلماء ، ولم يرد أن يكون من الكسالى أو المتعطلين أو المتوحشين ٠

ويرى روسو أن أعظم سر من أسرار التربية والتعليم أن يكون فى التمرينات العقلية ترويح للجسم ، وفى التمرينات البدنية ترويح للعقل ، وان نظرة واحدة الى مناداة روسو باتخاذ (أميل) لحرفة له واعتماده على نفسه فى العمل والتفكير تبين لنا أنها روح التربية الحديثة اليوم ، فالمربون المحدثون فى القرن العشرين يرون أن المدرس لا يستحق أن يكون مدرسا الا اذا رضى بأن يحلب البقرة مع التلميذ ، ولا يجد غضاضة فى حلبها كى يربيه تربية علمية عملية ٠ وهذا عينه ما نادى به روسو فى القرن الثامن عشر بقوله : « انى أريد أن يعمل (اميل) كما يعمل الفلاح ، ويفكر كما يفكر الفيلسوف » وهذا هو المثل الأعلى الذى تنادى به التربية اليوم ٠

لقد نادى روسو بالتعليم الصناعى ، وفى نظرنا يجب على كل مثقف أن يتعلم حرفة من الحرف ، أو صناعة من الصناعات ، فالمدرس يجب أن يجيد حرفة أخرى غير مهنة التعليم ، والمحامى يجب أن يكون مجيدا لصنعة من الصناعات ، وهكذا ٠ وقد كان سيدنا أبو بكر خليفة المسلمين تاجرا ، ولما بويع بالخلافة رئى وهو يعد نفسه للتجارة ، فقيل له الى أين يا خليفة رسول الله ؟

---

(١) « He must work like a peasant and think like a philosopher, »

فقال : الى السعى على نفسى وولدى • فقيل له : نكفيك ذلك وفرض له درهمان !

وقد رأى سيدنا عمر ــ رضى الله عنه ــ رجلا ملازما المسجد فى ذلة واستكانة ، فنهره ، وقال له : « قم ان ديننا قوى ، فلا تمت علينا ديننا» •

وعاد بعض الصحابة من ســـــفر فأخذوا يذكرون عبادة أحدهم ، وتفرغه لها : فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : من كان يقوته ؟ قالوا : أخوه ! قال : أخوه أعبد منه ؟ أى أكثر عبادة منه عند الله •

وكان الامام أبو حنيفة بزازا • وفى الحديث : « لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو الى الجبل فيحتطب ! فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس » •

فالدين الاســـــلامى دين علم وعمل ، دين ثقة بالنفس ، واعتزاز بالكرامة ، دين سعى وجهاد ، دين كفاح لا خمول •

وقد كان علماء الدين فى ديانة موسى يتخذ كل منهم لنفسه حرفة من الحرف يعتمد عليها فى كسب عيشه ، لأن العلماء اذ ذاك كانوا لا يأخذون أجرا على تعليم الناس أمور الدين •

وفى انجلترة كان منذ أربعين سنة يقضون نهـــارهم فى حانوت صائغ ، أو حائك ، أو تاجر ، وفى المساء ينتسبون الى احدى الكليات أو الأقسام المسائية فى الجامعة فيدرسون القانون ؛ أو الفلسفة ، أو علم الاجتماع ، أو اللاهوت ، أو علما من العلوم ، أو فنا من الفنون ، أو لغة من اللغات• وبهذا يعدون أنفسهم للحياة العلمية والعملية ؛ كى لايجدوا صعوبة فى كسب عيشهم اذا ساء حظهم ، أو عثر جدهم ، أو أبعدوا الى جهة من الجهات •

(اميل) وهو فى الخامسة عشرة من عمره

ربما تعجب كل العجب حينما ترى قلة المواد التى درسها (اميل)• ولا حاجـة الى العجب ؛ فهو يعرف أن طريق الوصـول الى العلم ليس بصعب ، ولكنه طويل لا حد له ولا نهاية •

لقد تعلم (اميل) بمجهوده الخاص على حسب طاقتـه واستعداده وميوله ، وقد استخدم عقله وتفكيره ، لا عقل غيره وتفكيره •

فاميل يتعلم بنفسه ، ويفكر بنفسه ، وهذا أهم ما تعنى به التربية

الحديثة فى عصرنا هذا • فان معظم هفواتنا وغلطاتنا لا تأتى من أنفسنا ولكنها تصل الينا من غيرنا ؛ فمن هذا التمرين المستمر ، والاعتماد على النفس والتفكير المستقل ـ قد اكتسب (اميل) قوة فى العقل ، واستقلالا فى التفكير ، كما أنه قد اكتسب قوة فى الجسم بما أداه من عمل ، وماشعر به من تعب • فبالعمل والتعب قوى جسمه ، وبالتفكير المستقل وكثرة التمرين نما عقله وتفكيره • ولما كان من الحكمة ألا يحمل الجسم فوق مافى وسعه كان من الحكمة أيضا ألا يحمل العقل فوق طاقته ، فاميل يتقدم تقدما يناسب قوته وقدرته ، فلا يكلف ما لا يستطيع القيام به جسميا أو عقليا ؛ لذلك تجد أفكاره واضحة ، وآراءه ناضجة ، ويهضم الأفكار التى يصل اليها هضما جيدا قبل أن تتسلمها الذاكرة ، فهو لا يرهق ذاكرته بأشياء لا يفهمها •

ان لدى (اميل) قليلا من الأفكار ، ولكنه قد وصل اليها بنفسه ، فهو لا يعرف شيئا نصف معرفة ، ولا يفهم شيئا نصف فهم • وهناك أشياء كثيرة يعرفها غيره ، ولن يفكر (اميل) فى معرفتها لعدم حاجته اليها ، فهو قد ربى التربية التى بها يستطيع كسب المعلومات عند الحاجة، وهو واسع التفكير ، يعيد النظر ، وقد أعد كل الاعداد لكسب العلوم والمعارف ، ويعرف كيف يكسبها ، وكيف يصل اليها بسهولة ؛ لأن عقله مفتوح للعلم ، ومستعد لأن يتعلم • كما يقول « مونتين » : « ان لم يعلم فهو على الأقل قابل للتعلم (١) » •

وقد اكتفى روسو بأن يعرف (اميل) كيف يبحث عما يحتاج اليه من المعلومات والآراء والأفكار ، ويعرف كيف يصل الى الغرض الذى يرمى اليه من العمل ، والسبب الذى يدعو الى تفكيره ، وقد صرح روسو أكثر من مرة بأنه لا يقصد أن يزود (اميل) بالعلوم ، ولكنه يرمى الى أن يعلمه الطريقة التى بها يحصل على العلم عند الحاجة اليه ، ويكسب المعارف عند احتياجه اليها ، وقد كان غرضه أن يقدر (اميل) العلم حق قدره ، ويحب الحقيقة ، ويعمل للوصول اليها ، ويبث فى نفسه حبها •

وبهذه الوسيلة كان تقدم (اميل) بطيئا ؛ فقد كان يخطو خطوات متئدة ، فلا يتجه الى شىء الا اذا كان واثقا به ، كى لا يضطر الى الرجوع الى الوراء خطوة أخرى ، ويكفينا أنه عود البحث عن الحقيقة ، والبحث عن العلم متى أراد •

---

(١) Montaigne says, «if not taught, he is at least teachable. »

لقد قلنا : ان معلومات (اميل) كانت قليلة ، ولم يفهم الا العلوم الطبيعية ، ولم يعرف غيرها حتى اسم « التاريخ » ، ولا المقصود من كلمة «أخلاق» أو كلمة «ميتافيزيقيا (١) » انه يدرك العلاقة بين الانسان والبيئة التى تتصل به ، ولكنه لا يدرك العلاقة الخلقية بين الانسان والانسان • وفى استطاعته أن يدرك ويتصور الأمور المعنوية بمساعدة الصور والرسوم الهندسية والرموز الجبرية •

انه يدرس الأشياء التى تخصه ، وتتصل به ، ويقدرها تقديرا دقيقا بنفسه ، ولا يكترث لشىء غير الوصول الى المعرفة •

ان (اميل) طالب مجد فى عمان ، قوى فى عزيمته ، صبور على تحمل الآلام ، شجاع لا يميل الى المبالغة فى تقدير الخطر ، ولا ينازع القضاء والقدر ، ويعد نفسه مستقلا عن غيره ، ولا يأخذ شيئا من أحد بالغصب والاجبار ، ولا يفكر مطلقا فى أن يكون مدينا لأحد ، لأنه لا يعتمد الا على نفسه ، ولديه كل الحق فى أن يكون مستقلا كل الاستقلال ، وليس لديه من الهفوات سوى الهفوات العادية التى يقع فيها كل انسان ، ولا يمكن أن ينجو منها أحد •

ومجمل القول : أن (اميل) لا يريد الا الأفكار التى يستعد عقله لقبولها ، فهو يفكر مستقلا ، وله أفكار تختلف عن أفكار غيره ، وشخصيته تختلف عن شخصية سواه ، ويدرك ما ينفعه وما يضره ، وهو محب للفضيلة ، وليس عبدا للرذيلة ، وليس لديه من الرذائل الا القدر الذى لا يخلو منه انسان •

ان له جسما سليما ، وصحة قوية وأعضاء نشيطة ، وعقلا سديدا ، وقلبا طاهرا ، لا يسىء الظن بغيره ، ولا يحب نفسه الا قليلا ، مع أن حب النفس شىء فطرى لدى كل انسان • وقد عاش عيشا طبيعيا ، قانعا راضيا سعيدا ، فهل يظن أن شابا كاميل فى اخلاقه وهو فى الخامسة عشرة من عمره قد أضاع تلك السنوات الماضية من حياته ؟ لا نظن ذلك•

خلاصة الجزء الثالث من (اميل)

١ ــ لقد وصل (اميل) وهو بين الثانية عشرة والخامسة عشرة الى مرحلة العلم والعمل ، فلديه الآن رغبة فى التعلم ، وفى العمل الذى يقوى تلك الرغبة • ومن هذا الرأى أخذت الدكتورة (منتسورى) المربية

---

(١) Metaphysics

الايطالية مذهبها فى أن الطفل يجب أن يتعلم ، ولذا تنتظر حتى يشعر الطفل بحاجته الى التعلم والارشاد ، فتعلمه أو ترشده ٠

٢ ــ اجعل التعليم عمليا ، واجعل الأعمال مواد للتعلم ، دع (اميل) يتعلم بالملاحظـــة لا بالتلقين ٠ دعه يتعلم الصـــناعة والفنـــون والأعمال اليدوية ، دعه يتعلم بالملاحظة والمشاهدة علوم الطبيعة من دراسة الطبيعة نفسها ، دعه يشاهد الشمس وهى تشرق أو تغرب فى الربيع والصيف والخريف والشتاء ، ويتأمل الطبيعة التى تحيط به حتى يعرف بيئته حق المعرفة ٠

٣ ــ فى هذه السن نعنى بتربية (اميل) تربية عقليـة ، ونتركه يعتمد على نفسه فى التفكير والبحث والتجربة غير معتمـد على كتب أو مدرسين ، ولكنه يعتمد على نفسه فى دراسة العلوم التى يميل اليها ، والتى يجد لها ثمرة فى حياته العملية ٠ فالمربون المحدثون الذين ينادون اليوم بمراعاة ميول الطفل ورغباته ، ودراسته المواد التى يمكن الانتفاع بها فى الحياة العملية ــ لم يأتوا بجديد ، فقد سبقهم روسو بذلك فى القرن الثامن عشر ، فروسو ضد الكتب والدراســة من الكتب ؛ لأنه يريد من الحياة ومن الطبيعة ، ولم يسمح لاميل بقراءة شىء من الكتب الا كتـاب (روبنسون كروزو) ؛ فقد أعجب به الاعجاب كله ؛ لأنه يتعلق بالطبيعة والحياة الطبيعية ، والاعتماد على النفس فى تلك الحياة ٠

ولنا أن نعترض على روسو فنقول : هل تكفى هذه المدة القصيرة من الثانية عشرة الى الخامسة عشرة التربية العقلية ، ودراسة العلوم والفنون، واجادة صناعة من الصناعات ؟

ان ثلاث سنوات لا تكفى الدراسة والتحصيل ٠ وقد شـــعر روسو بقصر هذه المدة ، فنادى بأن يدرس (اميل) العلوم التى لها صلة بحياته العملية ، ظانا أن فى هذه المدة القصيرة الكفاية ٠ وفى اعتقادنا أنها لا تكفى وأن الطفل قبل الثانية عشرة وبعد الخامسة عشرة يجب أن يتعلم المواد التى يميل اليها ، والتى لها صلة بالحياة حتى يثقف ثقافة كافية ، ويربى تربية حقا ٠

٤ ــ وان أهم فكرة نادى بها روسو فى التربية العقلية أن يبحث التلميذ عن الحقيقة ، ويعمل للوصـــول اليها بنفســـه وبحثه ، وتفكيره وتجاربه ، لأن الأفكار التى يصل اليها المتعلم بنفسه أقوى أثرا فى النفس وأثبت فى الذهن من تلك التى تصـــل اليه عن طريق التلقين من الآباء والمدرسين ٠

٥ ـ اننا لا نقصد العلم وحده ، ولكننا نقصد العلم الذى يمكن الانتفاع به عمليا ، ويحتاج اليه فى الحياة ٠

٦ ـ يجب أن تكون المادة فى مستوى الطفل ، بعيدة عن المبالغة ٠

٧ ـ دع الطفل ينتفع بذوات الأشـياء ٠ واذا عجزت عن الاتيان بالشىء ذاته فأحضر له صورته أو نموذجا له ٠

٨ ـ ليس المهم أن يأخذ التلميذ كثيرا من المواد ، ولكن المهم أن يفهم ما يأخذ ، ويدرك ما يعرف ٠

٩ ـ يجب أن يتعلم الغلام حرفة من الحرف أو صناعة من الصناعات

١٠ ـ دع التلميذ يتعلم ما يحتاج اليه ٠

الفصل التاسع

الجزء الرابع من كتاب (اميل)

وهو يبحث فى التربية بعد الخامسة عشرة ، ويعد هذا الجزء أكبر الأجزاء الخمسة من كتاب (اميل) ، وقد تكلم فيه روسو عن التربية الوجدانية والخلقية والدينية ، وهى أهم أنواع التربية .

ما أسرع مرور الحياة ! فقد انقضى منها خمس عشرة سنة ، وهى الربع الأول من الحياة الذى لا يعرف فيه (اميل) كيف ينتفع بهذه الحياة . وسيجد نفسه فى الربع الاخير منها عاجزا عن التمتع بها ، ففى مرحلة الطفولة لا يعرف كيف يعيش ؟ وفى الوقت الذى يدرك فيه كيف يحيا ويعيش ، يجد أن الوقت قد ضاع ، وأنه قد تأخر ، وبين المرحلتين الأولى والأخيرة من الحياة يضيع الانسان ثلاثة أرباع عمره بين النوم والعمل ، والحزن ، وتحمل المشاق والآلام فى هذه الحياة ، فالحياة قصيرة ، لا لقصر الوقت الذى نحياه ، ولكن لأننا لانسمح لأنفسنا بقليل من الوقت للتمتع بالحياة ! فالحياة قصيرة ، ولا نعرف كيف ننتفع بها ؟

لقد ولد الانسان مرتين : احداهما حينما ظهر فى هذا العالم ، والأخرى حينما بدأ يشعر بالحياة ، ولد أولا ليكون انسانا ، ثم ولد ثانيا ليكون رجلا ، وان هؤلاء الذين يشبهون المرأة بالرجل الناقص مخطئون — ولا ريب — فى تفكيرهم وتشبيههم فقبل سن البلوغ نجد صعوبة فى التمييز بين الأطفال من الجنسين اذا نظرنا اليهما ، فهناك تشابه كبير فى الوجه والشكل والملامح والصوت ، ولا يختلف الولد والبنت الا فى المظهر ، فالبنات أطفال ، والغلمان أطفال(١) . وقد يصعب تمييز الطفل من الطفلة بمجرد الرؤية فى أثناء الطفولة ، ولكن الانسان لم يولد ليكون طفلا الى الأبد ، فللطفولة وقت تنتهى فيه ، كما أن لها وقتا تبدأ به .

---

(١) « Girls are children, and boys are children.»

وفى الوقت الذى تبدأ فيه مرحلة البلوغ والمراهقة تبدأ مدة الخطر فى الحياة ، فكما أن اضطراب الأمواج يسبق العاصفة ـ كذلك اضطراب الانفعالات والأعصاب يسبق الثورة فى مرحلة البلوغ والمراهقة ، فهذه الظاهرة تحذير لنا من الطبيعة ، كى نحترس من قرب الخطر ، فقد تغيرت أخلاق الشباب ، واضطرب عقلهم، وثارت أعصابهم ، وكثرغضبهم وتغيرت ميولهم حتى أصبحوا عاجزين عن ضبط شعورهم وأنفسهم ، وانفعالهم وثورة أعصابهم • فهم الآن لا يصغون الى صوت المربى الذى اعتادوا الاصغاء اليه • وهم الآن كأسد نافر أصيب بالحمى ، فأصبح لا يثق بحارسه ، ولا يود أن يراقبه ، ولا يحتمل أن يضغط عليه !

وقد يحتقر الشاب فى هذا الوقت العصيب من يرشده ، وقد يرفض أن يرشده أحد ، ولا عجب ، فهو الآن يختلف عما كان عليه من قبل ، فقد تغير مزاجه ، وتغيرت مظاهره وأخلاقه ، واضطرب جسمه وعقله وأعصابه ، ونما جسمانه ، وَخشن صوته • وهو الآن ليس بطفل ولا رجل ، ولا يمكنه أن يتكلم طفلا ، ولا أن يتكلم رجلا • انه الآن يريد أن يحيا كما يحيا الرجال • ويمكنك الآن أن تقرأ فى عينيه نورا تبعثه نار مشتعلة فى قلبه ، ولا تزال فى تينك العينين تلك الطهارة المقدسة ، ولكنهما قد فقدتا نظرات الطفولة البريئة ، فهو الآن يدرك أنه يستطيع أن يصف مايراه بعينين فى حين أنه بدأ يخفضهما خجلا !

وهو شديد الاحساس ، ولو أنه يدرك مايشعر به وما يحسه •

انه قلق ولا يدرى سببا لهذا القلق ، وقد يحدث هذا كله بالتدريج، فيكون لديك من الوقت مايسمح لك بدراسة هذه الحالة المضطربة • وقد تبلغ به الحدة درجة يتألم فيها لأقل سبب ، بل من غير سبب ، وقد تصل رغبته فى الشىء الى درجة الجنون ، وقد يغضب ويحزن ويأسف لحظة ، ولكنه سرعان مايعود الى حالته الأولى • وقد يبكى بغير سبب ، وقد يرتعد حينما تمسه يد امرأة ، وقد يبدو عليه الخوف والجبن والاضطراب اذا حضر فى مجلس به امرأة •

لقد فتحت لاميل صفحة جديدة ، وطويت صفحات الطفولة ، فقد انقضى وقت اللعب ، وبدأ وقت الجد والعمل • انتهت التربية العادية ، وبدأ الوقت الذى يشعر فيه الشاب بالواجب والتبعة ، فارقبه عن كثب ، واجعله قريبا منك حتى تقوده الى الطريق المستقيم ، وتنقذه من الخطر المحدق به فى هذه المرحلة من الحياة •

هذه هى الولادة الثانية التى تكلمت عنها ، فاميل الآن يدخل الحياة

الجديدة ، وقد كانت مجهوداتنا فيما مضى حول اللعب • أما اليوم فمجهوداتنا حول تربية وجدانه وانفعالاته وعواطفه •

الرغبات والانفعالات والعواطف

ان (اميل) الآن ـ كما قلنا ـ قوى البنية سليم الجسم ، يستطيع أن يفهم بسهولة (ولديه من الوجدانات وجدان هو أصل الرغبات والانفعالات الأخرى التى تلازم الانسان ولا تتركه ، وذلك الوجدان هو حب النفس(١) ، وهو الوسيلة الرئيسية للمحافظة على النفس • فمحاولتك أن تبيد هذا الوجدان وتقضى عليه محاولة تخالف العقل ، ولا تأتى بنفع ، لأن معنى هذا أنك تريد أن تغير فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وتتغلب على الطبيعة ، وتجعلها فى صورة أخرى تنافى الطبيعة التى أوجد الله الانسان عليها •

ويرى روسو أن حب النفس ضرورى للمحافظة(٢) على النفس ، فنحن نحب أنفسنا أولا ، ثم نحب من يتصل بنا ممن نجد فيه منفعة لنا ، ونشعر بآلام غيرنا ، لأن هذا الشعور يوقظ فينا احساسا بالألم ، ونفرح لفرح غيرنا ، ونحزن لحزنه ، فاميل يحب نفسه أولا ، ثم الانسانية ثانيا ، ويكره أن يظلمه أحد ، كما يكره أن يظلم غيره • وبهذه الوسيلة يشارك الناس فى شعورهم ، فيسر لسرورهم ، ويتألم لآلامهم •

فمحبة النفس ميل فطرى فى الانسان ، خلقه الله فيه للمحافظة على حياته ، فنحن نحب أنفسنا أكثر من غيرنا ، كما نحب كل شىء يتصل بالمحافظة على حياتنا • ولنا رغبات متنوعة قضت بها الطبيعة • وليس من الحكمة ابادتها أو القضاء عليها ، ولكن من الحكمة توجيهها توجيها صالحا ، والعمل على كمالها •

وللمحافظة على النفس نحتاج الى أن نحب أنفسنا أكثر من أى شىء آخر ، ونحب كل شىء ، يؤدى للمحافظة عليها • فكل طفل مولع بمربيته، متعلق بها أكثر من تعلقه بغيرها • واذا رضع من ذئبة تعلق بها من حيث لا يشعر ، وأجلها من حيث لا يشعر ، لأن لها صلة كبيرة بالمحافظة على حياته • ولا عجب ، فهذه المحبة فطرية فى الانسان ، فهو يحب من يحبه، ويفكر فيمن يفكر فيه ، ويتعلق بمن يتعلق به ، ويبغض من يبغضه ، ويكره من يكرهه ، وينفر ممن يؤذيه •

---

(١) Self-Love (٢) Elf preservation

وقد يزداد حبه للشخص ، وقد تزداد كراهيته له ونفوره منه اذا كان هناك مايدعو الى زيادة الحب أو الكراهية ، فالطفل كالرجل : يحب من يحبه ويحسن اليه ، ويكره من يضره أو يحاول ايذاءه ، ويتجنبه ويبعد عنه ، وبهذه الوسيلة تزداد علاقته بالشخص أو تقل ، ويزداد حبه له أو ينقص ، ويبدأ يفكر فى المجتمع الذى ينتسب اليه ، ويشعر بالواجب ، ويفضل هذا ، وينفر من ذاك ٠

واذا أكثرت من الأوامر على الطفل فقد ينسب هذا الى الاستبداد ، والى رغبتك فى تعذيبه ، فيبدأ فى معارضتك ، ويعلن عصيانه عليك ٠

فرغبات الطفل وميوله قد تكون حسنة ، وقد تكون قبيحة ، وقد تكون مصيبة ، وقد تكون خاطئة ، ولذا يحتاج الى من يرشده ويقوده حتى تنقاد نفسه ، ويقتنع بالصواب بعد الموازنة بين الحسن والقبيح ، والغث والسمين ٠

وفى الوقت الذى يشعر فيه الشاب بالحاجة الى رفيقة تشاركه فى حياته وتفضى اليه بكل شىء يصبح انسانا اجتماعيا ، فقلبه فى هذه المرحلة لا يميل الى الوحدة والعزلة ، ولكنه يميل الى رفيقة له ، تشاركه فى مسراته وأحزانه ، وسعادته وشقائه ٠٠ وهو يود من هذه الرفيقة التبادل فى الأفكار ، فتقابل الحب بالحب ، والعطف بالعطف ، فتحبه كما يحبها ، وتفضله على غيره ، وتفكر فيه كما تفكر فى نفسها ٠ وقد يوازن المحب بين شخصين فيفضل أحدهما على الآخر ، ويحب الأول أكثر من الآخر ٠ وهنا تحدث المنافسة والصراع فى الحب والغيرة ٠

وحينما يشعر الانسان بلذة الحب يتمنى أن يكون محبوبا من كل انسان ، وستتحول محبة النفس الى عاطفة احترام النفس ، فيحترم الشخص نفسه ، ويضعها موضعها من غير عجب أو تكبر أو تعاظم ، فالعجب والتكبر والتعاظم صفات لا تكون فى الشخصيات العظيمة ، وانما تبدو فى الشخصيات الضعيفة ٠

ان الشاب الذى ربى تربية طبعية يحب غيره ويعطف عليه ، كما يحب نفسه ، فقلبه يشعر بآلام غيره من اخوانه ، ويهتز طربا حينما يرى صديقا من أصدقائه ، ويأسف كثيرا اذا كان سببا فى ايلام غيره ٠ فهو كثير الاحساس ، طيب القلب ، قوى العاطفة ، لأن هذه المرحلة مرحلة الشباب ، حيث تقوى فيه عاطفة الشفقة والرحمة ، ويبدو فيه العفو والكرم ، والسخاء والجود ٠

ان السعادة الانسانية مشكوك فيها ، وغير موثوق بها ٠ واذا أراد

الانسان أن يكون سعيدا فليعش مستقلا ، وليعتزل هذا العالم • هذا رأى روسو • والله وحده هو القادر على أن يمنح الانسان السعادة ، ولكن من يستطيع أن يكون فكرة عن تلك السعادة المطلقة ؟

ان غلاقتنا بغيرنا تنشأ عن شعورنا بآلامهم وأحزانهم • ومن ذلك الذى لا يتألم للرجل الشقى ، ولا يشعر بحزن الحزين ؟ ومن ذلك الذى يفكر فى انقاذ غيره مما وقع فيه من الشدائد ؟ ان من الحكمة أن نضع أنفسنا موضع غيرنا ، حتى نشاركه فى شعوره ، فنعطف على من يستحق العطف ، ونشفق على من يستحق الشفقة ، ونتألم لذلك الرجل البائس المسكين •

واياك أن تبذر بذور الفخر والعجب والتكبر والحقد والحسد فى نفس الشاب ، فان هذه البذور أصل الشقاء الانسانى فى هذه الحياة •

اياك أن تذكر له تلك السعادة الانسانية الوهمية ، وتتسرع فى أن تظهر له مظاهر القصور ، وجمال الحفلات (الأرستقراطية) ، بل أره العالم كما هو ، ولا تكتف بأن تريه المظاهر الخارجية وتترك الحقائق الداخلية ، كى لا تفسده ولا تضله •

ان شابا بلغ من العمر ست عشرة سنة يستطع أن يدرك معنى الألم والشقاء ، لأنه قد شعر بالألم والشقاء ، ولكن من الصعب أن يدرك الشاب أن غيره يشقى ، لأن رؤية الشقاء من غير شعور به لا تكفى المعرفة الحق • فروسو يريد من اميل أن يشعر بالشىء لا أن يكتفى برؤيته وحدها ، لأن الرؤية وحدها لا تكفى • وهذا ما ينادى به علماء التربية اليوم من الانتفاع بأكبر عدد ممكن من الحواس فى التربية والتعليم ، فلا يكفى أن يتخيل الشاب مايشعر به غيره ، بل يجب أن يشعر بما يشعر به غيره ، حتى يشارك الناس فى شعورهم ، فيسر لفرحهم ، ويحزن لألمهم •

ومن الواجب أن نشجع هذا الشعور الذى يبديه الشاب ، ونحضر له الغذاء الذى يغذيه، فنهذب مالديه من حب النفس، ومالديه من انفعالات، ونعوده الشفقة والرأفة ومحبة الانسانية ، حتى تتكون لديه أسمى العواطف ، ونهذب مايستحق التهذيب من الوجدانات والانفعالات ، كالحسد والحقد والشره والكراهية •

ويمكننا هنا أن نكتفى بذكر بعض القواعد العامة التى يجب أن نراعيها فى هذه المرحلة من التربية :

١ ــ ان القلب الانسانى لا يشارك غيره فى شعوره اذا كان غيره أكثر

سعادة منه ، ولكنه يشارك الأشقياء والبائسين فى شعورهم ، فيتألم لآلامهم ، ويفرح لفرحهم ٠

٢ ـ اننا نتألم لمن يخطىء ويرتكب الرذيلة ، ونشاركه فى شعوره ، ونلتمس له المعذرة مادمنا نحن أنفسنا لا نخلو من تلك الرذائل، وتلك الهفوات ٠

فلا تعود تلميذك أن يحتقر هؤلاء البائسين العاثرى الجد ، السيئى الحظ ٠ ودعه يفهم أن حظ هؤلاء البائسين قد يكون حظا له يوما ما ، فيصبح بائسا مثلهم ، ويقع فيما وقعوا فيه من البؤس والشقاء٠ دعه ينظر اليهم نظرته الى من يعرفهم ويعرفونه، حتى يشعر شعورهم ٠

٣ ـ ان آلامنا لغيرنا تقاس بمعرفة احساس الرجل المتألم ، والتحقق مما أصابه ، وماشعر به من الأذى ٠

ان الجمهور من الشعب يعد أغلبية النوع الانسانى ، أما البقية فأقلية ٠ ان الانسان هو الانسان مهما يكن مركزه ، وقد قرر الفلاسفة أن لكل انسان ـ مهما يكن مركزه ، ومهما تكن طبقته ـ نصيبا من السعادة يساوى نصيبه من الشقاء ٠ وهو مبدأ خطير يخالف العقل ، فاذا كان النوع الانسانى جميعه متساويا فى السعادة والشقاء فلم أخضع نفسى لانسان كائنا ما كان ؟

يقول روسو : «تعود احترام عنصرك وجنسك ٠ وتذكر ان الشعب يتألف من العامة والجمهور ، وأنه اذا ذهب الخاصة والفلاسفة من هذا العالم فلن يشتاق اليهم أحد ٠ وقد تسير أمور العالم سيرا حسنا كالمعتاد » ٠

٤ ـ الانسانية والسعادة :

عود تلميذك أن يحب الناس جميعا حتى هؤلاء الذين يحتقرهم ، ولا تجعله يضع نفسه فى طبقة واحدة من الطبقات ، بل دعه يضع نفسه بين جميع الطبقات من الأمة ٠

تحدث اليه عن الانسانية ، وعن المحبين للانسانية ممن عرفوا بالشفقة والرأفة والرحمة ٠

دعه يذكر دائما أن الانسان أشرف المخلوقات ، فلا يسىء الى شرفه ٠

دعه يعلم أن هناك أقواما قساة القلوب ، لا يتأثرون لغيرهم ، ولا يتألمون الا اذا سمعوا العويل والبكاء ، وشاهدوا الدموع والعبرات ، أما الحزن الصامت العميق الذى يشعر به ذلك القلب الحزين فلا يؤثر فيهم مطلقا • فأمثال هؤلاء لا يعرفون الانسانية والشفقة ، والعطف والرأفة ، ولكن لا تتسرع فى الحكم على أمثال هؤلاء من الشبان ، فان عدم شعورهم فى الظاهر قد يكون ناشئا عن الجهل بالانسانية ، وما فيها من آلام وأحزان ، وقد يتحول ذلك الى شعور وعطف وشفقة ، فى الوقت الذى يدركون فيه أن فى الحياة الانسانية آلاما لا يعرفونها ، وأحزانا لا يدركونها •

ولكن القارىء قد يقول : لم كل هذا ؟ فهل نسى روسو الفكرة الأولى وهى السعادة الدائمة التى وعد بها (اميل) ؟ لا ، انه لم ينس هذه الفكرة ، فهو يقول : « دعنا نأخذ شابا عند نهاية المرحلة الأولى من تعلمه وندخله العالم ، ونسير به فى طريق غير طبيعى • فقد يعلو فى الحال ويصل الى القمة ، ويختلط بأرقى الطبقات فى المجتمع ، ويقدم الى العظماء ، ويتعرف بالخاصة • وقد تتأثر بفرحه المفرط فى البدء ، وقد تحسبه قانعا راضيا سعيدا ، وتظن أنه متمتع بتلك المسرات ، وتلك المظاهر والملاذ ، ولكن أنظر الى حاله العقلية ، أنظر اليه وهو سائر فى القصر تجده يسائل نفسه كثيرا : لم هذا ؟ ولم ذاك ؟ ولم لا يكون هذا مساويا ذاك ؟ فتراه متألما بسبب هذه المسرات والملاذ ! وقد اعتدنا الحكم على السعادة بالمظاهر ، فنتخيل أحيانا السعادة فى المكان الذى لا وجود لها فيه • وان سرور القلب وفرحه ورضاه من علامات السعادة • والرجل السعيد حقا سعيد فى قلبه ، يتكلم قليلا ، ولا يضحك الا نادرا •

٥ ـ فى مرحلة البلوغ والمراهقة :

ان المعلمين يشكون أن هناك نارا طبيعية فى هذه المرحلة من العمر ، وهى مرحلة البلوغ والمراهقة ؛ هذه النار تجعل الشاب عاصيا غير قابل لأن يحكم ، ولا يمكن ضبطه وضبط ميوله وانفعالاته • وهذه حقيقة من الحقائق ، ولكن الهفوة هفوتهم ، والخطأ خطؤهم ، فالنار المتأججة فى الشاب لا يمكن أن تعوق تربيته وتهذيبه ، بل هى الوسيلة الصالحة لتربيته وتهذيبه ، فهى التى تمكنك من السيطرة على قلب تلميذك ومحبته • وان حبه الأول ، أى حبه لك أيها المعلم ـ هو العنان الذى به تستطيع أن تقوده فى جميع حركاته وسكناته ، وترشده الى خير المثل حتى يصل الى الطريق المستقيم • فقد كان من قبل حرا يعتمد على نفسه ، ولا يفكر الا

فيما يحتاج اليه ، أما الآن فهو عبد لقلبه ، يفكر فيعلاقته بغيره ، وصلته التى تربطه بأبناء جنسه ، ولكن لا تظن أن هذا الشعور الجديد عام يشمل النوع الانسانى كله ، فحبه الأول مقصور على أصدقائه ، وخلانه المتصلين به الذين يعرفونه حق المعرفة ويعرفهم ، ويتصلون به كل الاتصال ويتصل بهم ، والذين يحبهم ويحبونه ، ويعزهم ويعزونه ، ويحتاج اليهم ويحتاجون اليه • هؤلاء الذين يشاكلونه فى شعوره وتفكيره ويشاكلهم هو فى شعورهم وتفكيرهم ، فيتألمون لألمه ، ويتألم لآلامهم ، ويفرحون لفرحه ، ويفرح لفرحهم •

انه الآن يشعر بعلاقته بغيره ، ويشعر غيره بهذه العلاقة وهذه الصلة ، ففى استطاعتك الآن أن تسيطر على نفسه ، وتستعبد قلبه من حيث لا يشعر •

ماذا يكون شعوره ، وبماذا يشعر حينما يبدأ يفكر فى نفسه ، ويدرك ما قمت به نحوه من التربية والتعليم ، والتثقيف والتهذيب ؟ انه اذا وازن بين نفسه وغيره من اخوانه ، ووازن بينك وبين غيرك من المعلمين والمربين ، وشعر بمقدار ما قمت به نحوه من عمل وتثقيف ، وتربية وتهذيب ـ شعر بفضلك الجم ، وأثرك الحسن ، وخضع لك خضوع حب وتبجيل • فاذا كنت تنتظر أن يطيعك جزاء ما قمت به نحوه من التربية بدأ يسىء الظن بأنك كنت تقوم بهذا كله لتحتال على اخضاعه ، وسيظن أنك فى الوقت الذى كنت تدعى فيه أنك تخدمه مخلصا له غير منتظر جزاء ولا شكورا ـ كنت تسجل عليه دينا من الديون ، وتقيده بشروط لم يرض بها ، ولم يفكر فيها مطلقا !

ان الشاب فى مرحلة البلوغ يميل الى الفتاة ، والفتاة تميل الى الشاب ، وهذا الميل فطرى فى الانسان ناشىء عما فيه من الغريزة الجنسية وقد تكلم عنها (فرويد) كثيرا فى القرن العشرين ، وتكلم عنها روسو من قبل فى القرن الثامن عشر • واننا لا نحب الا اذا كان هناك ما يدعو الى الحب ، ولا نفضل أحدا على آخر الا اذا كان هناك ما يدعو الى التفضيل • يقول روسو : « ان الحب أعمى »(١) ؛ لأن للمحب عينين يرى بهما مالا يراه غيره ، فهو لا يرى فى المحبوب نقصا ، وقد يرى فيه أشياء لا يستطيع غيره أن يدركها ، وقد تكون الحسنات فى نظره عيوبا فى نظر غيره ، وهذا ما يعنيه الشاعر العربى بقوله :

---

(١) « Love is blind »

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

وان الشاب الذى لا يعرف شيئا عن الفضيلة ، ولا يعرف شيئا عن الجمال ـ يعد النساء جميعهن بمنزلة واحدة من الفضيلة والجمال • فكلهن لديه سـواء ، فالمـرأة الأولى التى يراها تعد فى نظره أحسن امرأة بين النساء !

ومن الواجب أن يكون الحب متبادلا بين المحبين ، وألا نحب الا من يستحق الحب ، ولا نفضل الا من يستحق التفضيل • وان من يشعر بلذة الحب يتمنى أن يحبـه كل انسان ، وسنجـد بذور الحب تنبت فى قلب الشاب فى هذه المرحلة ، على الرغم منا ، سواء أردنا أم لم نرد •

وفى مرحلة البلوغ والمراهقة يحـدث كثير من الاضطراب الجسـمى والعقلى والعصبى ، يختلف باختـلاف الأشخاص وأمزجتهم وبيئـاتهم ، والمناخ الذى يعيشون فيه • وهناك فرق بين الأقاليم الحارة والباردة ينشأ عن الحرارة والبرودة ؛ فالشاب تبدو عليـه علامات البلوغ والمراهقة فى الجهات الحارة قبل الجهات الباردة •

ان الشاب فى هذه المرحلة يغلى دمه بالتدريج ، ويتخمر ويفور ، وتتطلب حيويته الزائدة فيه أن تجد لها مجالا ، ويبدأ يفكر فيمن حوله ، وينظر الى الأشياء نظرة فاحصة ، ويشعر بأنه ليس الغرض أن نعيش وحدنا فى هذه الحياة ، فيفتح قلبه لمحبة الانسانية ، ويظهر عاطفة نحو اخوانه وأصدقائه • وهنا يستطيع المربى أن يبذر بذور الانسـانية فى قلب الشباب ، فهذا هو الوقت الذى يمكنه أن يبث فيه محبة الانسانية والتفكير فيها :

فالشاب الذى ربى فى بيئة طاهرة يتألم لآلام غيره ، ويفرح لرؤية أصدقائه ، ويأسف اذا أساء اليهم ، ويكفر عن هذه الاساءة ، ويشـعر بخطئه ، ويعفو عن المخطىء منهم ، ويصفح عن المسىء •

أما الشاب الذى ربى فى بيئة فاسدة فقد يفرح لآلام غيره ، وقد يظهر من الكراهية والحقد والحسد ما لا ينبغى أن يظهر ، ولو وضع نفسه موضع هؤلاء البائسين الأشقياء لشعر بشعورهم ، وأظهر الشفقة بهم ، والعطف عليهم • ان الناس جميعا يخلقون عراة الأجسام ، معرضين لآلام الحياة وأمراضها ، ومتاعبها وأحزانها • وفى النهاية يحكم عليهم بالموت• ولا يستطيع أن ينجو من ذلك أحد • وهذا ما نقصده اذا قلنا : ينبغى أن يكون الانسان انسانا ، يدرس الأمور الجوهرية للانسانية ، الأمور التى

تتصل بالنوع الانسانى ، حتى يشعر بشعور غيره • وان الانسان الذى يشعر بما يشعر به غيره لا يمكنه أن يشعر بآلام غيره ، ولكن اذا وضع نفسه موضع غيره أمكنه أن يسر لسروره ، ويحزن لأحزانه • ولا يشعر بالألم الا من قاسى الآلام ؛ ففى استطاعتنا أن نضع أنفسنا موضع هؤلاء الذين يشاركوننا فى الفقر والآلام والأحزان ، ولكن ليس فى استطاعتنا أن نضع أنفسنا موضع الأغنياء والعظماء الا اذا أولعنا بهم ، وأحببناهم حقا • فينبغى أن نبث فى نفس الشاب حب الانسانية ، وأن نريه الحياة كما هى فى مظاهرها المحزنة والسارة •

اننا لا نتألم لآلام غيرنا الا اذا أدركنا وعرفنا حق المعرفة أننا معرضون لهذه الآلام ، وقد يحدث لنا ما حدث لغيرنا ، وهنا يسأل روسو : لماذا لا يتألم الملوك لآلام رعيتهم ؟ ثم هو يجيب بأنهم لا يتألمون لآلامهم لأنهم لا ينتظرون أن يكونوا من طبقات الشعب فى يوم ما ! لماذا يقسو الأغنياء على الفقراء ؟ لأنهم لا يخافون أن يصيروا فقراء مثلهم فى يوم من الأيام ! لماذا يحتقر النبلاء العامة من الشعب ، وينظرون اليهم نظرة احتقار ؟ لأنهم يعتقدون أنهم لن يكونوا من طبقة العامة ! ولو شعر هؤلاء جميعا بما تشعر به الكافة والطبقات الفقيرة من الشعب ، وعرفوا أنه قد يحدث لهم ما حدث لغيرهم ــ ما نظروا اليهم هذه النظرة ، وما احتقروهم هذا الاحتقار ، ولعطفوا عليهم كل العطف • ولا عجب ؟ فقد عاش روسو فى عصر كثرت فيه المظالم ، وكثر فيه البؤس والشقاء ، وشاع فيه اضطهاد العامة والفقراء ، فلا ترب تلميذك على أن ينظر من علو باحتقار وتكبر الى هؤلاء الذين عثر جدهم ، وساء حظهم !

دعه يشعر ويدرك تلك الحقيقة وهى أن حظ هؤلاء التعسين قد يكون حظه فى يوم من الأيام ، دعه يشعر باحترام هؤلاء واحترام أعمالهم ، دعه يدرك أن قدميه واقفتان على حافة الهاوية التى قد يقع فيها فجأة فى لحظة ما ، وعلمه ألا يعتمد على شرف أسرته وآبائه وأجداده كل الاعتماد ، ولا يثق به كل الثقة ، ولا يفكر فيما أوتى من صحة وثروة كل التفكير ، وبين له ما يحدث فى هذه الحياة من تغيرات تصير الحال غير الحال • واذكر له كثيرا من الأمثلة التى بها يشعر أن الدهر كثير الانقلاب والتغير ، وأن الرفيع قد يصبح وضيعا ، والغنى قد يصير فقيرا ، والسعيد قد يمسى شقيا •

اذكر له كل هذا ، حتى يشعر بما يشعر به غيره ، ويخاف أن يقع فيما وقع فيه سواه • بهذه الطريقة ستعوده العطف على غيره ، والشفقة بالبائس المسكين •

دعه يعلم ان الانسان هو الانسان ، مهما يكن مركزه فى الحياة ، وهو فى حاجة الى أن نشاركه فى سروره وأحزانه ، سواء أكان من الخاصة أم من العامة ٠

دعه يشعر بأن الانسان هو الانسان ، ينبغى أن يشاركه فى شعوره ، لا فرق بين النبيل والوضيع ، والغنى والفقير ، وقد يكون هناك فرق فى اللغة والحديث ، والافكار والثروة ، والمركز والاسرة ، ولكن هذا كله يجب ألا يخرج الانسان عن انسانيته والواجب عليه للانسانية ٠

٦ ـ الانسان وحب الاطلاع :

هنا نسأل ٠ أيجب أن نجيب الطفل عن أسئلته المنبعثة عما لديه من غريزة حب الاطلاع أو نمتنع عن اجابته عن هذه الأسئلة ؟

ان روسو يفضل الاجابة ولا يقول بتأجيلها ، لأن غريزة حب الاطلاع لا تقوى الا اذا شجعناها وأعطيناها الفرصة فى الظهور ٠

وليس معنى الاجابة عن هذه الأسئلة أن نضلل هؤلاء الذين يسألوننا : فلأن نأمر الطفل بالسكوت ، ونحظر عليه السؤال ـ خير من أن نجيبه بغير الحقيقة ٠

فاذا أردت أن تجيب عن أسئلته فأجب عنها اجابة صريحة من غير لف أو دوران ، أو خلط وتضليل ٠ ولتكن أجوبتك دائما قوية موجزة ، لا تردد فيها ، ولا شك ولا ارتياب ، تمثل الحقيقة ، والحقيقة وحدها ؛ فاننا لا نستطيع أن نبيح كذب الرجال على الأطفال فى الوقت الذى نطالب فيه الأطفال بالصدق وعدم الكذب على الكبار ! فان كذب الانسان على الطفل مرة واحدة فقد أضاع كل ما قام به من مجهود فى تربيته ، وأفسد كل ما بذله من اصلاح ٠

اسئلته عن الأمور الجنسية :

وهنا يعن لنا أن نسأل : أنترك المراهق جاهلا كل الجهل بالأمور الجنسية ؟ انه لا مانع من أن نعلمه الأشياء التى يستحيل أن نخفيها عنه ، لا مانع من أن نقنع ما لديه من غريزة حب الاطلاع اذا كنا نعتقد أنه لاخطر فى اخباره بالأشياء التى يسأل عنها ، واخباره بكل شىء يقوم على أحوال الشخص والبيئة التى يعيش فيها ، والمركز الذى يجعل نفسه فيه ٠

وينبغى ألا نترك الامور للمصادفات ، وألا نفسد خيال الشاب وهو

فى سن ست عشرة سنة بالرذائل ، والتفكير فى الرذائل ، والشك فيما نقول ٠

وليس لدى الأطفال غايات وميول كالشبان ، ولكنهم يتأثرون بالأشياء التى تؤثر فى حواسهم ، يتأثرون بما يرونه وما يسمعونه وما يفعل أمامهم ٠ وهناك طريق واحد مستقيم به نستطيع المحافظة على طهارة ذلك الطفل ؛ ذلك الطريق هو أن نجعله فى بيئة طاهرة لا تعرف الرذيلة ، ولا ترى الا الطهارة الحقيقية ، ولا يسمع فيها مايخجل ، فاللغة التى يخاطب بها الطفل يجب أن تكون صريحة ملائمة طاهرة ، حتى تبعده عن البحث حول الاشياء الخفية التى يود الاطلاع عليها ، فاذا تكلمت معه بصراحة واخلاص حول ما يسأل عنه فانه لن يفكر أن هناك سرا يجب البحث عنه حتى يعرف ، أما اذا وضع فى بيئة غير صالحة فان محاولتنا أن يستمر جاهلا بالأمور الجنسية ستخفق لا محالة ؛ لأنه سيبحث عنها سواء أردت أم لم ترد ٠

وهناك سؤال قد حير روسو فى القرن الثامن عشر ، وحير المربين فى القرن العشرين ؛ هذا السؤال هو :

من أين يأتى الأطفال ؟

لقد كتب روسو عن هذا السؤال ، وكتبت عنه الدكتورة « مارى ستوبز » الطبيبة الانجليزية ، وغيرها من المربين والمربيات فى القرن العشرين ، ولا يختلف ما أجاب به روسو فى القرن الثامن عشر عما ذكره المربون والمربيات فى القرن العشرين ٠

كثيرا ما يسأل الأطفال هذا السؤال عرضا ، وهو سؤال يحتاج الى حكمة فى الاجابة ، وذكاء فى الرد ٠ وقد تهرب الأم الذكية من الاجابة عنه خوفا من أن تضلل ابنها ، وقد تأمره بالسكوت فيسكت لحظة ، ثم يسأل ثانية ، ويبحث عن الجواب مرة أخرى ، وقد تجيبه الأم بقولها : « ان هذا سر بين الأبوين ، ويجب ألا يسأل الأطفال هذا السؤال » ٠ ولتثق الأم اذا ذكرت هذا لابنها بأن هذه الاجابة نفسها تثير ما لدى الطفل من حب للاطلاع ، ولن يستريح حتى يعرف هذا السر الذى بين الأب والأم ٠

ويخبرنا روسو بجواب يختلف عن الجواب السابق سمعه من احدى النساء حينما أجابت ابنها عن هذا السؤال ، فأثر فى نفس روسو كل

التأثير ؛ فقد سألها ابنها ذات مرة : « من أين يأتى الأطفال الصغار يا أماه ؟ » ٠

فأجابت الأم اجابة معتدلة بغير تردد : « ان النساء يا بنى يأتين بالأطفال ، بعد أن يتحملن آلاما كثيرة قد تودى بحياتهن ، وتؤدى الى موتهن » ٠

قد يضحك الحمقى من الناس من هذا الجواب ، ولكن دع الحكماء والعقلاء ليبحثوا عن جواب أكثر منه سدادا وحكمة فى هذا الموضوع ؛ فهذه الاجابة قد تقنع ما لدى الابن من غريزة حب الاطلاع ، وقد يحزن لما يحدث للأم من آلام ، وقد يتخيل الموت الذى يصيبها ، وقد ينتقل خياله من هذه الناحية الى ناحية أخرى ٠ فتلك الاجابة مع هذا تمثل الحقيقة ، وليس فيها تضليل للسائل فى أثناء التعلم ٠

وقد كتبت الدكتورة « مارى ستوبز » كتابا عنوانه : « أيتها الأم كيف ولدت (١) ؟ » وفى كتابها هذا ترى أن يجاب السائل بصراحة لا كذب فيها ولا تضليل محتجة بأن الطفل الطبيعى لا يرى فى تلك الاجابة ما يدعو الى الخجل ، أو الهرب ، أو الكذب ٠

ويتأثر الانسان عادة بما يرى وما يسمع ، فيجب على من يتصل به من المربين والخدم أن يكونوا خير قدوة له فى أقوالهم وأعمالهم ٠ وقد يسىء الخدم والمربيات الى الأطفال فى تعليمهم أشياء لا يجوز تعليمها لهم ، فيسمعونهم ألفاظا لم يسمعوها من قبل ، ويعلمونهم أشياء تنافى الأخلاق الفاضلة ، والآداب العالية ؛ فعلى الآباء والأمهات أن يرقبوا أولادهم ، ويحسنوا اختيار المربيات لهم ٠

ان الانسان يجب أن يربى تربية تلائم سنه وميوله ؛ فهو فى الطفولة يحب أخته كما يحب ساعته ، ويحب صديقه كما يحب كلبه ، ولا يعرف شيئا عن الأمور الجنسية ، ولا يدرك الفرق بين الذكر والأنثى ، أو بين الرجل والمرأة ، أو الابن والابنة ، ولكنه فى هذه المرحلة ، مرحلة البلوغ والمراهقة ــ يشعر بهذا الفرق ٠

التربية الاجتماعية

لكى نتكلم عن التربية الاجتماعية يجب أن نتكلم عن :

١ ــ دراسة التاريخ ٠

---

(١) Mother, How was I born. ?

٢ ـ التربية بالتجارب العملية ٠

٣ ـ التعليم الدينى ٠

٤ ـ التربية الجنسية ٠

٥ ـ تربية الذوق ٠

ولنتكلم عن كل منها فنقول :

١ ـ دراسة التاريخ

لكى ندرس المجتمع يجب أن ندرس الانسان ، وهو الفرد ، ولكى ندرس الفرد يجب أن ندرس المجتمع ، فان هؤلاء الذين يدرسون الشئون السياسية والخلقية دراسة منفردة بحيث يدرسون السياسة معزولة عن الاخلاق ، ويدرسون الاخلاق معزولة عن السياسة ـ لا يمكنهم أن يدرسوا الاخلاق أو السياسة دراسة حقا ، فقد يخلطون المقدمات بالنتائج ، والاسباب بالمسببات ، ويصلون الى نتائج سياسية أو خلقية بعيدة عن العقل والمنطق ٠

وقد قلنا فى الجزء الاول من كتابنا « فى علم النفس (١) » : « لو بحثنا فى الغرائز والميول والاعمال الانسانية المختلفة لوجدناها فى الغالب خاضعة لعوامل اجتماعية ، اذ لم يذكر لنا التاريخ أن فردا من الافراد عاش وحده ، وقضى حياته منفردا ، فمثل هذا الفرد لا وجود له الا فى بطون الكتب الروائية ، أو فى خيال الفلاسفة ، كما هى الحال فى (روبنسن كروزو) ، وحى بن يقظان ٠ وهذا معنى قولهم : ان الانسان مدنى بالطبع ، أى أنه يميل بطبعه الى المعيشة فى مجتمع ٠٠

ومن الواجب أن نعرف مقدار تأثر العقل الانسانى بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فالانسان فى العادة عضو من أعضاء المجتمع ، صغر ذلك المجتمع أو عظم ، وقد يكون عضوا من أعضاء جماعات متعددة ، كالاسرة أو الطائفة التى تجمعها رابطة المهنة أو الدين أو الوطنية ٠

ولقد كان من الشائع بين الناس أن الفرد الذى يعمل فى مجتمع يكون أقرب الى الخطأ منه الى الصواب ، مهما يكن نوع هذا المجتمع ،

---

(١) ارجع الى الفصل الثانى عشر : « العقل الفردى والعقل الجمعى » ص ٢٤٣ ـ ٢٤٩ من الطبعة الثانية بمكتبة عيسى البابى الحلبى بمصر ٠

ومهما تبلغ منزلة أفراده فى العلم والمعرفة ، ولكن التجارب قد برهنت على أن هذا القول نصف الحق ، لا الحق كله ، وأن الرأى فى ذلك هو ما لخصه (جوستاف لوبون) فى قوله : انه مهما كانت منزلة الافراد الذين يكونون مجتمعا من المجتمعات ، ومهما بلغوا من مشابهة بعضهم لبعض ، ومهما اختلفوا من حيث الميول ومقدار الذكاء والمهنة ونظام الحياة ـ فان اجتماعهم معا يمنحهم عقلا جميعا ، يجعلهم يفكرون ويشعرون ويعملون بطريقة مخالفة لطريقة تفكيرهم وشعورهم وعملهم لو كان بعضهم بمعزل عن بعض • فهم فى هذه الحالة يكونون خاضعين لعوامل اجتماعية أهمها غريزة الاجتماع ، ونزعة المحاكاة ، فغريزة الاجتماع تلم شعثهم ، وتجمع متفرقهم • ونزعة المحاكاة تحملهم على محاكاة بعضهم بعضا فى الافكار والوجدان والاعمال ، فللمشاركة الوجدانية والاستهواء والمحاكاة آثار كبيرة فى العقل الجمعى •

ويضاف الى هاتين الغريزتين عامل ثالث يسميه (جوستاف لوبون) « الشعور بالقوة » الذى يحس به الفرد وقت انضمامه الى مجتمع أو طائفة •

وقد يكون لوجود الفرد فى مجتمع ضرر ينشأ عن عدم قدرته على ضبط نفسه والتغلب على وجدانه ، ولا سيما فى حالة الرعب والاضطراب والخطر العام •

وقد ينشأ عن اندماج شخصيته فى شخصية المجتمع أنه لا يشعر بالتبعة ، بل يلقيها على عاتق المجتمع ، وهذا هو السبب فى أن كثيرا من المجتمعات غير المنظمة تصل الى نتائج مبتورة تنقص الفكر والروية وبعد النظر ، لان الافراد فى مثل هذه المجتمعات يطلقون العنان لانفعالاتهم وعواطفهم ونزعاتهم الخاصة ، فتحجب هذه عقولهم ، وتجعلهم عرضة للخطأ ولا ضرر عليهم فى ذلك ما دامت التبعة ملقاة على المجتمع الذى لا وجود له الا فى شخصيات الافراد •

هذا ونحوه ما يحصل فى المجتمعات المتأخرة فى الحضارة ، أما اذا تقدم المجتمع وتقيد بعادات ومذاهب وقوانين واعتقادات ، واشتدت الرابطة بين أفراده ، كما هى الحال فى الامم المتقدمة ـ فان الحال تتجدد، ويتخذ المجتمع هذه الاشياء سلما للوصول الى أسمى الغايات ، ويعد هذه العادات عناصر مكونة لعقل الامة أو العقل الجمعى لكل فرد ، اذ أن آثارها تظهر فى كل فرد لعده عضوا فى المجتمع أو فردا من أفراد الأمة •

وبانضمام الافراد الى مجتمع منظم يسعى لغايات محدودة يتكون في نفس كل منهم ما يسمى « روح الجماعة » الذى يحمله على الاخلاص والولاء لمجتمعه الخاص ، ومساعدته مساعدة جدية متصلة للحصول على الاغراض التى يسعى اليها • ومتى تمكن روح الجماعة من نفوس الافراد ارتفع المستوى العقلى بين الافراد ، وارتفع المستوى الخلقى ، وبثت روح وجدانية فى كل فرد تجعله يشعر بشىء من الاطمئنان والارتياح ، لكونه عضوا من أعضاء جماعة خاصة تعمل على راحته واعلاء شأنه ، وبهذا يرتفع شأن الامة بأسرها ، ذلك لأنه متى وجدت جماعات من هذا النوع الذى وصفنا وقويت كل جماعة بقوة أفرادها ـ فان الامة ـ لا ريب ـ تقوى بأسرها ، لأن قوتها مستمدة من قوة الجماعات الجزئية المكونة لها •

ولكن هذا مشروط بألا يزيد نمو بعض الجماعات الفرعية على الحد المعقول ، وبألا تصبح حياتها معقدة بحيث لا يمكن ضبطها ، فلو حصل ذلك وصار روح الجماعة أقوى فى بعض الطوائف منه فى بعضها الآخر أدى ذلك الى ضعف الروح بالنسبة للمجتمع العام ، أى الامة •

ومن هذا كله تعلم أن لمعيشة الانسان فى مجتمع منظم فوائد مادية ومعنوية لا يمكن انكارها ، اذ أنه تقرر أن الانسان مدنى بالطبع ، فقواه الجسمية ، ومقدرته العقلية ، وشخصيته الخلقية ـ لا تنمو ولاتظهر آثارها الا بالحياة فى مجتمع •

ولا خطر من ذلك على الحرية الفردية التى يجب أن تتوافر لكل فرد الى حد ما ، اذ أن الحرية المطلقة لا يمكن أن تكون ، فالفرد مضطر لان ينزل عن جزء من حريته فى ناحية ، ليسترد ما فقده من ناحية أخرى ، وليكون لدى غيره من الافراد فرصة للتمتع بقسط وافر من الحرية مساو لقسطه •

هذا ما ذكرناه فى كتابنا (فى علم النفس) ، واليوم نقول : اذا كانت هناك مساواة بين الفرد وأخيه فى الحقوق والواجبات ، وهناك فرق بينهما فى الميول والنزعات والرغبات والتربية والذكاء ـ فليس الفرق بين الانسان والانسان كبيرا ، يجعل أحدهما معتمدا على الآخر ، ويصير هذا سيدا وذاك مسودا •

وينتقد روسو الانتصار للقوى ، والضغط على الضعيف، والتضحية بالاكثرية فى سبيل الاقلية ، والتضحية بالمصلحة العامة فى سبيل المصلحة الخاصة • وباسم العدالة يرتكب كثير من وسائل العنف والشدة،

وترتكب الرذيلة والخطيئة ، فيتظاهر الحاكم بالعدالة ، والعمل على الطاعة ويقسو على الضعفاء والفقراء ، ويضحى بهم فى سبيل مصلحته ومنفعته الخاصة ٠

واننا نشارك روسو فى هذا الشعور ، ونقول : ان قانون العقل وقانون العدالة يتطلبان وقوف الظلم ، ووقوف هؤلاء الظالمين ، كى نصل الى العدالة الحق ، وينال كل فرد حقه ، وننتصف للمظلوم من الظالم ، مهما يكن هذا الظالم ومهما يكن مركزه ، ومهما تكن ثروته ٠

واذا أردنا أن نكون أمناء فى التاريخ وجب أن نعرف قلب الانسان ونعرف الانسان معرفة حقا ، ونحكم عليه حكما صائبا ، ونتمسك بالحقيقة التاريخية ، ولا نغير تلك الحقيقة بأية حال ، فان هذا التغيير معناه تضليل وافتراء وكذب فى التاريخ ٠ واذا تسترنا على الانسان فى حكمنا عليه فان تلميذنا سيرى ما سترناه عنه ، وسيشعر بأننا خدعناه بالمظاهر الخداعة ، وأظهرنا الانسان فى غير مظاهره الحقيقية ٠

وينبغى أن نتوخى الحقيقة فى تصوير النوع الانسانى تصويرا حقا ، حتى يعرف التلميذ الانسان على حقيقته ، ويعرف العالم على حقيقته ، فيقتدى بالمثل العليا ، ويحتقر الخطأ ، ويبتعد عنه ، وينتفع بتجارب غيره ٠

وينبغى أن يحسن المتعلم اختيار الاصدقاء الذين يتصلون به ، ويفكر فى جاره كما يفكر فى نفسه ، ويحكم على غيره بما يحكم به على نفسه ، ويضع غيره موضع نفسه ، حتى يشعر بشعور أخيه الانسان ، ويشاركه فى شعوره ٠

ويجب أن يدرك أثر المجتمع فى الفرد ، وكيف تفسده البيئة ، وكيف يضله المجتمع ، فقد نعنى بالطفل فى البيت كل العناية ، ونعنى به فى المدرسة العناية كلها ، فاذا ما خرج الى الحياة ، واتصل بمجتمع فاسد تأثر به ، وأصبح شيطانا رجيما يرتكب كل خطيئة ، بعد أن كان ملكا كريما لا يعرف معنى الرذيلة ٠

ولكى يدرك (اميل) القلب الانسانى والفطرة الانسانية يجب أن يعرف النوع الانسانى حق المعرفة ، ويدرسه فى حاضره ، ويدرسه فى ماضيه فى العصور الماضية ، وفى الاقطار المختلفة ٠ بهذه الوسيلة يدرس تاريخ الانسان وتاريخ عظماء الرجال ، ويقرأ فى تلك المرحلة

قلب الانسان ، قبل أن يأخذ دروسا فى الفلسفة · وسينظر الى رجل التاريخ نظرة عادلة لا ظلم فيها ولا محاباة ، ولا تحيز ولا اتهام ·

يقول روسو : « لكى تعرف الرجال يجب أن ترى أعمالهم » · ومعنى هذا أننا لا نستطيع أن نعرف الانسان معرفة حقا ، ونحكم عليه حكما عادلا الا اذا عرفنا أعماله ، ووازنا بين أقواله وأعماله ، فلا يكفى الحكم عليه أن نرى أقواله ، بل يجب أن نرى أعماله أيضا ، حتى نستطيع أن نحكم عليه حكما تاريخيا عادلا ·

اننا نسمع الانسان يتكلم ، ونسمع أقواله وأحاديثه ، أما أعماله فقد يخفيها ، وقد يسترها عن غيره ، ولكن التاريخ يجب أن يرفع الستار ، ويحكم على الانسان بأعماله وآثاره ، يحكم عليه بما قام به من عمل ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ·

ولكى نصل الى حكم عادل فى التاريخ يجب أن نضع أنفسنا موضع غيرنا ، ونفكر فى العصر الذى يعيش فيه ، والاحوال التى تحيط به ، والبواعث التى حملته على فعله ·

ومن الاخطاء الشائعة بين المؤرخين التفكير فى السيئة قبل الحسنة ، أو نسيان السيئة وذكر الحسنة ، والتماس المعذرة للانسان اذا أخطأ ، وتصوير سيئاته بصورة حسنات ، ناسين أنه انسان معرض للاخطاء والهفوات ·

ولقد كان (ابراهام لنكولن) يقرأ ذات مرة كتابا تاريخيا من هذا النوع الذى يصور فيه مؤلفه السيئة بصورة الحسنة ، ويصور فيه المسيئين بصورة المحسنين ، فألقى الكتاب بعيدا قائلا : ما هذا ؟ انهم يريدون أن يصوروا الانسان بصورة الملائكة ، ونسوا أنه انسان معرض للصواب والخطأ ·

وقد سبق ابن خلدون روسو فى تقرير مبدأ دراسة التاريخ على النحو الذى أراده روسو ، فهو يقول : « ان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة ، وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الانسانى ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد ، والحاضر بالذاهب ـ فربما لم يؤمن فيها من العثور ، ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق » ·

فعلامتنا ابن خلدون قبل روسو بعشرة قرون يوفق الى بيان أمثل الطرق فى دراسة تاريخ الانسان ·

وقد نصح روسو بدراسة التاريخ دراسة صحيحة ، من كتب تستحق الدراسة ، فى الوقت الذى يستطيع فيه المتعلم أن يدرك التاريخ والحقائق التاريخية ، والعلاقة بين المقدمات والنتائج ٠

وهو بهذا يمنع تدريس التاريخ لصغار الاطفال ، لأن دراسته تتطلب معرفة العلاقات بين الحوادث التاريخية التى تحدث ، وهى فوق المستوى العقلى للطفل الصغير ، فهو يرى ألا يدرس التاريخ الا الشباب الذين استعدوا أن يدخلوا العالم ، ويعرفوا العالم القديم والحديث ، فهو من الدراسات التى ينبغى أن تدرس فى مرحلة الشباب بين الخامسة عشرة والعشرين ، كى يعرف قلب الانسان وأعماله ، بدراسة أقواله وأفعاله ٠

وفى هذه المرحلة ، مرحلة الشباب ـ يجب أن يسافر الشاب ليكمل دراسته بالسفر وتجاربه ، والرحلات وما فيها ٠ واننا لا ننكر أثر السفر والرحلات فى التربية والتعليم ، أثرها فى نفوس من تكون لديهم الفرصة فى السفر ، والميل الى البحث والاطلاع ، ولكن الاكثرية لا تستطيع السفر ٠ وهو وحده لا يكفى ، فربما لا يكون لدى المسافر حب الاطلاع ، لهذا لا نستطيع أن نعتمد على مجرد السفر كل الاعتماد كما رأى روسو ٠

ومع الاسف لا يعظم التاريخ الا الاشرار من الرجال ، أما الاخيار فقد ينساهم كل النسيان ، أو يهزأ بهم ويسخر منهم ، فالشريرون يصبحون مشهورين ، والخيرون قد يصبحون منسيين ٠ وان الحقائق التى تذكر فى التاريخ لا تصور الصورة الحقيقية لما حدث بالفعل ٠ ولكن المؤرخين قد يتأثرون بما لديهم من ميول ورغبات ، فيغيرون هذه الحقائق وقد يسترون بعضها للجهل أو للمحاباة ٠ وما الفائدة من ذكر الحقائق اذا لم أعرف الاسباب ؟ وما الدروس التى أستطيع أن أستنبطها من الحادثة ، اذا كانت الاسباب الحقيقية مجهولة للقارىء ؟

فالمؤرخ حقا هو الذى يذكر الحقيقة ، ويذكر الاسباب التى أدت اليها ، ولذا يجب على المؤرخ أن يكون أمينا ، يذكر المقدمات والنتائج ، ولا يتحيز فى حكمه ، ولا يحابى فيما يقول ٠

ومن السهل أن تصف الامور كما هى ، وتصف الاعمال كما هى ، وتوضح الحوادث كما حدثت ، من غير أن تغير حقيقة واحدة ، أو منظرا واحدا ، وتصف المظاهر من غير تغيير أو تبديل فيها ، فكثيرا ما يحدث

أن سحابا فجائيا أو عاصفة قوية ، أو جبلا شاهقا ، أو قليلا من الاشجار تغير ميزان النصر فى الحروب ، فيكون النصر بجانب هـذا الفريق أو ذاك (١) .

وكثيرا ما يبقى هذا السبب مجهولا ، فيذكر النصر ولا يذكر السبب .. فماذا يضير المؤرخ لو أخبرك بأسباب النصر أو الهزيمة بدقة ، حتى تشعر أنك حضرت الموقعة ، وكأنه حضر الموقعة فى كل جزء من أجزائها؟ وما الفائدة من الحقائق المجردة اذا تركت الاسباب مجهولة ؟ وما الثمرة التى يفيدها التلميذ من معرفة الحوادث التاريخيـــة اذا استمر جاهلا بأسبابها ؟ فيجب أن تعرف الاسباب ، وتعـرف النتائج ، حتى يدرس التاريخ دراسة حقا ، ويمكن تجنب تلك الاسباب .

وان النقد التاريخى الذى يفخر به بعض المؤرخين ما هو الا فن من الحدس والتخمين فى اختيار أمور تشبه الصدق وليست من الصدق فى شىء ، وتشبه الحقيقة وهى بعيدة كل البعد عن الحقيقة . وقد يقال : ان الدقة التاريخية ليست بذات أهمية كبيرة . ولكن ما فائدة التاريخ اذا لم يمثل الدقة والامانة فى الحكم ؟

ويرى روسو أنك مصيب دائما اذا اعتمدت على الطبيعة فى الصورة التى تصورها ، أما اذا اعتمدت على المؤرخ وخياله فى تصويرها فانك تقع فى الخطأ الذى نود أن نتجنبه . وفى ذلك يقول : « اذا كان تلميذى لن يرى الا الصورة الخيالية فأنا أفضل أن أرسم له هذه الصورة بيدى ، لأنها تلائمه وتكون مفيدة له » .

ويعد روسو دراسة التاريخ وسيلة لدراسة الاخلاق ، والتربيـة الخلقية ، ويقول فى ذلك :

« ان المؤرخين الذين يذكرون الاحكام وحدها مثل هؤلاء يسـيئون للمتعلم ، فالحقائق الحقائق ! ثم دعوه يحكم لنفسه » .

ومعنى هذا أن المؤرخ يجب أن يذكر الحقائق ، والحقائق مجـردة ، ويتمسك بهذه الحقائق ، ولا يحكم بنفسه ، بل يترك للتلميذ الفرصة فى أن يفكر فى الحكم على الشخص بعد معرفة هذه الحقائق ، فروسو يريد

---

(١) فقد حدث فى معركة (ووترلو) أن سقط المطر ، ومكثت الأرض مبتلة خمس ساعات ، فلم يستطع نابليون الظفر بعدوه (ولنجتون) ، اذ قد حضر القائد الألمانى (بلوخر) فى الوقت المناسب فغير ميزان النصر ، وقضى على نابليون قضاء مبرما ، ولو لم يسقط المطر لتغير مجرى التاريخ .

بذلك ألا نذكر للتلميذ آراءنا التاريخية ، وأحكامنا على الرجال ، بل نعطى التلميذ الحقائق والقصص والحوادث التاريخية والوقائع والاقوال ، وندعه يستنبط منها ما يريد أن يحكم به على الشخص وصفاته وأخلاقه وأعماله فهذه هى الطريقة التى يستطيع بها أن يتعلم ، وأن يحكم ، ويعرف النوع الانسانى ٠

فاذا كنا نرشده دائما ونقوده على الدوام ، ونذكر له آراءنا ــ فانه سيرى بأعيننا : سيرى بأعين المؤلف أو المؤرخ حتى اذا تركناه وحده ليرى ــ فانه لن يستطيع أن يرى شيئا ، لأننا عودناه أن يرى بعين غيره ، فنحن نريد أن يرى بعينيه ، ويفكر بعقله ، ويحكم بنفسه ، فلا يأخذ آراء غيره قضية مسلمة ، ولا يكون عبدا لسواه فى آرائه وأحكامه ٠ وهذا ما ننادى به فى التربية الحديثة اليوم ٠

ويرى روسو أن التاريخ الحديث لا يصلح للدراسة ، لأن المؤرخين المحدثين لا يفكرون الا فى اظهار مقدرتهم فى الصور التى يصورونها ، ولا يفكرون الا فى المبالغة فى تصويرها بصورة تبعد التاريخ الحديث كل البعد عن صورته الحقيقية ، وشخصيته الطبيعية ، فهذه الصورة لا تمثل الحقيقة ، بل لا تمثل شيئا مطلقا ، أما القدامى من المؤرخين فلا يميلون الى المبالغة فى التصوير ، ولو أنهم يتأثرون بأحكام غيرهم ، ومع هذا فبين هؤلاء المؤرخين القدماء كثيرون يمكن اختيارهم ، والانتفاع بقراءتهم ، ويجب أن نختار من بينهم الاسهل لا المتفلسف ، ومن يميل الى السهولة لا الى الفلسفة ٠

ومن المؤرخين القدماء الذين ذكرهم روسو « تيوسيديدس (١) » ، فهو يعد أحسن نموذج للمؤرخين فى نظر روسو ، لأنه يقرر الحقائق ، ويترك الحكم للقارىء من غير أن يذكر رأيه ، ولكنه لا يترك فرصة تسنح القارىء وترشده الى الحكم السديد ، فهو يضع الحوادث أمام عينيك كما هى ، وكما حدثت ، من غير أن يتدخل بشخصيته وتفكيره ، فهو يضع كل شىء أمام القارىء ثم يخفى نفسه ، ويتركنا لنقرأ وكأننا شاهدنا الحوادث بأعيننا وأنفسنا ، يتركنا لنكون الاحكام بأنفسنا وتفكيرنا ٠ ولكن لسوء الحظ لم يكتب الا عن الحرب ، ولم يتكلم الا عن الحرب ، والمواقع الحربية ، وهذه المادة لا تصلح فى نظرنا للمتعلم الصغير ٠

ويتلو ذلك الكتاب كتاب (شروح القيصر) (٢) ، وكتاب (انهزام

---

(١) Thucydides

(٢) Caesar' Commentaries and Exenophon's

عشرة آلاف) للمؤرخ « اكزينوفون » ، فهما من أحسن الكتب النموذجية التاريخية ، ولكن فيهما العيب نفسه ، وهو أنهمـــا لا يبحثان الا عن الحرب ، والوقائع الحربية ، أما « هيرودوت » (١) المؤرخ اليونانى الامين فقد كتب بأسلوب سهل ، وكتاباته مملوءة بالحوادث السارة الجميلة ، ولا يذكر صورا ، ولا يذكر مبـادىء (٢) ، ولكنه يكثر التفصيلات عن الشخصيات العظيمة ، وهو أحسن المؤرخين اذا حذفت منه الاشياء التى تفسد ذوق الشباب ، لهذا يحتاج عند قراءته الى ذكاء وحسن بصيرة · أما « ليفى » (٣) فكتابه لا يصلح للشباب ، لانه كتاب سياسى ، ويميل فى أسلوبه الى استعمال المحسنات البلاغية ، وأما كتاب «تاكيتسى» (٤) فلا يصلح الا للشيوخ ، أما الشباب فلا يستطيع أن يفهمه ، ولن يضع روسو فى يدى الشاب كتاب «بوليبيس» (٥) ولا كتاب «صولست» (٦) ·· ففى كتب التاريخ فى عصر روسو كثير من العيوب ، فلا نستطيع أن نأخذ منها الاسماء التى نريدها ، والامكنة التى نحتاج اليها ، والتواريخ التى نريد أن نحققها ، أما فى العصر الحاضر فقد شعر المؤرخ بضرورة هذه المعلومات ، وهى تعيين الأسماء ، وتحديد الأماكن والتواريخ ·

ومن العيوب التى ذكرها روسو نستخلص أنهـا لا تكتب الا عن الحرب ، تاركة الحياة الحقيقية للشعوب ، وهى حياة السلم ، تاركة ذكر الاسباب التى أدت الى الحروب ، ولا تتكلم عن الرجال ، بل تتكلم عن أعمالهم ومظاهرهم · ويصف المؤرخون الاشـياء بما يتفق مع ميـولهم الخاصة ، ولا يصورون الرجال الا فى لحظات مختارة معينة ، فالتاريخ لا يصور الاشخاص الا بمظاهرهم ، ولا يذكر شيئا عن حياتهم فى بيوتهم، ولا يسير وراءهم فى دراستهم ومكاتبهم ، ولا يبحث عنهم بين أصدقائهم وفى أسرهم ، فالتاريخ فى عصر روسو لا يصور الشخص الا حينما يقوم بتمثيل حال من الاحوال ، فيظهره لنا فى ملابسه ومظاهره ، ويصور لنا تلك الملابس والمظاهر أكثر من تصوير حياته وبيئته ·

يرى روسو أن يبدأ الشاب دراســـة التاريخ بدراســـة القلب الانسانى ، وقراءة ماكتب عن عظماء الرجال ، فالرجل العظيم لايمكنه أن يخفى نفسه ، لأن المؤرخ الحقيقى يتبعه فى كل مكان ، ولا يترك له

---

(١) Herodotus (٢) Maxims (٣) Livy (٤) Tacitus
(٥) Polybius (٦) Sallust

لحظة يستريح فيها • والعيون تتجه الى الرجل العظيم دائما ، وترقبه دائما ، وتعرف شئونه وأحواله وان كان مستترا : يقول (مونتين) (١) : « انى أحب كتاب السير ، لأنهم يظهرون لنا ما يحدث فى حياة الانسان الداخلية أكثر مما يحدث فى حياته الخارجية » • ومن الكتاب الذين يحبهم (مونتين) كل الحب ، ويعجب بهم روسو كل الاعجاب «بلوتارك»•

فمونتين يحب قراءة كتب (بلوتارك) (٢) ، لأنه لا يفكر فى المظاهر وحدها ، بل يفكر فى المظاهر والحقائق ، ويدرس قلب الانسان فى حياته الداخلية والخارجية ، ويدرس الافكار كما يدرس الحوادث ، ويصور الشخص بكل سهولة وأمانة ، يصور أخلاقه وهو وحده ، وأخلاقه وهو فى المجتمع ، ويدرسه وهو فرد كما يدرسه فى المجتمع •

واذا أردنا أن نعرف قلب الانسان وجب أن ندرسه منفردا ، كما ندرسه فى جماعة ، ولكى نعرف النوع الانسانى بوجه عام يحسن أن ندرس الانسان وهو منفرد ، كما ندرسه وهو فى المجتمع • واذا عرفنا ميول الفرد فليس من الصعب أن نعرف آثار هذه الميول حينما يختلط بغيره من الناس ، ويعيش في مجتمع •

يقول روسو : « لقد أماتتنا الكتب من الطفولة ، حتى اعتدنا أن نقرأ بغير تفكير » • وفى اعتقادنا أنه يريد بذلك الكتب التى تتدخل فى تفكير القارىء ، ولا تترك له فرصة فى أن يفكر • ولا عجب أن يقول هذا فهو ممن يحزمون الكتب على الأطفال ، ويقتصرون فى الطفولة على التربية الجسمية ، ودراسة الطبيعة •

واننا نخالفه فى رأيه كل المخالفة ، ونعمل على أن نختار للطفل ما يلائمه من الكتب فى الطفولة ، والغلومة ، والشباب ، فنختار له الاغانى والقصص الخيالية ، وقصصا عن الطيور والحيوان فى الطفولة ، ونختار له قصصا فيها شجاعة وبطولة ووطنية فى مرحلة البلوغ والمراهقة ، كما نختار له كتبا فى الرحلات والمجازفات فى عصر الشباب ، ونختار له كتبا فيها قصص خلقية أدبية اجتماعية انسانية عن الانسان فى عصر الشباب • واننا ننصح بأن نعد مكتبة للطفل ، ومكتبة للغلام ، ومكتبة للشاب ، والرجل أو القارىء العام ، يراعى فيها ميول كل سن من

---

(١) Montaigne

(٢) Plutarch : بلوتارك كاتب اغريقى لا يعرف بالضبط تاريخ ميلاده • وقد وصل الى أوج العظمة بين سنتى ٥٠ و ١٠٠ بعد الميلاد •

الأسنان ، بحيث يفيد القارىء مما يقرأ ، ويفكر فيما يقرأ ، ونشجعه على القراءة بطريقة لا نقتل فيها شخصيته ، ولا نتحكم فى أفكاره ٠

يقول روسو : « تخيل (اميل) وقد عنيت كل العناية به ثمانية عشر عاما ، محاولا أن أحفظ قلبه ، وأصون تفكيره ، وتصوره حينما ترفع الستارة ، فينظر بعينيه أول مرة الى ملهى ذلك العالم ، أوضعه خلف تلك المناظر وهو ينظر الممثلين، ويراهم وهم يلبسون ملابسهم ويخلعونها، ليضلوا بمظاهرهم أعين الرائين » ٠

سيعجب (اميل) لكل تلك المظاهر ، وسيخجل منها ، وسيحتقر النوع الانسانى حينما يرى الانسان يغش أخاه الانسان ، وحينما يرى غروره والنزول بنفسه الى لعب الاطفال ، وسيبكى حينما يرى اخوته من بنى الانسان يمزق كل منهم الآخر اربا اربا ، ويتعدى كل على الآخر لأقل سبب ، ويصيرون متوحشين لجشعهم وعدم قناعتهم ٠

فروسو لميوله الطبيعية ينصح المربى بأن يختار الكتب التى يقرؤها (اميل) ، والمناظر التى يراها ، ويرشده فى شبابه الى قراءة الفلسفة العملية لا الفلسفة الخيالية التى تهوش ذهنـــه ٠ ويرى أن يدرس من الكتب التاريخية ما يلائمه ، ويلائم مستواه العقلى ، ولا يتحكم فى عقله وتفكيره ٠

٢ ـ التربية بالتجربة العملية (١)

قد عنى روسو بتربية (اميل) العناية كلها ، ويرى أن التجـربة العملية خير علاج ، وخير دواء فى التربية لمن يخطىء من الشبان ٠ وفى ذلك يقول : « دع التلميذ يشعر بالخطأ ، والا فلن يعرفه ٠ ويجب أن أعرضه لكل شىء يقتنع به ، وســـأسمح له بلعب الورق ، وأتركه مع المقامرين ضحية لهم ، وأسمح لهم بالمزح معه ، وابتزاز ما معه من نقود ، ثم طرده والسخرية منه ٠ وسأشكر لهم أمامه الدروس التى تكرموا باعطائها اياه » ٠

واننا اذا اتفقنا مع روسو على التعليم بالتجربة العملية فلن نوافقه على أن يسمح للمتعلم بتجربة كل خطيئة كى لا يقـع فى الخطيئـة مرة أخرى كما يدعى روسو ، فقد يرتكب الخطيئة مرة ثانية ، ويعود اليهـا مرة ثالثة ورابعة ، حتى تصبح عادة له ، فيصعب التخلص منها ٠ وقد

---

(١) Practical Experience

تثمر التجربة القاسية في نفوس من يستعدون بفطرتهم للميل الى الفضيلة ، أما هؤلاء الذين يميلون الى الرذيلة أكثر من الفضيلة فقد تضرهم التجربة العملية ، وربما لا يرتدعون بما يحدث لهم من عقوبة طبيعية ، أما تجربة الامور النافعة والاشياء المفيدة بطريقة علمية فخير وسيلة للتربية العملية ، ولا يعارض فيها أحد مطلقا .

وغريب أن نعنى بالناحية النظرية ونهمل الناحية العملية ، غريب أن نعنى بالشئون النظرية أكثر من الشئون العملية فى التربية ، أو نحفظ التلاميذ كلمات معينة لا يدركون لها معنى ، ولا يستطيعون استعمالها والانتفاع بها . وما الفائدة من معرفة قواعد اللغة العربية اذا لم نستطع الانتفاع بها فى كتابتنا وقراءتنا ومحادثتنا ؟ وما الفائدة من معرفة نظرية الكهرباء اذا لم نستطع اصلاحها اذا حدث خلل فى أسلاكها ، وانقطع التيار ، وانطفأ النور ؟ وما أثر التعليم الصناعى والزراعى والتجارى اذا لم يستطع المتعلم الانتفاع بعلمه صناعيا أو زراعيا أو تجاريا ؟

وقد تعلم (اميل) كيف يعيش ، وكيف يحيا حياة عملية ، وكيف يتمتع بالمجتمع الذى يعيش فيه ، وكيف يكسب عيشه بنفسه . وقد عرف كيف يسير مع غيره فى هذا العالم ، وأدرك تلك القوى التى تحركه، وهو يقدر نتيجة ما يقوم به من عمل . وقد أعطى فرصا يقوم فيها بأعمال تدل على العناية بالضعفاء ، والشفقة بهم ، ومساعدة من يحتاج منهم الى المساعدة . حتى يعتاد العطف على الفقراء والمساكين . فخير وسيلة لتعويد الطفل عمل الخير أن نشجعه على عمل الخير ، حتى يصبح خيرا ، فشجع تلميذك دائما على كل عمل خيرى ، وكل عادة حسنة ، حتى يصير فعل الخير عادة له . دعه يفكر فى الفقراء ويساعدهم ، لا بماله فحسب ، ولكن به وبعمله . دعه يعمل لمصلحتهم وحمايتهم ، ويجعل نفسه ووقته تحت تصرفهم . دعه يدافع عن المظلومين من الفقراء ويطالب بحقوقهم . حتى تفتح الابواب الموصدة فى وجوههم . دعه يقف بجانب هؤلاء الاشقياء المساكين الذين لا يجرءون على الشكوى من ظلم الظالمين . دعه يدافع عنهم أمام القضاء ، ويطالب بحقوقهم ، حتى يزول عنهم ما لحقهم من ظلم أو اضطهاد ، فهذا أشرف عمل فى الحياة .

شجعه على أداء كل ما هو حسن ، وعلى الاقدام على كل ما فيه خير ، وعلمه الواجب عليه لنفسه وغيره ، وعوده الاحتراس واليقظة ، واحترام من هو أكبر منه سنا ، وألا يتكلم الا اذا كان هناك ما يقتضى التكلم ،

عوده الشجاعة والاقدام على كل خير ، عوده ثبات الرأى والتمسك بالحقيقة والدفاع عن الحقيقة والدفاع عن القانون أمام الطبقة الحاكمة ، أمام القضاة وولاة الامور ٠

واذا أردت أن تقنع تلميذك بأنه معرض للخطأ كغيره من الناس فلا تضيع وقتك فى مجادلته ونقاشه ، بل دعه يجرب حتى يقع فى الخطأ ، ويعرف الحقيقة ، ويعلم أنه معرض للخطأ ككل انسان ، وأنه ليس مستثنى من هذه القاعدة ٠ ويجب ألا نخدعه ، وأن نقوم بتقويمه ، واصلاح ما يبدو منه من خطأ ، واذا ظن أنه عاقل وغيره أحمق برهنت له التجربة على أنه مخطىء فى ظنه ، وعلى أن العقل ليس مقصورا عليه ٠

يجب أن يثق التلميذ بأستاذه ، وأن تكون هذه الثقة بجدارة علمية وخلقية وعملية واجتماعية ووجدانية ٠ والمدرس الماهر هو الذى يستطيع أن ينهض بتلميذه ويرقبه عن كثب ، ويعرف متى يقتنع تلميذه ، ومتى لا يقتنع ، وهو الذى يحوطه بكثير من الدروس التى تدعو الى التجربة ، وتستدعى العمل والقيام به من غير أن يعرضه لخطر ٠

ومن الحكمة أن يحذر تلميذه من الخطأ قبل أن يقع فيه ، وألا يعيره بعد ذلك اذا أخطأ ، لأن التعيير يدعو المتعلم الى معارضة أستاذه ، والدفاع عن كرامته ٠ وان درسا يؤدى الى معارضة التلميذ لمدرسه درس لا قيمة له فى نظرنا ، ولا أثر له فى نفس التلميذ ٠ وما الفائدة من اللوم والتعيير اذا حدث الخطأ عن غير قصد ، أو اذا أخطأ فى التجربة وهو يجرب ؟ فعصر الشباب هو عصر الهفوات ، وعصر الاخطاء ، فراقب تلميذك من حيث لا يشعر ، وراقب أخطاءه من حيث لا يحس ، وبهذه الرقابة أنت ترشده من غير أن تسىء اليه أو تحط من كرامته ٠ وسيدرك تلميذك بطريقة عملية أن الفضيلة فضيلة ، وأن الرذيلة رذيلة ، وأن الصدق منج ، والكذب ضار ٠

وبالتجربة نستطيع الوصول الى تربية التلميذ تربية خلقية كاملة، وليس من الضرورى أن نجرب كل شىء بأنفسنا ، فمن السهل أن ننتفع بتجارب غيرنا ، ونلجأ الى التاريخ ، ونأخذ منه العظة والعبرة ، وخاصة اذا كان في التجربة خطر على المتعلم ، ففى هذه الحال يمكن الانتفاع بدراسة التاريخ ، وتجارب غيرنا ٠ واذا لم يكن هناك ضرر من المخاطرة فى التجربة فلنشجع الشاب على أن يجرب بنفسه ، ويعمل بنفسه حتى يصل الى النتيجة بطريقة عملية ٠

وفي القصص الخرافية يجب ألا نبالغ فى المغزى الخلقى ، والشعائر الخلقية التى تحملها تلك القصص ، بل نترك للتلميذ الفرصة فى البحث عن المغزى بنفسه ، ولا نضايقه بالبحث عنه ، ويكفى أن يجد لذة من الدرس ، ويشعر بجمال القصة .

وقد ربي (اميل) على كره الضوضاء والشجار بين الناس أو بين الحيوان ، ولن يسمح للكلاب بالمقاتلة ، ولن يدع كلبا يطارد قطا ، وان حدث خصام بين الرفقاء حاول أن تصلح بينهم ، واذا رأى رجـــلا فقيرا يشكو ظلم جاره القوى بحث عن الوسائل التى بها ينصف هذا الرجل المظلوم من الظالم ، وهذا الروح السلمى الذى يشعر به (اميـــل) أثر من آثار تربيته التى شجعته على التفكير فى غيره ، ولم تشجعه على التفكير فى نفسه فحسب ، ولم تشجعه على الجرى وراء مسراته وعلى ايلام غيره ، بل شجعته على مشاركته الناس فى شعورهم ، حتى أصبح يتـألم لألم الاشقياء والمساكين ، ولا يجد سرورا فى رؤية تعـذيب كائن حى ، أو ايلام مخلوق من المخلوقات . فاميل يحب الهدوء والسلم ، ويسر عندما يرى السعادة . واذا استطاع أن يساعد غيره فى جعله سعيدا فلن يتأخر ولا يكفيه أن يساعدهم بأقواله ، بل يجب أن يساعدهم بطريقة عملية ، ولن يمل روسو التكرار والمطالعة مرارا بالتجربة العملية ، والتربيـة بالعمل . وقد قال كثيرا : يجب أن تكون دروس الشباب عملية أكثـر منها كلامية ، ويجب ألا يتعلموا شـيئا من الـكتاب يستطيعون تعلمه بالتجربة ومن التجربة .

ومما يخالف العقل أن تطالب الشاب بالتكلم فى الوقت الذى لايجد فيه شيئا يتكلم عنه ، وغريب أن تنتظر من الشبان أن يشعروا ويشاركوا غيرهم فى شعورهم وهم على القماطر ، أو تنتظر منهم أن يشعروا بقـوة لغة العاطفة والتحريض والحث فى الوقت الذى لا يجدون فيه شيئا يدعو الى هذا الحث والتحريض .

واننا مع روسو فى أننا فى حاجة الى العمل أكثر من حاجتنـا الى القول ، فنحن نقول كثيرا ، ونعمل قليـلا ، وينبغى أن نعمل كثـيرا ، ونقول قليلا ، وندع الاعمال تتحدث عنـا بدلا من الاقوال . وقد كان سيدنا عثمان رضى الله عنه يقول : « نحن الى امام فعال أحوج منـا الى امام قوال » . فالمبدأ واحد فى سياسة الرعية وفى التربية ، فالعمـل يترك في نفس المتعلم أثرا أكثر من القول .

أما عن الفكرة الثانية فما زال روسو يبالغ فى التنفير من الكتاب

والدراسة من الكتاب ، وتشجيع التعلم من التجربة · ولسنا بهذا ننكر أثر التجارب فى التربية ، أو أثر الناحية العملية فى التربية ، ولكننا ننكر عليه حطه من شأن الكتاب ، وأثر الكتب ، ونرى أنه من الخير للمتعلم أن ينتفع بالكتاب كما ينتفع بالتجربة ·

أما عن الفكرة الثالثة وهى مطالبة التلميذ بالتكلم فى موضوع مغلق لا يفهم منه شيئا فقد أحسن روسو كل الاحسان ، فكيف ننتظر من تلميذ فى السنة الخامسة الابتدائية مثلا أن يتكلم فى موضوع انشائى عن « الفرد والمجتمع وعلاقة كل منهما بالآخر »، وهو لا يدرك شيئا عن هذا الفرد ، أو هذا المجتمع ، أو علاقة الفرد بالمجتمع أو المجتمع بالفرد ؟

كيف نطالبه بالتكلم فى موضوع من الموضوعات اذا لم يكن لديه فكرة واضحة في نفسه عن هذا الموضوع ؟ ان من السهل أن يتكلم ، وأن يعبر عن الافكار بعبارة سليمة اذا كانت الافكار واضحة فى نفسه ·

أما عن الفكرة الاخيرة فاننا نشارك روسو فى رأيه فى أن لغة العاطفة ولغة الشعور ـ تلك اللغة التى تصل الى القلوب ـ لا تؤثر فى المستمع التأثير البالغ الا اذا جرب المستمع عمليا ما سمعه ، فلا يشعر بألم الفقر الا من ذاق آلامه ، ولا يشعر بألم الظلم الا من ظلم ، ولا يشعر بما فى السجون أو المشافى أو الملاجىء من تعذيب أو اهمال أو ايلام الا من جرب ذلك بنفسه ·

تعليم علم البيان :

قد ذكر روسو أن لا فائدة من تعليم الشاب علم البيان ، فهو ضد المحسنات البديعية ، وضد علوم البلاغة ، لاعتقاده أنها مجهود ضائع · وبدلا من تلك الخطب الرائعة يمكنك أن تعلم الشاب كيف يقنع أستاذه باعطائه اجازة · فاميل يتكلم بلغة سهلة محكمة ، وليس فى حالة تسمح له بفن الخطابة · وان تكلم تكلم فى الامور الهامة بلغة يفهمها المخاطب · وهو لا يميل الى المبالغة ، ولكنه يميل الى الحقيقة ، لأن سنه وأخلاقه وذوقه وطبعه لا تسمح بتعلم البلاغة ، ولا بالمبالغة فى التعبير ·

ولا عجب ، فقد كان روسو طبيعيا ، يميل الى اللغة الطبيعية التى لا تكلف فيها ولا تصنع ·

وفى الحق أنه ليس الغرض من علم البيان التعمق والتكلف ، ولكن الغرض التعبير عن المعنى بعبارة عذبة واضحة تؤثر فى نفس المستمع ، ولعل روسو يريد بذلك ألا يغلب جانب اللفظ على جانب المعنى ، وألا نعنى بالالفاظ أكثر من عنايتنا بالمعانى ، بل نعنى بالمعانى والافكار كما نعنى بالاسلوب والعبارة ، بحيث يكون اللفظ مؤديا للمعنى خير أداء ٠

(٣) تعليم الدين (١)

يجب أن نتذكر أن الطفولة لا يلائمها الا الأمور المحسة ، أما الأمور المعنوية والعقلية والفلسفية فلا تصلح للطفولة ؛ لهذا لا ينصح روسو بتعليم أصول الايمان والعقائد الدينية فى الطفولة ؛ لأنها فوق مستوى الطفل ، ولا يستطيع أن يدركها ٠ من أجل هذا يرى تأخير التعليم الدينى الى المرحلة الأخيرة بين الخامسة عشرة والعشرين ٠ وقد قال : « لقد حاولت أن أهذب الطبيعة ، فى حين أنكم حاولتم أن تهملوا الطبيعة ٠ وكان تلميذى (اميل) وعمره ست سنوات مخالفا تلاميذكم ، وقد وصل الآن الى سن الرجولة أو اقترب منها ، وهو الآن يخالفهم كل المخالفة ، اللهم الا اذا ضاع مجهودى سدى ٠ ربما لا يكون هناك فرق كبير فى مقدار المعلومات التى يعرفها والتى لا يعرفونها ، ولكن هناك كل الفرق فى نوع المعلومات التى يعرفها (اميل) ، ويعرفها غيره ، فلديه الآن عواطف نبيلة ، فى حين أنه ليس عند غيره شىء منها ٠ وقد أصبح غيره فلاسفة وعلماء فى الدين فى حين أن (اميل) لا يعرف شيئا من الفلسفة والدين ، ولا يفهم حتى معنى كلمة فيلسوف ٠ ولم يسمع اسم الله الا نادرا (٢) ٠ وهناك كثير من الناقدين يلومونني ، وأعرف كل شىء يقولونه ، وقد فكرت فيما يقولون ، ولو اختبروا طبيعة الانسان لوافقونى كل الموافقة ، واذا كانوا فى شك مما أقول فليوازنوا بين طريقتى فى التربية والنتائج التى وصلت اليها ، وطريقتهم فى التربية والنتائج التى وصلوا اليها ! اننى أثق بالملاحظة ، وبالأشياء التى ألحظها بنفسى ، وأجعل الحقيقة أساسا لأفكارى ، ولا أؤسسها على الخيالات ، ولكنى أؤسسها على الأشياء التى أراها حقا بعينى ٠ ولم أجعل ملاحظتى مقصورة على ما بين جدران مدينة

---

(١) Teaching of Religion

(٢) مع أن روسو كان متدينا ، وكانت ثقته بالله كبيرة ـ لا يرى أن نلقن الطفل أمورا دينية لا يستطيع أن يدركها ٠

من المدن ، ولا على طبقة واحدة من الناس ، ولكنى وازنت بين الانسان والانسان فى كل طبقة من الطبقات ، ووازنت بين الشعوب التى استطعت أن ألاحظها فى حياتى ، وقد طرحت بعيدا تلك الأمور المصطنعة التى تبعد عن الطبيعة ، ونسبت الى شعب دون آخر ، أو الى طبقة دون أخرى وقد فكرت كل التفكير فيما يلائم النوع الانسانى عادة فى سن ما من الأسنان ؛ وفى مركز ما من المراكز ، وفى شعب ما من الشعوب • وانى حينما أريد أن أربى انسانا طبيعيا لا أريد أن أجعله انسانا متوحشا ، ولا أريد أن أرسله ثانية الى المجاهل والغابات ، ولكنى سأرسله الى الحياة الاجتماعية المضطربة ، حيث يستطيع أن يملك شعوره وعواطفه ، ويستطيع أن يرى بعينه ، ويشعر بقلبه ، ويفكر بعقله » •

وقد نصح (جون لوك) الفيلسوف الانجليزى أن نبدأ أولا بدراسة الناحية الروحية ، ثم نستمر فى الدراسة حتى نصل الى دراسة الناحية الجسمية ، وهذه طريقة خرافية خاطئة ـ فى نظر روسو وفى نظرنا ، فهى ضد الطريقة الطبيعية التى تقول بدراسة المحسات أولا ، ثم المعقولات ثانيا •

ومما يخالف العقل أن نتعلم رؤية الأشياء باقفال أعيننا ، ومن الواجب أن ندرس الأجسام قبل أن نستطيع أن نكون فكرة عن الأرواح ومن حيث ان الحواس هى الوسائل الاولى للمعرفة وللتربية العقلية يجب أن نعنى بالناحية الحسية المادية أولا وفى الوقت الذى اعتاد فيه الناس أن يقولوا مالا يدركون يسهل أن تجعلهم يقولون كل شىء تحبه •

ويرى روسو أنه من العبث أن نتكلم مع الطفل عن الخليقة ، ويوم القيامة ، والسرمدية والأبدية ، والعقائد الدينية ؛ فهى فوق مستوى الأطفال ، وقد تكون غامضة على كثير من المثقفين من الرجال ؛ فكيف نأتى لطفل لا يستطيع أن يدرك الا المحسات ثم نعلمه تلك الصفات ، ونحاول تفهيمه أشياء لا يمكنه أن يفهمها ، لأن ادراكه محدود ، وعقليته صغيرة ؟

واذا تكلمت مع الأطفال عن القدرة الالهية : فقد يظنون أن تلك القدرة تقرب من قدرة أبيهم ، فلضعف تفكيرهم وجهلهم يصورون الأشياء التى توصف لهم تصويرهم للأشياء التى يعرفونها : وقد حدث أن فلاحا سويسريا ظن نفسه أغنى انسان فى العالم ؛ لأنه كان يملك مائة بقرة ترعى على الجبال فى سويسرة ، وحينما حاول الناس أن يشرحوا له

المعنى المراد من كلمة ملك سألهم والفخر يملأ قلبه : هل يملك الملك مائة بقرة كما أملك ؟٠

يقول روسو : « اننى أشعر بأن كثيرين من القراء سيعجبون كل العجب حينما يجدوننى سائرا فى تعلم (اميل) فى السنوات الأولى من حياته من غير أن أتكلم معه عن الدين ، فهو فى سن الخامسة عشرة لم يعرف أن لديه روحا ، وفى سن الثامنة عشرة ربما لا يكون مستعدا للتكلم عن الروح ، لان فى التسرع فى دراستها والبحث عنها خطرا» ٠

ويعتقد روسو أن من الحمق تعليم الأطفال العقائد الدينية ٠ وفى ذلك يقول : « ان أردت أن أسوق الطفل الى الجنون طالبته بشرح ما تعلمه من أصول الايمان » ، وهو يريد بذلك أن ننتظر حتى يكون الطفل رجلا يستطيع أن يدرك هذه العقائد كما يريد ٠

ان فى الديانة المسيحية كثيرا من الأسرار التى لا يستطيع العقل الانسانى أن يدركها ، ولا يرى روسو فائدة من تعليمها الاطفال ، اللهم الا اذا أريد جعلهم كاذبين ٠ وقد ردد روسو قوله : « يجب أن نعتقد فى الاله اذا أردنا أن ننقذ » ٠ فروسو حينما كتب (اميل) كان يعتقد الاله ، ويثق بالقوة الالهية ، ولكنه لم يرد أن يعلم (اميل) فى الطفولة العقائد الدينية وأصول الدين ، ويخطىء الفيلسوف الذى لا يعتقد الاله ، لانه لم يحسن استعمال العقل الذى وهبه الله له ٠

وان الطفل الذى يعتقد العقيدة المسيحية فى نظر روسو ، يعتقد مالا يفهم ؛ فهو لا يفهم الا قليلا مما يطالب بتكريره واعادته ٠ فاذا ما أجبرته على أن يقول شيئا ضد الدين كان مستعدا لأن يقول ما تريد ، ويكرر ما تشاء ، فعقيدة الاطفال فى الناحية الدينية تشبه عقيدة الرجال فى المعلومات الجغرافية ٠ ويتساءل روسو : لماذا يثاب الأطفال اذا ولدوا فى رومة ، ولا يثابون اذا ولدوا فى مكة ؟ ويقول : ان المسلم يعتقد أن محمدا رسول الله فى حين أن غيره لا يعتقد فى رسالة محمد ٠ ويتساءل أيهما يعد مصيبا ؟ وأيهما يذهب الى الجنة ؟ وأيهما يذهب الى النار ؟

يريد روسو بذلك أن الطفل يعتقد ما يقال له اعتقادا مبينا على المحاكاة ، لا على الادراك والتفكير ٠ ويرى ألا نصرح بالحقيقة لقوم لا يدركونها ، ولا نحاول تعليمهم خطأ ، وخير للطفل فى نظر روسو ألا يعرف شيئا عن الألوهية ، فان ذلك أصون له من أن يعرف أشياء لا تستحق المعرفة ، وفى ذلك يقول :

« ان العجز عن ادراك الاله أقل ضررا من الخطأ فى معرفته » ٠ يقول (بلوتارك) : « انى أفضل أن يقول الناس ليس هناك شخص يدعى (بلوتارك) من أن يقولوا ان (بلوتارك) رجل ظالم حقود غيور ، يطلب أكثر مما يمكن تنفيذه » ٠ ومعنى هذا أنه خير للناس ألا يعرفوا شيئا عن (بلوتارك) من أن يصفوه بما ليس فيه ٠

ويخاف روسو أن تثبت الأشياء التى تدخل عقول الأطفال مدى الحياة ، فاذا ماكبروا فهم لا يفهمون عن الاله أكثر ممافهموا فى طفولتهم٠ وقد رأى روسو مرة أخرى امرأة تقية اقتنعت بصواب الرأى الذى ذكره، ورفضت أن تعلم ابنها الدين وهو صغير خوفا من أن يقتنع بهذه المعلومات الفجة ، ويهمل التعليم الدينى وهو كبير يصل الى سن التفكير ٠ ولم يسمع هذا الابن من أمه اسم الاله ينطق أمامه الا بكل احترام واجلال ، فاذا ما حاول أن يذكر كلمة اله أمرته أمه بالسكوت فى الحال ، وأشعرته بأن هذا الاسم عظيم فوق كل عظيم ٠ وبهذه الوسيلة من ضبط النفس أيقظت مالديه من غريزة حب الاطلاع ، فاشتاق الى الوقت الذى يستطيع فيه أن يعرف هذا السر الالهى الذى تخفيه عنه أمه ، هذا السر الذى لم تتكلم معه فيه ، ولم تسمح له بالتكلم عنه ، فزاد تفكيره فى الاله ، ورأى هذا الطفل الاله فى كل مكان ، ووثق بالقدرة الالهية ٠

ويقصد روسو بهذا أن كثرة التكلم أو كثرة الترغيب فى هذه الناحية قد تحول تفكير الشاب وخياله عنها ، فبدلا من أن تجعله يعتقد الدين تجعله لا يبالى الدين !

ولن تخاف على (اميل) من هذه الناحية ؛ فهو يرفض أن ينظر الى شىء فوق مستواه ، ويأبى أن يصغى الى أمور لايفهمها ، ولا يفكر الا فيما بعنيه ٠

يقول روسو : ان الطفل يربى على دين أبيه ، ويعطى براهين على أن هذا الدين هو الدين الحقيقى ، وأن الديانات الأخرى مخالفة للعقل مهما يكن دين أبيه ٠

فالتركى فى القسطنطينية يزعم أن الديانة المسيحية مخالفة للعقل والعرف ٠

وفى باريس يرى المسيحى فى سيدنا محمد ما لا يراه المسلم ، ففى الأمور الدينية يكثر سوء الفهم أكثر من غيره ٠ ولنا أن نسأل روسو : ما الدين الذى نمنحه الطفل ؟ والى أى طائفة ينتسب ؟ وجواب روسو أننا

لا ندعه يتعلق بطائفة ما ، أو شيعة ما ، ولكننا سنعطيه الوسائل التى بها يختار لنفسه الدين الذى يهتدى اليه عقله وتفكيره · سنعطيه الفرصة فى أن يختار بعقله الدين الذى يشاؤه · يقول روسو : « أيها القارىء ، لا تخف رجلا يحب الحقيقة · ولن أنسى مذهبى · ولن أتدخل فى تفكيرك ، ولن أعطيك رأيى أو رأى غيرى لتجعله رأيا ومذهبا لك · وسأضع الحقيقة بين يديك لتختبرها بنفسك · »

وحجة روسو فى ترك التعليم الدينى حتى مرحلة الشباب أن الأطفال لا يمكنهم أن يدركوا المعنى السامى للاله والألوهية ، وهم لا يستطيعون أن يفهموا أن الله لا يرى ولا يلمس ، وليس له مكان ولا زمان ، ولا يعرف أين هو · وان البحث مع الأطفال فى هذه الناحية يؤدى الى الخلط فى الفهم والتفكير ·

ويرى روسو أن هناك صعوبة كبيرة فى تفهيم الطفل صفات الألوهية ، وفى ذلك يقول : « اذا تكلمنا مع الأطفال عن قدرة الله فقد يعتقدون أن الله قادر ، وأن قدرته تقرب من قدرة أبيهم ، لأن أفكارهم ومعلوماتهم محدودة ؛ فالأطفال عاجزون عن ادراك أصول الايمان · ولو ترك الطفل حر الاختيار لاختار دينا غير دينه ، وعقيدة غير عقيدة آبائه » فروسو يريد أن يتعلم (اميل) التعليم الدينى حينما يكون شابا ، ويترك له الحرية فى اختيار الدين بعد دراسته · وان التربية الطبيعية التى ترباها (اميل) جعلت جسمه قويا ، وجعلته شجاعا · ومن الواجب أن نعنى الآن بتربيته الدينية · ومن السهل أن ننتقل معه من دراسة الطبيعة الى البحث عن خالق هذه الطبيعة ومبدعها · واذا بحثنا عن الخالق بدراسة الطبيعة وجدنا انها تبرهن على قدرة الخالق وعظمته ، واذا وصلنا الى هذه الغاية مع تلميذنا فقد وصلنا الى كل شىء ، فهو الآن يستطيع أن يدرك معنى عظمة الخالق وقدرته ، ويبحث عن الاله والألوهية ·

وخلاصة القول فى نظرنا أن من السهل أن نبث الروح الدينى فى الطفل من الطفولة بالقصص الدينية ، والطريقة العملية ؛ بأن يعطى قصصا تلائم سنه ومداركه ، ويبث فيه الروح الدينى من حيث لا يشعر، ويعود أمور الدين عمليا ، بأن يتوضأ ويصلى ، ويتصدق ، ويصوم فى الوقت الذى يشعر فيه بالقدرة على الصيام ، ويؤدى جميع الفرائض ؛ حتى ينشأ دينيا ، ويعتاد الصلاة والزكاة والصوم ، ويتحلى بالأخلاق الدينية من الوفاء ، والامانة ، والصدق ، والايثار ، والعطف على الفقير ، والاشفاق على المريض والمسكين ·

وليس من الضرورى أن نتسرع فى دراسة العقائد الدينية للأطفال ؛ لأنها من الأمور الفلسفية التى لا يستطيعون ادراكها فى عصر الطفولة ، وليس هنـاك ما يمنع تأخـير هذا النوع من الدراسة الى المرحـلة التى يستطيعون فيهـا ادراك العقائد الدينية ، وأصول الايمـان ، وصفات الألوهية ، وهى مرحلة الشباب ٠

وربما كان لروسو بعض العذر فى هذه المغالاة ومناداته بتأجيل دراسة الدين حتى مرحلة البلوغ ، حيث يستطيع الشاب أن يدرك شئون الدين ، ولا يسير وراء غيره سيرا كله محاكاة وتقليد !

(٤) التربية الجنسية

للتربية الجنسية أهمية كبيرة فى الجزء الرابع من كتاب اميل ؛ فقد أطال روسو الكلام فيها ، وكتب عنها كثيرا ، ويكفينا هنا أن نذكر خلاصة آرائه فى تلك التربية ، فنقول : ان لدى الأطفال الصغار ميلا الى كثرة الأسئلة وحب الاطلاع ، وبخاصة تلك الأسئلة التى تتعلق بالأطفال وولادتهم ، فكن جادا فى اجابتك ، واجعلها قصيرة محدودة تمثل الحقيقة تامة ، لا تردد فيها ولا تلعثم ، فاذا كذب المدرس على التلميذ ولو مرة واحدة فقد أضاع ثمرة التربية الى الأبد ٠

وفى مرحلة البلوغ والمراهقة يجب أن يحفظ الشاب بالعلم والمعرفة، فهذا هو الوقت الذى يحسن فيه أن يعرف الشـاب كيف يقضى أوقات فراغه ، ويرشده المربى الى الطريقة التى بها يصون نفسـه ، ويبين له علاقاته الأدبية بغيره ، والصعوبات التى يقابلها ، والوسائل التى بهـا يتخلص من تلك الصعوبات ، ويرشده الى خطر تلك الاسرار التى أخفاها عنه طويلا ٠ واذا كان من الواجب أن يعرف تلك الأسرار قبل مضى مدة طويلة فمن الخير أن تصدر تلك المعلومات من المدرس نفسه ٠

ومن الخطأ فى تلك المرحلة أن تترك الأسباب مهملة من غير توضيح يقول روسو :

« اننى لن أقتحم حجرة (اميل) لأحدثه حديثا جافا طويلا ، ولكننى سأثير خياله ، وأختار الزمان والمكان ، والموضوعات الملائمة ، لأتحدث اليه فيها ، وسأدعو الطبيعة كلها لتشاهد حديثنا ، وأجعل الله حكما بيننا ٠ وسيرى فى محبتى له السبب فى عنايتى به ٠ وسأتكلم وهو يصغى ؛ وسأبث فى قلبه الحب والكرم والشكر ٠ وسأرى محبتى وهى تنمو ،

وتتحرك في قلبه ، وسأضمه الى صدرى وأبكى متأثرا ، قائلا له : أنت ثروتى ، أنت طفلى ، أنت أثرى وعملى ، ان فى سعادتك سعادتى • واذا أضعت آمالى فقد أضعت عشرين سنة من حيـــاتى ، وجعلتنى شقيا فى شيخوختى ! » •

ولامرية فى أن المتعلم سيضع نفسه تحت سلطة المربى حينما يسمع هذه الكلمة قائلا : صديقى ! أستاذى أعد السلطة التى تريد أن تأخذها ؛ فالثقة بك تامة • بهذه الطريقة يرى روسو أن نرشد الشباب ، ونراعى شعورهم ، ونفكر فى نفسيتهم وميولهم حتى نهديهم الصراط المستقيم •

انك لا تنظر الى (اميل) بالعين التى كان ينظر بها روســـو ، فقد تتخيله كغيره من الشبان ، متسرعا حاد المزاج ، طائشا كثير الخيال ، يتنقل من مسرح الى مسرح ، ومن ملهى الى آخر ، لا يستطيع أن يستقر فى مكان ، ولا يتفرغ الى شأن من الشئون • وقد تبتسم حينما ينتظر روسو أن يكون منه انسانا مفكرا ، فيلســوفا طبيعيا ، عالما بالدين ، وحينما نوازن بين (اميل) وغيره نجد بينهما بونا شاسعا ، وقــد ربى تربية مختلفة ؛ فقد قضى (اميل) طفولته وهو حر ، ولكنه فى شبابه بدأ يحمل الغل الذى حمله غيره وهو طفل •

ان (اميل) نشيط فى طفولته مولع بالألعاب الرياضية ، وحينمــا يصل الى البلوغ والمراهقة يصير هادئا كثير الأحلام والخيال ، ويريد أن يعمل أعمال الرجال ، ويعامل كما يعامل الرجال ، ويحادث كما يحادث كل رجل •

ان فى مرحلة الشباب كثيرا من الخطر ، والعلاج الوحيد فى نظر روسو للتخلص من هــذا الخطر هو التبكير فى الزواج ؛ فهـــو الطريق الطبيعى ، وهو بلا ريب آمن وسيلة•وقد صرح روسو بأن الشبان ينبغى أن يتزوجوا حينمــا يصلون الى سن الزواج ، ولــكن سن الزواج تأتى سريعة ، والشبان يبلغون قبل الأوان ، فيجب أن يتأخر الزواج حتى يكمل الشاب • ومن الممــكن أن يحفظ الشــاب طاهرا حتى يبلغ سن العشرين ، وقد أقسم والد « مونتين » ــ وقد كان مثلا للصدق والأمانة ، وقوة الجسم والاستقامة ــ أقسم بأنه لم ير امرأة حتى بلغ من العمر ثلاثا وثلاثين سنة ، أى أنه لم يرتكب محرما • وقد ورث «مونتين» عن أبيه الاخلاص وقوة الروح •

والحق أن الذين يشغلون أنفسهم بالرياضة البدنية ، والدراسة

العلمية ، والأعمال العقلية ـ يستطيعون أن يقضـــوا شبابهم في كمال واستقامة ، واخلاص وطهارة ٠

في مرحلة البلوغ والمراهقة يحاط الشاب بالخطر ، فيجب فى نظرنا أن يحاط بالعناية ، وأن نبين له الخطر الذي يحيط به ، ولا نرسله الى هذا العالم الموبوء جاهلا بما فيه من الاخطار ٠ ويجب أن نبين له كيف يقضى وقته بين العمل واللعب ، وبين العلم والفن ؛ حتي يصون نفسه من خطر الشباب !

ان الطفل يميل الى من يميل اليه ، ويثق بمن يثق به ، ولا يخفى نفسه الا اذا كان هناك من يشعر بظلمه له ، وقسوته عليه ، والشاب كذلك يحب من يحبـــه ، ويخلص لمن يخلص له ، ويكون صريحا مع من يثق به ٠

قد تظن أنه يكفي أن تتحدث مع الشاب في وقت ما شئت ، ولكن من الحكمة أن تختار الفرصة الملائمة للاتصال بالقلب الانساني ؛ فقبل أن نبذر البذور في الأرض يجب أن نحرثها ونعدها ، ونختار الوقت الملائم لزراعتها ٠ فاذا أردت أن تبذر الفضيلة في نفس الشاب فاختر الوقت الملائم لبثها في نفسه والتأثير فيه ؛ فان السبب فى قلة التأثر بالموعظة أن الواعظ يقدمها الى كل انسان من غير ملاحظة الفرق بين الناس فى الميول والأمزجة والرغبات والسن والمراكز والعقول والآراء ؛ فاذا وافقت هذه الموعظة بعض المستمعين فربما لا توافق بعضهم الآخر ؛ فما يلائم هذا الفرد ربما لا يلائم الآخر ، وما يناسب هذا ربما لا يناسب ذاك ، فلا تناقش الشـــاب الا اذا أعددت النقاش اعدادا تاما ، واخترت له الوقت الملائم واللحظة المناسبة ؛ فالواعظ يجب أن يكون حكيما ، يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ولا يقول الشيء الا اذا كان واثقا بنتيجته ٠ وان الوحدة والبطالة والكسل والترف ومعاشرة النساء ـ فيها كل الخطر على الشباب؛ فلكى نحفظ الشاب من الخطر فى مرحلة البلوغ والمراهقة يجب أن نشغله بالتمرينات البدنية والأعمال الشاقة الجسمية والعقلية ؛ فحيثما يشتغل الجسم والعقل يهدأ الخيال ، وتهدأ الانفعالات والعواطف ، ويتعب الجسم والعقل ، ويبتعد الشاب عن الخطر ، وينصرف عن الضلال !

ان (اميل) مولع بالزراعة ، وهو يفهمها جيدا ، ولكنها وحدها لا تكفى ، فيجب أن يفـكر فى أعمـال أخرى ، يجب أن يعمـل بعقله ويده أعمالا متنوعة تجعله فى شغل مستمر ، كما يجب أن يشغل نفسه بعمل جديد يجد فيه لذة الجدة ، ويميل اليه ، ويتفرغ له بكل قلبه ٠ وربمـا

كان الصيد من أحسن الفنون التى يجب أن يشتغل بها الشاب فى شبابه وفراغه ؛ كى يقوى قلبه وجسمه ، ويكون ماهرا ضبورا مثابرا . وليس معنى هذا أن يقضى الشاب كل وقته فى صيد الحيوانات وقتلهـــا ، بل معناه أن يقضى بعض أوقات الفراغ فى الصيد والقنص .

هناك لحظات فى الحياة الانسانية لا يمكن أن تنسى : هذه اللحظات هى اللحظات التى ترشد فيها الشاب الارشاد الملائم فى الوقت المناسب ؛ كى يبقى تأثيره مدى الحياة ، وتنقش النصيحة فى نفسه بحيث لا ينساها ومن الخطأ أن نعتمد كثيرا على التفكير المجرد والأفكار المملة . وباهمال لغة التعبير نفقد أقوى وســـيلة للتأثير ، وفى استطاعتك أن تخاطب القلب بالعين أكثر من مخاطبته بالأذن ، وان الروح القوى والشخصيات القوية تتكلم بلغة مؤثرة قوية ، وبمثل هذه اللغة من ذلك الروح القوى يمكن التأثير فى الشبان وقيادتهم الى أعظم الأعمال .

واذا أردت أن تناقش شابا فناقشه بلغة مؤثرة قوية ملائمة لسنه، حتى تصل الى قلبه ؛ وتؤثر فى نفسه ؛ لأن المناقشة الضعيفة لا تدعو الى التفكير ، ولا تصل الى القلوب . واجتهد أن يكون خطابك مؤثرا حتى يصغى اليك ، وأرشده عند الحاجة ، وحاول أن تكون محادثتك سارة ، وأن تكون موضع ثقة لديه ؛ كى لا يكون حديثك متعبا له ، وكى يجعلك أستاذه حقا ، ويحملك على أن تتكلم أكثر مما تريد أن تتكلم ، حتى اذا ما رأى خطرا محدقا به قال لك : « آه ! يا صـــديقى وأستاذى ، أعد السلطة التى تود أن تضعها جانبا ؛ فاننى فى حاجة اليها ، وانى أضـــع نفسى طائعا مختارا تحت تصرفك !

احفظنى من الأعداء والخونة ، وارقب تلميذك حتى يســـتحق أن ينسب اليك . انى أريد أن أطيع مبادئك ، وهذا هو غرضى ومقصدى ؛ فاذا خالفتك فى يوم ما فستكون هذه المخالفة على الرغم منى ! احفظنى من الانفعالات الطائشة ، ولا تجعلنى عبدا لها ؛ حتى أكون سيدا لنفسى ، مطيعا لعقلى لا لعاطفتى . »

ينبغى أن يعرف الشاب ويشعر بأنه سائر فى عمله بنجاح، وحينما يبدأ حياته العملية قل له : « انك فى حاجة الى التجربة ، ولكى تحكم حكما سديدا يجب ألا تحكم وأنت فى حالة غضب ، وانتظر حتى يزول عنك التأثر . واذا أمرتك بأمر من الأمور فأطعنى دائما ، ثم اسأل عن الاسباب التى أدت الى هذا الامر . وانى مستعد لابداء الاسباب فى الوقت

الذى تكون فيه مستعدا للاصغاء اليها · ولن أخاف مطلقا أن تكون حكما بينى وبينك ما دمت أفكر فى العدالة · لقد وعدتنى بأن تتبع ارشاداتى ، ووعدتك بالانتفاع بطاعتك ، كى أجعلك أسعد انسان فى هذا العالم ·

على هذه المبادىء كانت تربيتك وحياتك حتى الآن ، أرنى انسانا ما من سنك استطاع أن يعيش سعيدا فى حياته مثلك » ·

يرى روسو أن هؤلاء الذين يقودون الشباب ، ويودون أن يحفظوهم من تأثيراته ـ يبغضون اليهم الحب ، ويجعلون التفكير فى الحب جريمة من الجرائم ظانين أن الحب خاص بالكهول والشيوخ ، ويخطىء هؤلاء المربون فى هذا الزعم ؛ لأن الشباب يؤمنون بالحب ، وقلوب الشباب تشق بالحب ، وغرائزهم تقودهم اليه · واذا مانهيتهم عن الحب ضحكوا فى أنفسهم ، وتظاهروا بقبول نصيحتك ، فاذا ما حانت الفرصة رموا بتلك النصيحة عرض الحائط ؛ لأنها ضد الطبيعة ، ولا خوف من أن تشجع فى الشاب الشعور الرقيق ، ولا خوف من أن يتصل قلبه بقلب غيره اتصالا طاهرا شريفا ، ويحبه حبا خالصا بعيدا عن الفسق والخلاعة ، حتى يتحلى بالفضيلة ، وينفر من الرذيلة ·

ان (اميل) لم يخلق ليعيش وحيدا ، ولكنه خلق ليكون عضوا فى المجتمع ، ويجب أن يؤدى ما عليه للمجتمع · وقد ربى ليعيش بين الأصدقاء ويعرف ما يدور فى العالم ، وكيف يعيش الانسان فى العالم ، ويتصف بالروح الحقيقى ، روح الاستقامة والكمال ·

بهذه الوسيلة يدخل الشاب ـ وهو فى سن العشرين ـ المجتمع ، ويدرس العالم ، ويدرك أحواله ، ويعيش سعيدا منعما ، يشارك المجتمع فى شعوره ، ويشعر بما عليه للمجتمع ·

لم يرب (اميل) ليعيش وحيدا فى عزلة ، ولكنه ربى ليكون فردا من أفراد المجتمع ، يعرف الواجب عليه للمجتمع ، فيؤديه خير أداء ، ويعرف الرجال ، ويعرف كيف يعيش معهم ، وكيف يعيشون · وفى فرنسا تربى الفتيات فى الأديرة حتى يتزوجن ، ولا يجدن صعوبة فى معرفة أخلاق المجتمع حينما يتركن حياة الدير ، وينتقلن الى الحياة الزوجية · فاميل فى سن العشرين سيقدم الى العالم · وبحسن الارشاد سيكون معتدلا حسن البصيرة مصقولا ، يسير فى الطريق المستقيم ·

وفي هذه السن خاطبه روسو بقوله : « ان قلبك الآن يحتاج الى رفيقة ، فلنبحث عن رفيقة صالحة ، وليس من السهل أن نجد تلك الرفيقة الصالحة ، والكمال الحقيقي نادر دائما ، فيجب ألا نتسرع وألا نيئس • ولا شك في أنها توجد • وسنجدها في النهاية • فاذا لم نجدها وجدنا مايشبهها كل الشبه على الأقل • وسيراها اميل في الوقت الملائم ، وسيختارها بحكمة • »

ويمكنك أن تقدم اميل الآن للعالم ، ولا خوف عليه من الخطر ، وقد ربى ليعتمد على نفسه في الحكم ، ومهما تكن طبيعته التي فطر عليها ، ومهما يكن المجتمع الذي عاش فيه ــ فدخوله في المجتمع سيكون سهلا • واذا حياك أو سلم عليك لا يظهر عليه الخجل ، ولا العجب بالنفس ، ولكنه طبيعي ، مخلص صادق ، صريح لا يتستر • وهو حينما يكون في المجتمع هو نفسه حينما يكون وحده ، لا يحب التذلل ، ولا المداهنة ، ولا الملق اذا ذكر رأيه لا يهجم على آراء غيره ؛ فهو يحب الحرية فوق كل شيء ، ويتكلم قليلا ، ولا يبالي ها يفكر الناس فيه ، ولا يقول الا ما ينفع • واذا رأى المرأة بدا عليه الخجل والحياء ، وراعى قوانين الأدب والأخلاق الطبيعية •

٥ ــ تربية الذوق

ليس من السهل تعريف الذوق تعريفا علميا ، وقد نادى روسو بتربية الذوق في الجزء الرابع من اميل ؛ وقد عرفنا الذوق في كتابنا (في علم النفس (١)) بأنه الاستعداد الفطري ــ المكتسب الذي نستطيع به تقدير الجمال ، والاستمتاع به ، ومحاكاته في أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا بقدر الاستطاعة ؛ فالذوق موهبة فطرية طبيعية منحها الله كل انسان ، ولكن للتربية والتجارب مع ذلك شأنا كبيرا في تربية الذوق •

ويختلف أفراد النوع الانساني في الذوق ولا يتساوون فيه ، وتقوم درجة الذوق على مالدى الانسان من احساس فطري ، كما تقوم على المجتمع الذي يعيش فيه •

ويرى روسو أن في الطبيعة النماذج الجميلة للذوق ، وأنه من الممكن الانتفاع بذوق المرأة في النواحي الحسية ، والانتفاع بذوق الرجل في النواحي الأدبية • وان هؤلاء الذين يظنون أن الكتب كافية لتربية

---

(١) ارجع الى الجزء الثالث من كتابنا (في علم النفس) صفحة ٣٤٧ من الطبعة الأولى •

الذوق مخطئون في نظر روسو ، لهذا لا يمكن أن نعتمد على المؤلفين كل الاعتماد في التعلم • ومن الواجب أن ننتفع بروح الجماعة ، وننتفع بالطبيعة ، كما ننتفع بالكتب الملائمة في تربية الذوق ؛ اذ يتعلم الطالب منها كيف يحلل كلام الكاتب أو الشاعر ، ويقدر جمال عبارته وأسلوبه وجمال آرائه وأفكاره ، وحسن القائه وتمثيله • وفي الأدب القديم العربي والاغريقي واللاتيني ثروة كبيرة في الخطابة والشعر والأدب والتاريخ يستطيع الشاب الانتفاع بها في تربية ذوقه • وسيجد في هذه الكتب كثيرا من الابتكار والافتنان ، وسيجدها قريبة من الطبيعة كل القرب ، بعيدة عن الضنعة كل البعد •

وقد كان روسو يأخذ (اميل) الى المسرح لدراسة الذوق لا الأخلاق، وفي استطاعة المفكر أن يرى في الملهى الذوق في الملبس ، والالقاء والتمثيل واللغة والتعبير • وكان يقول : دع المبادىء والأخلاق جانبا فانها لا تعلم هنا ، فان الملهى لم ينشأ لاظهار الحقيقة ، ولكنه أنشىء للمسرة والترويح عن النفس •

ويرى روسو أن دراسة التمثيل تساعد في دراسة الشعر ، لأن المادة واحدة في كليهما • فاذا كان لدى الانسان شيء من الذوق في التمثيل استطاع أن ينمي في نفسه اللغة الشعرية ، لغة الشعر والعاطفة والجمال ، وستكون تلك الدراسة ترويحا عن النفس ، يقدم عليها الشاب طائعا مختارا ، ويجد فيها كل متعة وسرور •

وقد كان روسو يقصد من تربية الذوق لدى (اميل) أن يشعر بالجمال ، ويحب الجمال في جميع مظاهره ، ويقلل من دوام البحث عن السعادة في الثروة • ففي استطاعته أن يجد السعادة في داخل نفسه وفي قلبه • وقد تكلم روسو كثيرا في نهاية الجزء الرابع من اميل عن البساطة في الحياة ، وجمال تلك البساطة •

وقد قلنا في كتابنا (في علم النفس) : ان من كان لديه ذوق راق كانت عنده مقدرة على قدر المنتجات الفنية والأدبية حق قدرها ، وادراك ما في هذا العالم من جمال وتناسب وانسجام ، وعلى الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعي والصناعي ، وعلى محاكاة ذلك الجمال الخارجي في الأعمال والأقوال والأفكار ؛ فالذوق السليم منبع سرور ولذة ، ودافع من الدوافع القوية التي تحملنا على ترتيب الأعمال وتنظيمها ، وتهذيب الافكار ، وتنسيق الالفاظ • ولا ريب أن الوجدان أهم عنصر من عناصر الذوق •

ولذا كان تهذيب الوجدان وتقوية عاطفة حب الجمال خير الوسائل لتربية الأذواق وتهذيبها ٠

يقول أفلاطون : « اننا فى حاجة الى أن نتعلم من عهد الشباب الأول كيف نشعر بالسرور مما هو سار حقيقة ، وبالتألم مما هو مؤلم حقيقة ؛ فهذه هى **التربية الصحيحة** ٠ »

وهذا الاستعداد الفطرى لتقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته قد يضعف اذا ترك وشأنه ، ويكون مآله الفساد والفناء ، ولكنه بالتربية والتدريب يقوى ويؤتى أكله ٠ ؛ فالذوق يقوم الى حد كبير على نوع الحياة التى يحياها الانسان ، وعلى بيئته وتربيته ، فالطفل الذى ينشأ فى بيئة جميلة ينشأ سليم الذوق ، مستعدا لتقدير مايرى من جمال فى مستقبل حياته ، فاذا ذهب الى المدرسة تغذى ذوقه بالأدب الشائق ، وتناول الفنون المتعددة : من رسم وتصوير وموسيقا ، ونال قسطا وافرا من مشاهدة الطبيعة ، وما فيها من جمال وجلال ٠ أما ذلك الذى يكون سيىء الحظ ، ولا يجد البيئة التى تساعده على تنمية ما أوتى من ذوق فان ذوقه يضعف ، فالذوق اذن فى أصله فطرى ، أما قوته أو ضعفه أو فساده فأمور مكتسبة ٠

ومع ما لوجود الذوق السليم من المزايا العظيمة ، ومع ما لتربيته من الفوائد الجليلة ــ نلاحظ أن تربيته تربية منظمة تكاد تكون مهملة فى بلادنا ، أما فى البلاد الاوروبية فيخصص القوم جزءا صالحا من أوقات فراغهم لارضاء أذواقهم ، والاستمتاع بما فى الحياة من جمال طبيعى أو صناعى ، ويعنون بتنسيق مساكنهم ، وانشاء المتنزهات والبساتين والحدائق ؛ حتى فى أقل بيوتهم منزلة وأصغرها حجما ، ويبذلون جهدهم فى تحلية غرفهم بالرسوم والصور الثمينة ، والتحف الأنيقة ، والأزهار الجميلة التى ينفقون عليها مقدارا عظيما من النقود ٠

وقد برهن علم النفس التجريبى على أن عصر المراهقة أشد عصور الحياة مناسبة للتربية الذوقية ٠

خلاصة الجزء الرابع من اميل

يظن روسو أن (اميل) حينما يبلغ الخامسة عشرة قد ربى تربية جسمية كما ينبغى ، وربى تربية عقلية كما يجب ، وربما نوافقه على انه قد ربى التربية الجسمية ، ولكن هل ربى التربية العلمية الحق ؟ وهل

يستطيع أن يكتب كتابة صحيحة ، ويتذوق الشعر والأدب ، ويعرف أبطال التاريخ ، وهو لم يدرس من ذلك كله شيئا ؟ لقد درس مقدارا قليلا من المواد فى تلك المدة القصيرة ، ولكنه قد فهم مادرس ، ويستطيع أن ينتفع بما تعلم ٠

ويرى روسو أن يربى (اميل) تربية وجدانية خلقية دينية فى هذه المرحلة ، من الخامسة عشرة الى العشرين ؛ فهو الى الآن لم يعرف شيئا عن الدين . ولم يعرف شيئا عن الأخلاق والآداب بطريقة عملية ، ولم يتصل بالمجتمع اتصالا كافيا لمعرفة آداب المجتمع وأخلاقه ٠

وبتربية (اميل) تربية دينية خلقية سنربى وجدانه ، أما تربيته الخلقية فتكون بمخالطة المثل العليا من المربين ، ا ل العليا فى الأخلاق والآداب ، وقراءة المثل الصالحة من التاريخ ، ومراعاة ضميره ووجدانه فى كل عمل يقوم به ، فالضمير الحى يهديه الطريق المستقيم ، والشعور الرقيق يجعله يشـــارك البائسين والأشقياء فى مسراتهم وأحزانهـــم ٠ فالتربية الخلقية فى نظر روسو تكتسب بالقدوة والمحاكاة ، فهو يقتدى بالمثل العليا التى يتصل بها ، ويحاكى أبطال الانسانية فى انسانيتهم وعطفهم ، وشفقتهم على الفقراء والمساكين ، ولا تكتسب بالتعليم والتلقين فى دروس توضع ، وكتب تؤلف فى الأخلاق ٠

واما تربيته الدينية فلا يبدأ بها فى الطفولة ولا فى الغلومة ، ولكن يبدأ بهـا بعـد الخامســة عشرة ، اذ يستطيع فى هـذه السن أن يعرف العقائد الدينية عن فهم وادراك وعقيدة ، بحيث يعرف الخالق جل وعلا عن عقيدة ، لا عن مجرد محاكاة أو تلقين ٠ وفى هذه السن يستطيع أن يؤمن بما يعتقد ، وأن يدرك الأسرار الالهية ، والشئون الدينية ، فيعبد ربه عن عقيدة عبادة لايشوبها شك ولا تردد ٠

فروسو يرى ألا تلقن العقائد الدينية فى الطفولة ، وألا يبدأ (اميل) دراسة دينه الا وهو شاب بين الخامسة عشرة والعشرين ، وأن تكون هذه الدراسة من ملاحظة الطبيعة ، فهو بملاحظة الطبيعة يعرف أن هناك خالقا ومنظما لهذا العالم ، ومبدعا لهذا الكون الذى يدل على عظمة مبدعه جل شأنه ٠ فاميل فى طفولته المبكرة سنعنى بجسمه ، وفى طفولته المتأخرة سنعنى بجسمه وحواسه ، ودراسة الطبيعة من الطبيعة ذاتها لا بالتلقين٠ ومن الثانية عشرة الى الخامسة عشرة سنعنى بتربيته من الناحية العقلية ، وفى شبابه من الخامسة عشرة الى العشرين سيربى تربية وجدانية دينية خلقية عن طريق دراسة الطبيعة والاتصال بالمجتمع ودراسته ٠

الفصل العاشر

الجزء الخامس من (اميل) فى تربية المرأة

يعد هذا الجزء أقل الاجزاء منزلة فى التربية ، وهو خاص بتربية الفتاة حتى تصلح لأن تكون زوجا لاميل • وقد اختار روسو لها اسما سماها به ، فدعاها « صوفى » (١) تفاؤلا بهذا الاسم • وذكر فى كتابه كيف تربى الفتاة من الطفولة ، كى تكون زوجا صالحة وتكون أما ، ولكنه قد هضمها حقوقها كما سنبين ذلك فيما بعد •

لقد بلغ (اميل) الآن العشرين من العمر ، فهو الآن شاب لايستطيع أن يعيش وحده ، شاب قوى الجسم ، يريد أن يبحث له عن رفيقة تشاركه فى حياته ، ويشاركها فى حياتها ، ولكن كيف يبحث عنها ؟ انه يبحث عنها فى الريف مع أستاذه روسو ، ولقد سافرا معا على الاقدام ، ليتمتعا بجمال الطبيعة ، جمال النبات والحيوان والمناظر الطبيعية • والسفر على الاقدام فى نظر روسو خير طريقة للسفر • ولسوء الحظ قد ضل المربى والمربى الطريق • وبعد لأى وصلا الى مسكن ريفى تعيش فيه « صوفى » مع والديها ، وهى زوج خيالية تخيلها روسو كما تخيل (اميل) من قبل • ويقول روسو : « لقد كتبت ما ينبغى أن يكتب ، وما ينبغى أن أكتب ، ولا أبالى أخياليا فيما كتبت كنت ، أم واقعيا ؟

عاش (اميل) ومعه مربيه الخاص فى جهة قريبة من بيت صوفى فى الريف ، ليكون قريبا منها ، وتكون قريبة منه ، حتى يحبها وتحبه • وقد ترددت صوفى فى أن تتزوج اميل ، لانها أكثر منه ثراء وغنى، ولكن المربى قد أزال هذه العقبة بحكمته وتدخله فخطبها اميل ، ورضيت به خطيبا لها ، ثم أخذ يعلمها الموسيقى كما علمها كل ما يعرفه •

ان (اميل) الآن فى العشرين من عمره ، ولا يزال تحت اشراف معلمه • ولا عجب ، فهو فى تلك السن مضطرب الاعصاب ، كثير

---

(١) Sophie

الانفعالات ، قوي العاطفة ، خاضع لوجدانه ، يحتاج الى من يرشده ، ويهديه الطريق المستقيم • **ولذا يصحبه مربيه دائما حتى في هذه** السن ، **ليفهمه المثل الاعلى للزوجة ، ويتدخل في كل شيء حتى في** اختيار اسمها ، واذا حدث نزاع بينه وبين خطيبته ساعد في اصلاح ما شجر بينهما •

وقد تغير (اميل) كما يتغير كل انسان ، **فلكل سن حكم خاص** ، والانسان انسان دائما ، **فحينما يكون عمره عشر سنوات يمكنك أن تتغلب عليه بالحلوى والفطائر ، وحينما يكون في العشرين تستطيع أن** تملكه بالمرأة •• وفي الثلاثين تغلبه بالمسرات • وفي الاربعين تبدو الرجولة الكاملة ، ويبدو **تحقق الآمال • وفي الخمسين** يكثر بخله ، ويحب جمع المال •

والآن نذكر آراء روسو التي **وضحها في الجزء الخامس** من (اميل) ، وهو خاص **بتربية المرأة** :

١ ــ ان الاولاد والبنات يحبون اللعب معا في الطفولة ، فالولد يحب اللعب مع البنت ، **والبنت تحب اللعب مع الابن** ، ولكن هذا يفضل الضوضاء والحركة ، واللعب **بالنحلة الخشبية والعجلات** ، وتلك تفضل اللعب الجميلة المنظر ، **وتحب المرآة والعرائس والدمى** ، **والحلي والجواهر**، فالعرائس والدمى تعد في نظر الفتاة أجمل لعبة • وهذا يرى مبلغها الغرزى في الحياة • **فالبنت تحب عروسها** ، **وتود أن تلبسها** ، وتخيط لها الملابس ، وهي بطبيعتها تحب الحياكة وأشغال الابرة ، والتطريز ، وهي أكثر طاعة ، وأشد عطفا وحنوا ورقة من الابن •

٢ ــ ولقد اعترض روسو على تعليم (اميل) القراءة وهو صغير ، فهو لم يعلمه القراءة قبل الثانية عشرة من عمره • وهو الآن يعترض كل الاعتراض على **تعليم صوفي وهي صغيرة القراءة قبل أن** تشعر بفائدتها ، وتجد من نفسها رغبة في تعلمها ، ويسأل : **لماذا يجب أن** تعرف الفتاة الصغيرة **القراءة والكتابة ولديها منزل تديره ، وتعنى بشئونه ؟**

٣ ــ لقد وضع روسو مسلكا عاما في تربية (اميل) ، **ونادى** بوجوب اتباع **الطبيعة في تربية اميل** ، **فاميل لا يتعلم الا بالطبيعة** ومن الطبيعة وحدها ، **ولكن تستمر تربيته الطبيعية وتراعى ميوله** ، ويتمتع بما في **الطبيعة من جمال** ، **ولا غرض له من هذا الرأى سوى تقوية** جسمه وقواه ، ومراعاة الطبيعة في تلك التربية • ولكن حينما نأتي الى

رأى روسو في تعليم البنت نجده قد خالف نفسه وطريقته في تربيته اميل كل المخالفة ، فنجده بدل أن يقول : ان للمرأة الحق كالرجل في الانتفاع بقواها ومواهبها الفطرية ، وتربيتها تربية طبيعية تراعي فيها تلك القوى والمواهب ـ نجده بدل هذا يتدخل ، ويملي عليها نوعا خاصا من التربية ، من غير مراعاة للطبيعة ، وليولها الفطرية ، ولا عجب ، فهو يعتقد أن الغرض من تربية المرأة أن تصير زوجا ومربية للطفل ، وأنها قد خلقت لمسرة الرجل ، وأن تربيتها يجب أن تعمل للوصول الى هذا الغرض ، فالمرأة بهذه الوسيلة تجد سعادتها الحق ، سعادتها التي لن تجدها في مكان آخر ، فالغرض من تربية المرأة عند روسو « أن تسر الرجال وتنفعهم ، وتجعل نفسها محبوبة محترمة بينهم ، وأن تربيهم وهم صغار ، وتعنى بشئونهم وهم كبار ، وتسليهم ، وتجعل الحياة عذبة وجميلة في نفوسهم . هذه واجبات المرأة في جميع الاحوال ، وهذا ما يجب أن تعلمه النساء من الطفولة » .

٤ ـ هذا مايراه روسو في تربية البنت ، وفي الغرض من تعليمها ، فهو يعد المرأة مكملة للرجل ، تقوم بتربية الاطفال ، وتعنى بشئون البيت ، وتعمل لاسعاد زوجها وخدمته ، وتسليته بحديثها العذب ، وعنايتها التامة ، كما تعنى بأمور المرضى والعجائز والاطفال من طعام وشراب ولباس . وتعد الرقة والحلم والطاعة من أهم الصفات التي يجب أن تتحلى بها الفتاة .

وفي نظره يجب أن تخضع المرأة للرجل كل الخضوع في الامور العقلية والادبية والدينية ، وأن تطيع زوجها اذا أمر ، وتخضع لحكمه اذا حكم . وكل فتاة في رأي روسو يجب أن تتبع أباها في دينها ، وكل زوج يجب أن تتبع زوجها في دينه . وعلى هذا لا يترك روسو للمرأة الحرية في دينها ، والاستقلال في تفكيرها ، والاعتماد على النفس في أحكامها ، فهذه رذائل في نظره يجب على المرأة أن تتجنبها . ولكن من يوافق روسو على هذا الرأي ؟ غريب أن ينادى بتجنب المرأة المثقفة ؛ فهي في نظره كالطاعون لزوجها وأطفالها ، وأصدقائها وخدمها ، وكالطاعون لجميع المخلوقات !

٥ ـ ولكن هل نتركها من غير ثقافة ودراسة ؟ لا ، انها ستثقف وستدرس ، ولكن ستدرس المواد التي تساعدها على أن تسر الرجل ، وتكون خادما له ، أما المواد التي تساعدها على أن تفكر بنفسها ، وتستقل في تفكيرها فيجب أن تتجنب كل التجنب في نظر روسو ، فحياة الرجل

يجب أن تسير مع العقل والتفكير ، وحياة المرأة يجب أن تسير مع الوجدان والعاطفة . ففى المرحلة الاولى من الطفولة يجب أن يربى الطفل تربيه جسمية الغرض منها كسب القوى • وفى تلك المرحله يجب أن تربى البنت تربية جسمية الغرض منها اعتدال الجسم ، وحسن القوام • وفى الوقت الذى يتعلم فيه الابناء القراءة والكتابة يجب أن تتعلم البنات الحياكة والتطريز ، وتفصيل الملابس ، ففى هذا النوع من التعليم تجد الفتاة سرورا ولذة • وحينما تكبر البنت يجب فى نظر روسو أن تتعلم الرقص والغناء ، والموسيقا والرسم ، وغيرها من المواد التى تجعل غيرها سعيدا ، وتكسبها رقة وجاذبية •

فالمرأة فى نظر روسو غير صالحة لدراسة الفلسفة والعلوم العقلية• وليس لديها قوة كافية للاعمال العلمية التى تحتاج الى دقة ، ولكن لديها قوة محدودة تستطيع بها أن تدرس الطبيعة والكيمياء •

وهناك علم واحد تستطيع كل امرأة ــ تود النجاح فى العالم ــ ان تدرسه دراسة حقا، هذا العلمهو العلم الخاص بدراسة الرجل الذى ستتصل به ، وتكون شريكة له فى حياته ، فعليها أن تدرس عقل الرجل الذى يريد أن يتزوجها ، عقل الرجل الذى تخضع له قانونا ، وتخضع له فى تفكيرها • فعليها أن تدرس نظرات الرجل وأعماله ، وأقواله وحركاته ، كى تستطيع أن تعرف ما يفكر فيه ، وما يشعر به ، وما يبدو على وجهه من علامات الانفعال ، من الغضب ، أو السرور ، أو الحزن ، أو الخوف ، بحيث تستطيع أن تدرسه حق الدراسة ، وتعرف كيف تجعله مسرورا سعيدا فى حياته ومنزله •فالكتاب الذى يجب أن تقرأه المرأة فى نظر روسو هو عالم الرجال : فاذا استطاعت المرأة أن تقرأ هذا العالم قراءة صحيحة ، وتدرسه دراسة حقا ، نجحت فى أداء رسالتها • واذا عجزت عن تلك القراءة والدراسة فعليها وحدها يقع اللوم •

٦ ــ وفى الوقت الذى حرم فيه على (اميل) أن يبحث فى الشئون الدينية أو يتعلم الدين الا بين الخامسة عشرة والعشرين يرى ان تعلم الفتاة التعليم الدينى من الطفولة ، لأنها فى نظره لا تستطيع الوصول بنفسها الى الأسرار الالهية ؛ فالمرأة فى نظره يجب أن تكون تحت الضغط والرقابة الدائمة ، والأحكام والأوامر ؛ فتعليم المرأة فى نظره يخالف تعليم الرجل كل المخالفة ؛ فالمرأة يجب أن تعلم لتكون

مدبرة للمنزل ، مربية للأطفال ، سارة للزوج ، قائمة بشئون الرجل الهرم والمرأة العجوز ، وتمريض المرضى ٠

وان من ينظر الى هذه الآراء يرى أن روسو جعل المرأة تابعة للرجل، خلقت لتخدمه ،وتجعله سعيدا ، يحبها ويحترمها ؛ فالغرض من تربيتها أن تكون جميلة معتدلة القوام ، سليمة الجسم ، قادرة على الحمل ، تجيد الادارة المنزلية ، والأعمال النسوية ، والفنون الجميلة ٠ فروسو يريد زوجا لاميل لم تنل ثقافة عقلية ، ولم يوهب لها ذكاء حاد ٠ ولاعجب؛ فهو ضد الذكيات من الزوجات ، وضد السيدات المتمدينات اللاتى تأثرن برذائل المدنية ، ولهذا قد اختار صوفى من الريف الذى لم تصله المدنية، وودع اميل باريس، تلك المدينة الشهيرة ، مدينة الضوضاء والدخان(١) والقذارة ؛ لأن نساءها فى نظر روسو لايؤمن بالشرف ، ورجالها لا يعتقدون الفضيلة ٠

وداعا يا باريس ! فاننا الآن نبحث عن الحب والسعادة والطهارة ، نبحث عنها فى أحضان الطبيعة الطاهرة ، والبيئة الطاهرة ٠ فهو يبغى أن تكون صوفى خجولا حيية ، طيبة القلب ، معتدلة القوام ، محتشمة فى أعمالها ، حسنة فى ذوقها ، بعيدة عن المدنية ، تحب جرى حياتها على الطبيعة ، تجيد العزف ، وتحسن الايقاع على « الكمان » ، كى يعجب بها اميل ، ويحبها كل الحب ، ثم يتزوجها ويكون سعيدا بزواجها ٠

٧ ــ ان المرأة قد خلقت لاسعاد الرجل ٠ وأهم صفة يجب أن يتصف بها الرجل هى القوة الجسمية ٠ وأهم صفة يجب أن تمتاز بها المرأة هى الجمال ٠ هذا قانون الطبيعة فى نظر روسو ٠ وان المرأة لاتستطيع أن تجعل الرجل سعيدا اذا خلقت له المشكلات ، وخالفته فيما يقول ، وأغضبته فيما تفعل ؛ فواجب على المرأة أن تطيع زوجها ، وتخضع له وتوافقه فيما يقول ومايفكر ٠ ولا تنتظر أن تكون المرأة قوية فى جسمها كالرجل ، بل يجب أن تكون سليمة الجسم ، بحيث تكون قادرة على الولادة والحمل والأعمال المنزلية ٠

وفى هذا المقام لا يمكننا أن ننسى وصية المرأة الأعرابية لابنتها ليلة زفافها ؛ فقد جمعت فيها من الوصايا ما يحقق السعادة فى الحياة الزوجية ٠ قالت :

---

(١) لقد كان هذا الوصف صحيحا فى القرن الثامن عشر ، أما باريس اليوم فهى مدينة النور والحرية ٠

أى بنية ، ان الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك معك ، ولكنها تذكرة الغافل ، ومعونة العاقل ٠

أى بنية ، انك فارقت بيتك الذى منه خرجت ، وعشك الذى فيه درجت الى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ؛ فكونى له أمة يكن لك عبدا ، واحفظى له خصالا عشرا :

أما الأولى والثانية فاصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة ٠

وأما الثالثةوالرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم أنفه منك الا أطيب ريح ٠

واما الخامسة والسادسة فالتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه ، فان حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ٠

وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ ببيته وماله ، والرعاية لحشمه وعياله ؛ فان ملاك الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير ٠

وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرا ، ولا تفشين له سرا ، فانك ان خالفتيه أو غرت صدره ، وان أفشيت سره لم تأمنى غدره !

ثم اياك والفرح بين يديه ان كان حزينا ، والكآبة بين يديه ان كان فرحا ، فان الخصلة الأولى من التقصير ، والأخرى من التكدير ٠

وكونى أشد الناس له اعظاما يكن أشدهم لك اكراما ، واعلمى أنك لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت ثم ودعتها وصرفتها بعد أن نبهتها وعرفتها ٠

٨ ــ يجب أن يكون اختيار الزوجة مبنيا على الحب ، ودعامته الحب ٠ وخير للرجل أن يتزوج امرأة أقل منه منزلة ؛ كى يكون له سلطان عليها ٠ وخير له أن يتزوج فتاة ربيت على الفطرة ، ولم تتعلم الفلسفة ، فهذه الزوجة فى نظره خير من زوج ذكية مثقفة تجعل بيته محكمة أدبية ، تكون فيها رئيسة لتلك المحكمة ، فالمرأة الذكية عذاب لزوجها وأبنائها ، وأصدقائها وخدمها كما قال روسو من قبل ؛ فلنبوغها وثقافتها العالية تحتقر أعمال المرأة وواجباتها ، وتبدأ فى القيام بأعمال الرجل ، فشرفها فى نظر روسو أن تكون مجهولة ، وعظمتها فى أن تخدم

زوجها وتقدره ، وأن تعنى بأولادها · وسرورها فى أن تجعل أسرتها سعيدة ·

وفى الوقت الذى يطالب فيه بأن تكون المرأة جميلة يقول فى موضع آخر : « ان الاعتدال يجب أن نبحث عنه فى كل شىء حتى فى الجمال » ·

حقا يجب أن تكون صوفى امرأة ، كما يجب أن يكون (اميل) رجلا حقا ؛ فنحن لا ننتظر أن تكون المرأة رجلا ، ولا أن يكون الرجل امرأة ! وينبغى أن تتصف صوفى بصفات المرأة التى تمكنها من القيام بواجبها ، ولسنا هنا فى موضع يسمح لنا بذكر أوجه الشبه والخلاف بين الرجل والمرأة · وكل ما نستطيع أن نقوله هو أنه يجب أن نعنى بالمرأة عنايتنا بالرجل ، وأن تعطى حقها فى المساواة بالرجل · وهذا لا يمنع أن يكون الرجل رجلا ، وأن تكون المرأة امرأة ·

اننا نريد أن يكون الرجل خير رجل ، والمرأة خير امرأة ، ونود أن يكون كل منهما انسانا حرا مستقلا ، له من الحقوق ما للآخر · لا نريد أن تربى المرأة تربية الرجل ، ولا أن يربى الرجل كما تربى المرأة ، بل يسير كل منهما على حسب فطرته وطبيعته ، فذلك خير له وخير لها · ولكننا لن نتركها جاهلة ، ولن نجعلها خادمة للرجل ، ولن نكتفى بتعليمها ادارة المنزل ، فانها لن تستطيع ادارته كما ينبغى الا اذا أخذت نصيبها من الثقافة ، ونالت حقها من التعليم ، واننا ننادى بأن يكون لها الحق فى أن تفكر ، وفى أن تريد ، وفى أن تعمل ، وتنتفع بمواهبها فى تربية ابنائها ، واسعاد زوجها ·

يريد روسو أن تختفى المرأة بعد أن تتزوج ؛ تختفى من الحياة العامة بين أربعة حيطان من المنزل ؛ كى تتفرغ للعناية بشئون منزلها وزوجها وأسرتها ·· وهذا فى نظر روسو هو الطريق الطبيعى ، والطريق المعقول الذى تضعه الطبيعة ويقره العقل للمرأة فى الحياة ، بحيث تتفرغ لولادة أطفال أقوياء يستحقون الحياة ، كما كانت المرأة الاغريقية فى أيام الاغريق القدماء · ولا يسعنا الا أن نتفق مع روسو فى كثير من آرائه ، ونخالفه فى هضمه حقوق المرأة فى الثقافة العلمية والأدبية ·

واننا نقول : لو عاش روسو الى اليوم لغير رأيه فى المرأة ، وفى تربيتها وتعليمها ، ولوجد انها لا تختلف عن الرجل ذكاء وتفكيرا ، فالذكاء ليس بمقصور على الرجال ، ولا مقصور على النساء ، فكما يكون فى الرجال يكون فى النساء !

لو عاش روسو الى اليوم لوجد من النساء الطبيبة والفيلسوفة ، والمؤلفة فى التربية وعلم النفس ، والطيارة والمهندسة ، والعالمة والتاجرة؛ فروسو قد هضم المرأة حقوقها ، ونسى تلك الحقوق ، وجعلها آلة من الآلات ظنا منه أنها لم تخلق الا لتسلية الرجل ومسرته ، وفى نظرنا يجب أن تعد المرأة للحياة ، وتدرس المواد التى تميل اليها ، وتلائم طبيعتها وميولها ورغباتها ؛ حتى نعدها لأن تكون خير مديرة لمنزلها ، وخير مربية لأطفالها وأطفال غيرها ، وخير ممرضة للمرضى ، وخير عالمة بشئون المنزل وما يتطلبه من طهى وحياكة ملابس واعدادها ، واصلاحها ٠

يجب أن تعرف من الفنون الجميلة كالرسم والتصوير والموسيقا والغناء ما تشاء ، وتدرس الأدب والتاريخ والتربية واللغات الأجنبية اذا شاءت ٠ وهل هناك ما يمنع أن تكون المرأة أديبة أو كاتبة ، أو طبيبة للأطفال أو للعيون أو أمراض النساء ، أو مدرسة للبنات ، أو مدافعة عن حقوق المرأة ، أو كاتبة بالآلة الكاتبة ؟

لقد برهنت المرأة فى هذا العصر على أنها تستطيع أن تشارك الرجل فى كثير من الأعمال التى يقوم بها ؛ فنحن لا نوافق روسو على أن تكون المرأة مستعبدة للرجل ، ولا على أن نحرمها حريتها واستقلالها ٠ فلتطع المرأة زوجها ، ولتخضع له اذا كان حكيما فيما يقول ، معقولا فيما يأمر ، منطقيا فيما يرى ؛ أما اذا كان أحمق بعيدا عن العقل والمنطق فكيف تطيعه ؟ وكيف نطالبها باطاعته ؟ ومن يقول بالطاعة العمياء ؟

ولو اتبعنا روسو فى جميع آرائه فى تربية المرأة لرجعنا بها الى الوراء ، فالمرأة لايمكنها أن تقوم بالواجب عليها لزوجها وأبنائها كما ينبغى الا اذا ربيت تربية حقاً علميا وعمليا وخلقيا وأدبيا ودينيا واجتماعيا وعقليا وجسميا ، انها لاتستطيع أن تقوم بواجب منزلها عليها الا اذا ثقفت علميا وعمليا كما ينبغى ٠ أما قول روسو ان المرأة المثقفة شقاء لزوجها وأولادها وخدمها فقول لا يقول به أحد غيره !

يدعى روسو « أن تربية المرأة تجعلها متصفة بصفات الرجل » ، مهملة صفات المرأة ، وأن هذه التربية تضرها ولاتنفعها ! فماذا يريد روسو ؟ أيود أن نتركها جاهلة ، ونجعل أعمالها مقصورة على الادارة المنزلية؟ وهل يحب الرجل أن يجعل شريكته فى الحياة خادما له ، ويبعدها عن المجتمع كل البعد ؟

اننا لانعتقد أن الرجل يود أن تكون زوجه خادما فى منزله ٠ واذا كلفناها الطاعة والخضوع دائما فمعنى ذلك أننا حرمنا عليها أن تفكر

أو تدرك ، أو تقول ما تشعر به • فهل يريد الزوج أن تكون زوجته آلة من الآلات ؟ وهل تقصد الطبيعة ـ التى نادى بها روسو فى تربية (اميل) أن تكون المرأة آلة كالريشة يحركها الهواء كيفما شاء ، وقد وهب لها عقلا يحس ويدرك ويتصور ويتخيل ويفكر ، ووجـدانا تشعر به ، وارادة تنفذ بها ؟

لا ، اننا نعتقد أن الطبيعة تقصد أن المرأة ينبغى أن تدرك وتتصور ، وتفكر وتريد ، بحيث تكون قادرة على الحكم والتفكير والعمل • وان من الواجب أن تتعلم كيف تفكر وكيف تدرك ، وأن تسلح بهذه الأسلحة التى أمـدتها الطبيعة بها ، وهى القدرة على الادراك والتفكير والعمل ، حتى نعوضها شيئا مما فقدته من قوة الجسم التى تبدو فى الرجل ، وحتى تستطيع أن تقوم بما يفرضه عليها منزلها من واجبات ؛ لهذا يجب أن تتعلم ، وتنتفع بما أوتيت من التفكير والوجدان والارادة كل الانتفاع ؛ فعلى تربية المرأة تقوم تربية أبنائها ، وعلى العناية بتربية المرأة نعتمد فى تربيتها الخلقية ، وتربية عواطفنا وأذواقنا ، ووجداناتنا وانفعالاتنا ، وعلى تلك التربية تقوم سعادتنا ؛ فاذا لم ترب المرأة فلن تستطيع أن تؤدى رسالتها لاسعاد زوجها ، والنهوض بأولادها ، وخدمة مرضاها ، وادارة منزلها ، وكيف تعرف مالية بيتها اذا لم تتعلم الحســـاب مثلا ؟

فالطبيعة كما وهبت للرجل عقلا يفكر به ، ووجدانا يشعر به ، وارادة يعمل بها وهبت للمرأة أيضا هذا العقل ، وهذا الوجدان ، وتلك الارادة • واننا لانريد أن نعطل تلك المواهب التى وهبها الله لها •

التربية الخلقية للفتاة

اننا نعتقد أن الأدب والأخلاق خير حلية يجب أن تتحلى بها الفتاة • وكما يجب أن تتحلى الفتاة بالأخلاق الكاملة ، والآداب العالية ـ يجب أن تتسلح فى هذا العصر بالعلم والثقافة والتربية • ولو خالفنا روسو فى الجزء الأخير من هذا الكلام •

ويرى روسو فى التربية الخلقية للمرأة :

١ ـ أن تعطى المرأة قليلا من الحرية ، كما يجب حرمانها هذا المقدار القليل من الحرية اذا بالغت فى استعماله ، وليس لدينا مايمنع أن نعطيها نصيبا محدودا من الحرية ، ونعمل على أن تحسن اســتعمال الحــرية التى أعطيناها اياها •

٢ ـ عود البنت الطاعة وامتثال الأوامر : لأنها تحتاج فى حياتها الى الخضوع للرجل وآرائه ، فالمرأة فى نظر روسو يجب أن تطيع الرجل ولو كان ناقصا ، وأن تخضع له ولو كان ظالما ، كما يجب أن تحتمل الظلم والقسوة من زوجها من غير أن تشكو أو تتذمر · واذا قلنا بطاعة المرأة للرجل وامتثالها لأوامره فاننا لا نقول باطاعته فى الأمور الضارة ، كما لا نقول بالخضوع للظلم ، واحتمال القسوة والتعذيب · فاذا كنا ننتظر من المرأة الطاعة يجب أن ننتظر من الرجل الكمال والاعتدال ، والأخلاق الفاضلة ، والتفكير الصائب ·

٣ ـ عود البنت أن تترك اللعب ـ حتى فى أثناء اللعب ـ اذا طالبتها بتركه ، وتعود الى عملها بغير تذمر · واننا نوافق روسو على هذا الرأى ، حتى تعتاد البنت ضبط شعورها ونفسها ، وتترك اللعب ـ وهو متعتها وسرورها فى طفولتها ـ وتذهب الى العمل راضية مسرورة ·

٤ ـ ان أهم صفة يجب أن تتصف بها الفتاة هى ضبط الشعور ، وضبط النفس ، وحسن الطبع ؛ فلا تتأثر بأتفه الأشياء ، ولا تنفعل بسبب أو بغير سبب · وهذه ناحية جوهرية فى تربية الفتى ، وفى تربية الفتاة فى نظرنا ·

٥ ـ لا تمنع الفتاة من الضحك والسرور والمرح والضوضاء واللعب السار ·

٦ ـ يجب أن تكون الفتاة نشيطة محبة للعمل ، مهذبة الخيال ·

٧ ـ يجب أن تحب البنت أمها ، فانها اذا أحبتها استطاعت أن تشاركها فى أعمالها طوال اليوم ما لم تشعر بتعب · واذا لم تحب أن تكون مع أمها فهى شاذة لا تصلح لأن تعيش فى مجتمع ما ·

واذا أردنا أن نعرف الشعور الحقيقى للفتاة وجب أن نلحظها ، ونرقبها عن كثب · ولا نعتمد على ما تقول ، فقد تخدعك فيما تقول · ولا يمكننا أن نجبر الفتاة على محبة أمها ، ونجعل ذلك الحب من الواجبات عليها ؛ فان الحب لا يأتى غصبا ، ولا يجىء قسرا ، ولكن بحسن الصلة والعطف والشفقة والتعود تستطيع الأم أن تكسب محبة ابنتها واخلاصها·

٨ ـ ان روسو ينقد الفتاة فى الاسراف فى الملابس · واننا نوافقه على هذا النقد ·

التربية الدينية للمرأة

اذا عجز اميل عن تكوين فكرة عن الدين وهو غلام عجزت صوفى لا محالة عن تكوين تلك الفكرة وهى فتاة صغيرة ؛ فكل فتاة كما قال روسو : ينبغى أن تتبع أمها فى دينها • وكل زوجة يجب أن تتبع زوجها فى دينه • وفى التعليم الدينى يجب أن نحسن اختيار المادة الملائمة للفتيات بحيث لا تكون محزنة مملة • وبحديث نموذجى تستطيع الفتاة أن تصل الى معرفة الخالق •

ومن الواجب أن نعنى باختيار المربين والمربيات الذين يقومون بتربية الفتيات أكثر من عنايتنا باختيار المربين الذين يقومون بتعليم الفتيان •

وان صوفى ليست بغير دين ؛ فهى متدينة ، ودينها يحتوى على قليل من الأحكام والعقائد (١) ، وعلى تمرينات دينية عملية ، فهى تؤدى الواجبات الدينية بعمل الخير ، وتعبد الله طوال حياتها بالبعد عن الرذيلة، والتحلى بعمل الفضيلة •

التربية الاجتماعية للمرأة

١ ــ ان أول شىء ينبغى أن تتعلمه الفتاة هو القيام بأداء الواجب ؛ الواجب الملائم لطبيعتها ، واجب نفسها وزوجها وأسرتها عليها •

٢ ــ يجب أن تكون جميع المواد التى تدرسها الفتاة عملية ؛ لأن لديها قدرة على الأعمال الآلية أكثر من الرجل ، فهى فى نظر روسو ليس لديها الدقة الكافية للنجاح فى العلوم البحتة ؛ ففى استطاعتها أن تدرس الطبيعة التى تحيط بها ، وعالم البيت الذى تعيش فيه ، وأن تقوم بتنفيذ القوانين التى يضعها الرجل ، وتساعده فى تنفيذها عمليا • أما العلوم التى تتطلب نبوغا وعبقرية فتعد فوق مدارك المرأة فى رأى روسو •

٣ ــ يجب أن تدرس المرأة عقل الرجل ، وتعرف ميوله ورغباته من أحاديثه وأعماله ونظراته ، ذلك الرجل الذى تشاركه فى حياته ، ويشاركها فى حياتها ، وتخضع له بالعرف والقانون •

٤ ــ ان الرجل يستطيع أن يصف لك القلب الانسانى ، ويتكلم عنه من الناحية الفلسفية بطريقة فلسفية ، أما المرأة فيمكنها أن تقرأ مافى

---

(١) Few dogmas

القلب الانسانى ، وتشـعر به أكثر من الرجل ، فاذا كان الرجل أكثر نبوغا وعبقرية فالمرأة أكثر حذقا ورقة فى الناحية العاطفية ٠

لقد أخطأ روسو فى اعتقاده أن المرأة عاجزة عن التفكير فى الأمور المعنوية ، كما أخطأ فى ظنه أن المرأة لا تستطيع أن تفكر كالرجل ، ولذا عنى بتربية عواطفها أكثر من عنايته بتربيتها العقلية ، ولا عجب ، فقد نادى كثيرا بأن المرأة يجب ألا تفكر الا فى أشغال الابرة ! أما نحن فنرى أن تعنى المرأة بأشغال الابرة ، ولا تكتفى بها ، بل تفكر حتى فى الأمور الفلسـفية والعقليـة ، فهى لا تقل ذكاء وتفكيرا عن الرجل ، ونرى أن نعطيها من الحقوق ما يعطاه الرجل ٠ واذا جمعنـا بين الرجل والمرأة فى التفكير فى مشروع من المشروعات استطعنا أن ننتفع بقـوة البرهنة لدى الرجل ، وقوة الملاحظة لدى المرأة ، وأمكننا أن نصل الى أنضج الافكار التى يستطيع أن يصل اليها العقل البشرى ٠

٥ ــ يرى روسـو أن المـرأة يجب أن تخضع لحـكم الرجل ؛ كى تستحق احترامه وحبه ، ورضاءه واستحسانه ٠ ولكن كيف تحترم اذا تركناها جاهلة ولم نعلمها كما ينبغى التعليم الذى يلائمها وتميل اليه ، ولو كان هذا التعليم فلسفيا ؟

٦ ــ ينبغى أن تكون المرأة قوية الملاحظة ، ماهرة فى اعداد المائدة ، حاذقة فى محادثة ضيوفها على المائدة ٠

٧ ــ « ان العالم هو كتـاب المرأة » (١) ٠ فاذا أخطأت فى قراءته كانت هفوتها شخصية ٠ وكيف تستطيع قراءة العالم اذا لم ترب التربية الحق ؟ كيف تعرف العالم اذا لم نعطها الفرصة الكافية للبحث والدراسة؟ كيف تعرف العالم اذا عاشت فى عزلة منقطعة عن العالم ؟

أما العالم الذى يقصده روسو فى أن يكون كتابا للمرأة فهو أن تكون فى المنزل بين أربعة جدران ٠

٨ ــ يجب أن تكون الفتاة رفيقة لأمها ، حتى تحبها ، وتشعر بما تشعر به البنت نحو أمها ٠ وفى اعتقادنا أن الفتاة يجب أن تسترشد بأمها ، ويجب أن تسترشد بآرائها ، وتحذو حذوها ٠ واننا ننتظر من الأم أن تكون خير قدوة فى الأخلاق والآداب والكمال ٠ وفى استطاعة الأم أن تتخير لابنتها الأشياء التى يصح أن تراها ، والخيالة التى يجوز

---

(١) The world is woman's book.

أن تشاهدها ، كى لا ترى الفتاة الا ما يحسن أن تراه العين ، ولا تسمع الا ما يجمل أن تسمعه الأذن ٠

وان محبة الحياة المنزلية السعيدة تتطلب من الفتاة أن تعرف تلك الحياة وتشعر بها ٠ وان الفتاة التى لم تقم أمها بتربيتها بنفسها كما ينبغى لاتستطيع أن تقوم بتربية أطفالها ٠ ولا ضرورة لذكر محاضرات خلقية طويلة جافة للفتى أو الفتاة ، ففى هذا النوع من المحاضرات اماتة للتربية التى نتطلبها اليوم ٠ واذا أردت أن تشرح لابنتك شيئا خلقيا فاجتهد فى أن تكون واضحا فى شرحك ، دقيقا فى نصيحتك ، موجزا فى ارشادك ٠ وابتعد عما يخيفها ، أو يحزنها ، ولا تتظاهر بالشدة أو القسوة ؛ حتى تقوم بأداء الواجب بنفس راضية ، وتجد فى أدائه سرورا ومتعة ٠ وفى اعتقادنا أن الأم هى التى يجب أن تقوم بارشاد ابنتها ٠

٩ ــ دع الفتاة تشعر بالفضيلة بترغيبها فى الفضيلة ، دعها تشعر بالحكمة وأثرها حتى تحب الحكمة ٠ وأعطها فكرة عن الرجل الكامل الأمين المخلص ، وفهمها أن مثل هذا الرجل وحده يستطيع أن يجعلها سعيدة ٠

صوفى وهى فى الخامسة عشرة

اننا بالنظر الى الصورة التى رسمها روسو لاميل ، وبالنظر الى ما يفكر فيه اميل فى زوجه المنتظرة التى تستطيع أن تجعله سعيدا فى حياته ــ يمكننا أن نقول ان صوفى ربيت تربية روعيت فيها ميولها وذوقها ، وتنتمى الى أسرة صالحة ، ثم هى رقيقة الاحساس ، قوية الخيال ، معتدلة المزاج ٠ فى مظهرها جمال الفطرة ، وفى وجهها جاذبية ٠ لا تعرف الكذب ، ولاتميل الى الغش ٠ مولعة بالملابس ، ولها ذوق جميل فى اختيارها وفى تفصيلها ، وخياطتها ٠ تعرف ما يلائمها وما لا يلائمها من الألوان ٠ وهى تجمع بين الجمال وعدم التأنق ٠ وقد بلغت درجة كبيرة من المهارة فى أشغال الابرة ؛فهى تجيد تفصيل الملابس وخياطتها وتطريزها وتعرف جميع أشغال الابرة على اختلاف أنواعها ، وقد كسبت يداها مهارة، وأصابعها مرونة فى تلك الأعمال ٠

وليس لدى والدتها فى البيت خادم غيرها ، فوالدتها تعتمد عليها فى شئون المنزل ، وفيها مواهب فطرية ، وهى تقدر تلك المواهب وتنتفع بها ٠ وقد عرفت كل مايتعلق بالمطبخ والطبخ ٠

هذا الى أنها تعرف أنواع الطعام وأثمانها ، وكيف تخزنها ، والمقادير التى يتطلبها كل نوع من الأطعمة ٠ وفى استطاعتها أن تضع نظاما

لبيتها ، فهى مدبرة المنزل لأمها • وهى تستطيع أن تدبر شئون البيت لاميل اذا تزوجته • ولا أحد يعرف كيف يأمر ، وكيف يكون الأمر الا اذا تعلم كيف يطيع • هذا هو الرأى الذى اتخذته والدتها فى تربيتها ، فهى تأمرها اليوم ، وتطلب منها الطاعة ، حتى اذا ما أصبحت زوجا وأما فلها أن تأمر وتنتظر اطاعة أوامرها • وقد اعتادت القيام بشئون البيت والمطبخ مع العناية بالنظافة ، نظافة نفسها وملابسها وغيرها ، حتى أصبحت مولعة بالنظافة •

تعلمت الغناء بنفسها ، فقد استطاعت أن تمرن صوتها العذب ، حتى أمكنها أن تغنى غناء جميلا ، ولم يكن لديها معلم يعلمها الغنـــاء سوى أبيها ، ولم يكن لها أحد يعلمها الرقص سوى أمها • وقد تعلمت الضرب على العود والأرغن ، وساعدها فى ذلك أحد الجيران الذى يجيد اللعب بهما • وبالمرانة أمكنها أن تغنى غناء جميلا ، وترقص رقصا رشيقا ، وتلعب على العود والأرغن لعبا شجيا •

ويرى الاوروبيون حتى اليوم أنتعلم الفتاة الغناء والرقص والعزف، لأنها فنون هامة للرجال والنساء معا • أما نحن الشرقيين فنعتقد أن الغناء والموسيقا من الفنون الجميلة ، وأن الرقص بدعة لا تلائم الجو الشرقى • ففى الوقت الذى يرى فيه الغربيون أن الرقص حركات رياضية منظمة نرى أنه قد كان سببا فى كثير من الأحيان فى القضاء على حياة الأسرة الأوربية وسعادتها ، فكثيرا ما فارق الرجل زوجه وأولاده ، وفارقت المرأة زوجها بسبب ماينجم عن حوادث الرقص ، فقد تحب غيره ، وقد يحب غيرها ، وتكون النتيجة الفراق ! وقد يسمح الزوج الأوربى لزوجه بالخروج مع صديقه للرقص معه فى بعض الحفلات • وقد يتكرر خروجها معه ، فتنشأ علاقة بين الزوجة والصديق تكون نتيجتها الطلاق والفراق ! ولقد حدث هذا فى الأجواء الباردة ، فماذا يحدث اذا قلنا بالرقص فى الأجواء الشرقية الحارة ؟

وصوفى الآن من الناحية العقلية مقبولة فى تفكيرها ، ولكنها ليست بذكية • هى مفكرة ، ولكن تفكيرها غير عميق ، فهى لم ترب التربيـة العقلية الكافية ، لأن روسو ضد تربيتها العقلية ، ولا عجب ، فعقليتها لم تتكون بالقراءة ، ولكنها تكونت بالمحادثة مع والديها ، وبتأملاتها الخاصة وتفكيرها الخاص ، وبملاحظاتها فى العالم الصغير الذى يحيط بها •

ان صوفى مرحة بفطرتها ، فهى منذ الطفولة تحب اللعب والمرح ، ولكنها بالتدريج أصبحت معتدلة ، ولديها كثير من رقة الشعور ، سريعة

التأثر ، وقلبها رقيق كله عطف وحنو وشفقة ، يحول بينها وبين ايلام غيرها • فاذا كلمتها كلمة تمس شعورها فانها لا تعاملك كما عاملتها ، وقد يبدو عليهـــا التأثر ، وتنفرد فى حجرتها لتسلم نفســها للدموع والبكاء ، فاذا استدعاها أبوها أو أمها فى أثناء بكائها اجتهدت فى وقف هذا البكاء ، ومسحت عينيها من الدموع ، وعادت الى حالتها الأولى من الضحك والمرح والسرور ، فهى سريعة التغير ، ولكن اذا أعطيتها الفرصة فى التأمل والتفكير أصلحت خطأها ، وعادت الى سيرتها الأولى •

ولديها قدرة كبيرة على تعلم اللغات بوجه عام ، فهى مولعة منـذ الطفولة بترديد الأصوات التى تسمعها ، سواء أفهمتها أم لم تفهمها ، ولذا تستطيع أن تتعلم اللغة بسرعة ، لأنها سريعة المحاكاة ، كثيرة الكلام ، تتكلم كثيرا فيما تعرف وما لاتعرف ، أما الرجل فلا يتكـلم الا عنـد الضرورة ، ولا يتكلم الا فيما يعرف •

ان صوفى لاتعرف عن العالم الا قليلا ، ومع هذا تعرف ماعليها من واجب • وهى جميلة الذوق ، مؤدبة فى حديثها ، لاترتبك اذا سألتها ، ولا تضطرب اذا حادثتها • وهى تقصد ماتقول ، وتراعى شعور غيرها ، ولا تتظاهر فى حديثها • وآراؤها الآن ناضجة ، وأحكامها سديدة ، فهى كفتاة فى العشرين مع أن عمرها لم يتجاوز الخامسة عشرة ، ولذا لايعاملها والداها معاملتهما لطفلة ، بل يعاملانها كفتاة ناضجة الرأى ، ســديدة الحكم ، بلغت مبلغ النساء فى مظهرها وأدبها • فهى قد كملت من الناحية الخلقية ، فلا لوم ، ولا اعتراض اذا خاطبها أبوها هكذا : « صوفى ، انك الآن فتاة كاملة • ولن تستمرى فتاة ، لأن سعادتنا فى أن تكونى سعيدة• وان سعادة الفتاة الكاملة فى أن تجعل زوجها الوفى المخلص سعيدا ، لهذا يجب أن نفكر فى تزويجك فى الوقت الملائم ، فمستقبلك فى الحياة يبنى على أن تتزوجى ، واننا لانستطيع أن نفكر طويلا فى الزواج » •

ان روسو يربى المرأة لتكون زوجا ، ويترك للفتاة اختيار زوجها الذى تشعر بحبه والميل اليه ، أما الرجل الذى لا تحبه فيجب ألا تجبر على زواجه • وينبغى ألا يكون زوجها من طبقة أرقى من طبقتها ، وأن تدرك أن الرجل قد يغشها ويضللها ويخدعها • لهذا يجب أن تستشير والدتها فيما يعرض لها من الشئون • هذا مايراه روسو فى زواجها ، ولا نجد فى ذلك غضاضة ، ولا نوجه اليه اعتراضا •

نقدنا لكتاب اميل :

ان روسو قد لحظ (اميل) ليلا ونهارا أكثر من عشرين عاما، واستمر يرعاه ويرشده حتى بعد زواجه • وهذه طريقة غير طبيعية ، مع أن روسو نادى كثيرا بالتربية الطبيعية ، فروسو على الدوام حريص ، يمنع (اميل) من كذا ، ويعمل على تمثيل خطط وضعها له • وهذا كله ضد الطبيعة • فهو يريد أن يفكر (اميل) كما يشاء ، ويعمل كما يشاء ، ويتكلم كما يريد ، ويدع الحوادث كما تحدث ، ويتأثر بها كما يتأثر ، ولكى ينجح فى طريقته يجب أن يكون لدينا حارس مثل روسو ، وتلميذ كاميل • ومعنى هذا أنه يجب أن نأتى بمرب يضحى بوقته ، ويخصص خمسا وعشرين سنة من حياته لكى نربى طفلا واحدا • فكأن كل طفل فى حاجة الى مرب ، وبعبارة أخرى يجب أن يكون نصف الشعب من المعلمين ، والنصف الآخر من المتعلمين • وهذا محال فى أمة تبغى نشر التعليم بين جميع الطبقات •

وبالبحث فى طريقة روسو فى تربية (اميل) نقول : ان بعض طرقه لايمكن تنفيذها بطريقة عملية ، وبعض آرائه ليس بجديد ، فقد تأثر بمونتين ، كما تأثر بجون لوك ، ولكن كان له الفضل فى قوة التأثير بأسلوبه العذب المؤثر • ولا يفضله فى التربية العملية الا رابلى (١) ، فقد نقد رابلى شدة الضغط على جسم الطفل وأعضائه ، وعنى بتمرين الجسم والعقل لتربيتهما تربية صحيحة ، ولم يفرق بين الطبقة الخاصة والفقيرة فى التربية • فالأمير فى نظره ينشر الخشب ويقطعه ، ويجمع القش ، والتلميذ يصنع العدد لنفسه ، ويتعلم الأشياء قبل أن يتعلم اللغة والكلمات ، ويكسب علومه ومعارفه بملاحظة الطبيعة وما فيها من حيوان ونبات وجماد •

لقد ذكر روسو دروسا ثمينة فى تربية الأطفال ، مع أنه هجر أطفاله • وتكلم كثيرا عن مذاهب التربية مع أنه صرح بأنه لا مذهب له فيها ، ونادى بالفضيلة مع أنها كانت بريئة منه ، وأطال فى الكلام عن الحياة الزوجية مع أنه كان يعيش مع خادم ساقطة ، واحتقر الأغنياء والعظماء مع أنهم فى عصره أظهروا له كثيرا من العطف والشفقة • وقد كتب فى التربية كتابة لم يفقه فيها أحد ، مع أنه أخفق فى أن يكون معلما • وقد وافقناه فى كثير من آرائه فى التربية ، وعارضناه ونقدناه فى

---

(١) Rabelais

بعضها · وبتحليلنا لتلك الآراء فى تربية الطفل والطفلة ، فى المراحل المختلفة للتربية ـ قد قمنا بنقد روسو نقدا بريئا فى ضوء التربية الحديثة فى القرن العشرين ، وراعينا العصر الذى كان يعيش فيه ، والعصر الذى نعيش فيه ، وما تتطلبه البيئة فى الجمهورية العربية المتحدة الخالدة ، والشرق العظيم ·

ونقول حقا فى الختام : ان روسو مؤسس التربية الحديثة ، والتربية فى القرن العشرين مدينة له ، وان المربين لا ينكرون فضله · ونعتقد أننا بكتابتنا هذا الكتاب قد ذكرنا الطريقة التى بها يربى الابن تربية حقا ، وتربى البنت تربية كاملة ، حتى يصل الاثنان الى حياة هانئة سعيدة · نسأل الله الهداية والتوفيق ·

فهرس التربية المثالية

الموضوع	الصفحة
مقـــدمة	٣
الفصل الأول :	
جان جاك روسو المربى مؤسس التربية الحديثة	٩
الفصل الثانى :	
آراء روسو فى التربية	٢٥
الفصل الثالث :	
آراء روسو فى التربية والتعليم	٥٣
الفصل الرابع :	
كتاب (أميل)	٦٥

الموضوع	الصفحة

الفصل الخامس :

الجزء الاول من كتاب (اميل) ٨٥

الفصل السادس :

الجزء الثانى من كتاب (اميل) ٩٩

الفصل السابع :

تكملة الجزء الثانى من كتاب (اميل) ١١٩

الفصل الثامن :

الجزء الثالث من كتاب (اميل) ١٥١

الفصل التاسع :

الجزء الرابع من كتاب (اميل) ١٧٧

الفصل العاشر :

الجزء الخامس من كتاب (اميل) ٢٢١

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

العدد ١٤٦
ـ ص ـ
الثمن ٢٥
١٩٦٧/٢/٨